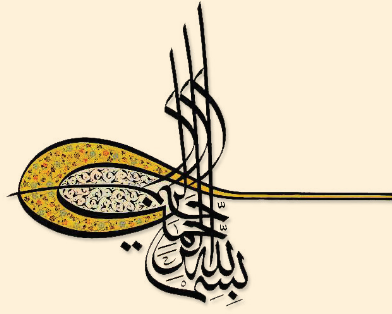


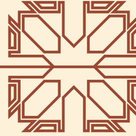
يارَبّ

احفظنا من عاقبة الذين خاضوا غمار الدنيا وأهلكوا أنفسهم وأغرقوها بكأس من الماء

يارَبّ؛ يا أرحم الراحمين تفضل علينا كما تفضلت على عبادك الصالحين بالبركة والنعمة والصفات العلوية وزينّا بزينة الوصول إليك واجعل حياتنا ومماتنا كحياتهم ومماتهم

يا رَبّ

تفضل علينا كما تفضلت على الخلق بعين المحبة والخشوع واجعلنا ممن يتتطلعون عليها بعين الأيمان واجعلنا ممن يذرفون دموع الندامة وامنحنا المغفرة وارزقنا وجوهً مبيضة ونفوساً راضيةً يوم لقائك



إسطنبول: ١٤٣١/ ٢٠١٠

اسم الكتاب باللغة التركية: Son Nefes

الترجمة للعربية: د.عبدالله المصري

مراجعة، تصحيح وتدقيق: د.آدم أقيــن

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨-٩٩٤٤-٢١٣-٧

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

العنوان:



Adres : Organize Sanayi Bölgesi Turgut Özal Cad.
No: 117 Kat: 2/C Başakşehir / İstanbul
Tel: (0090 212) 671 07 00 Pbx Faks:(0090 212) 671 07 48
www.worldpublishings.com/sa

الأنفاس الأخيرة

تأليف

عثمان نوري طوباش

ترجمة

د.عبد الله المصري

مراجعة،تصحيح وتدقيق

الدكتور. آدم آقيــن

المقدمـة

احمد الله تعالى الذي تقدست أسماؤه الذي رزقنا – نحن عبيده الضعفاء العاجزين – نشوة الإيمان وسكينته.

وأصلي وأسلم على فخر الكائنات سيدنا محمد ﷺ الذي كان سبباً لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ﷺ. أما بعد:

فإن هذا الكتاب الذي نُقَدِم له كان في الأساس مجموعة من المقالات التي نُشرت في مجلة "**أَلتوُن أُولوق**" ثم إستطعنا –بفضل الله تعالى– أن نجمعها بين دفتي كتاب. وفي هذه المقدمة سوف نتعرض بشكل مختصر لمحتويات هذا الكتاب فنقول:

إن الإنسان عند لحظة خروجه من دار الغربة التي جاء إليها من أجل الاِختبار والاِمتحان فإنه يقف على باب عالم أبدي . ذلك العالم له بابان: أولهما يوصل إلى الخسران المبين، والآخر يوصل إلى السعادة الأبدية، الأَنفاسُ الأَخيرة –التي هي خلاصة عمر العبد– تُبَين من أي البابين سيمر العبد إلى ذلك العالم الأبدي.

ومن هذه الناحية فإن كل لحظة في عمرنا يجب أن تمر بجمال ناضج رشيد يغلفها التفكير في هم الأَنفاسُ الأَخيرة والشوق اليها، لأن



لحظة كتلك اللحظة التي يمكنها أن تجعلنا نفتح أعيننا محلقين وناظرين إلى العالم الأبدي من الباب الذي يوصل إلى السعادة، ومن أجلِ ذلك يجب أن نكون في حالة ترقب ومراقبة دائمة فيما يتعلق **بالأَنفاسُ الأَخيرةُ** في هذه الدنيا الفانية.

وفي الحقيقة فإن أول إشارة تُبين ما سيكون عليه حالنا في الآخرة تظهر في حالنا عند **الأَنفاس الأخيرة**، وكل عبد طيب يجب عليه أن يُجهز أنفاسه المعدودة في هذه الدنيا الفانية استعدادًا لهذه اللحظة، ولكي نوفق في الحصول على حياة أخروية سعيدة يجب أن نعيش الحياة الدنيا دائمًا على الإستقامة والنقاء والنور والسكينة وأن نزين هذه الحياة الدنيا بالأعمال الصالحة، فالحياة مثل قطرات الماء التي تملأ كوبًا، وشفافية الماء ونقاؤه في الكوب ترتبط بنقاء القطرات وشفافيتها، والقطرة الأخيرة التي تجعل الكوب يفيض هي بمثابة **الأَنفاس الأخيرة**. وقد ورد في الخبر:

"يموت المرء على ما عاش عليه، ويُحشر على ما مات عليه"

(المناوي؛ فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج٥، ص٦٦٣)

والنفس الأخير مثل مرآة براقة لا غُبار عليها ، تعكس عاقبة كل فرد أمام نفسه، فالإنسان يعرف نفسه في أنقى شكل وأصفاه عند النفس الأخير، وكما قال نجيب فاضل الشاعر التركي الكبير:

في تلك اللحظة التي ترتفع فيها الحُجب وتنزل فيها الحُجب

تكون المهارة بأن تستطيع قول: "مرحبًا " لملك الموت



إن حساب الحياة الدنيا للعبد يُعرض في تلك اللحظة أمام القلب والعين، ولهذا السبب فليس هناك ما هو أكثر تعبيرًا وعبرةً من لحظة الموت بالنسبة للإنسـان.

والواقع أن الأنفاس كلها التي نتنفسها مع العبادة والأخلاق والمعاملات التي نعيشها في هذه الحياة الدنيا هي -تقريبًا- بمثابة بوصلة ومؤشر لأَنفاسنا الأَخيرة، وهى في نفس الوقت ترجمان عن حالنا الذي سيكون في الآخرة أكثر من كونها ترجمانًا لحالنا في هذه الدنيا.

إن حياتنا في القبر -والتي ستستمر حتى يوم القيامة- ستتشكل بحسب وضعنا وأعمالنا التي كانت في الدنيا. فبإمكاننا تحويل الموت إلى نصر وإلى "**ليلة عُرس**" بدل أن يكون أسودًا كئيبًا قاتمًا وأن لا يكون طريقًا للخسران المبين، وهذا هو دأب من يعرفون الموت ويجهزون العدة للمصير الذي يرغبون فيه بعد الموت.

وعبيد كهؤلاء يجعلون أعمارهم تمر في أفضل حال، وأكثرها بركة فيدخلون في حلقة ذكر الله مع الكائنات ويحيون أوقات السَّحر التي هي أكثر أوقات الذكر بركةً ونورًا، والواقع إن الذين لا يجعلون الأَسْحَار نموذجًا مصغرًا لنهارهم ويقضون أسحارهم نيامًا، سيظلون محرومين من هذه البركة وهذا الفيض والنور مثلما تذهب أمطار شهر إبريل المباركة المعطاءة هباءً منثورًا عندما تهطل على الصحراء والبحر والأحجار الصلدة الملساء.



ومن أجل ألا يسقط عباد الله المخلصين في غفلة كتلك، فإنهم لا يبقون بعيدين عن أجواء "**القرآن والتفكُر**" ويتعلمون في تلك الأجواء المباركة أنه توجد ثلاثة أشياء في هذه الحياة الدنيا تتجلى فيها الصفات الإلهية للحق ﷻ بمعناها الكامل هي: الإنسان والقرآن والكائنات.

فالكائنات من أهم هذه التجليات الثلاثة فهي كتاب أسرار وتجلٍّ مملوء بالآيات الجاذبة، وهى تجل فعلي للأسماء الإلهية فهي أشبه بقرآن صامت بلا صوت، والقرآن أيضًا هو عالم ودنيا لُفّتْ آياته بالكلام.

أما الإنسان فهو نقطة مركز معرفة موجودة عند تقاطع كل منهما وفى نقطة التقاء كل منهما، وهو أيضًا مَعْلَمُ ورمز للتجلي الإلهي، والعارفون الذين يعيشون بهذا الشعور يدركون -في أجواء القرآن والتفكر- أن القرآن دائمًا في المقدمة وأن العلم دائمًا يأتي خلفه؛ لأن القرآن ليس علمًا إنسانيًا عاجزًا، بل هو علم رباني أنعم الله تعالى به على البشر، ووضع به قواعد العلوم كلها التي في هذه الدنيا، وهو في نفس الوقت أيضًا من يخلق المدارك التي كانت واسطة ووسيلة للإستكشافات العلمية.

فمن هذه الناحية يمكن أن يُقال عن القرآن والتفكر: إنه من أعظم الحقائق التي يمكن الوصول إليها نتيجة تقوية وتغذية التفكر الذي لدينا بالقرآن عندها سنكتسب من العظمة والضخامة مثل ما



تكتسبه بذرة شجرة صغيرة جدًّا عندما تتحول إلى شجرة عظيمة ضخمة بواسطة الأرض المنبتة، وعلى الرغم من أن نور القرآن لا ينفد، وهديه وإرشاده العالي لا ينتهي، إلا أن قابليتنا الخاصة وتفكُرنا يبقى مثل بذرة جافة محرومة من الأرض المنبتة، وعلى ضوء ذلك نحن العبيد ليس لنا هناك نعمة أكبر من إدراك العلو الإلهي وسموه الخالد الذي يتحقق في ظل القرآن الكريم.

وهكذا فإن القلوب التي تمتزج بالتفكير في الحقائق العالية تستطيع أن تتطهر بالتوبة ودمع العين من داخلها وخارجها في تلك الدنيا الفانية التي هي دار امتحان وبالتبعية دار أخطاء ومعاصٍ. وما أجمل وصف الشاعر لهؤلاء الخاصة من العبيد فيقول:

هم يسعون ويكدون لأن يكونوا في فضاء الروح

فهم يتحملون أذى وأضرار الحبوعلى الأرض

يسبحون النجوم سبحة سبحة

ويصلون في الصف الأَخير

ولو زلت عيونهم إلى الغير لحظة

يكون دمع العين همرًا هو جزاؤهم طول العمرِ

فهم يدعون ربهم على الدوام، ويسعون لبلوغ هذا الحق، ويقول فيهم ربنا عَزَّوَجَلَّ:﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً**﴾ (الفرقان، ٧٧)

وهكذا فإنهم -نتيجة إدراك علوي كهذا- يعيشون داخلي أنهم بالإمكان أن يكونوا خير أمة، ومن أجل هذا فإنهم يزينون ويكسون خصالهم وأحوالهم كلها بزينة الدعوة إلى الحق والخير، لأن السبيل إلى أن يكونوا خير أمة يمر من هذا الطريق،وفي ذلك يقول الحق ﷻ:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران، ١١٠)

والواقع أن من يعيش في حماس ونشاط أكيد من أجل أداء تلك الوظيفة السامية وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالشكل المطلوب، فإنهم يزينون عالم القلب والوجدان برقة وسماحة وجمال الإسلام. ويكونون نموذجًا مثالياً بأحوالهم وأقوالهم وأفعالهم النموذجية في الدعوة والحث على الخير وتبليغ الحق. وهؤلاء يحققون الدعوة إلى الحق والخير في إطار سر الآية الكريمة التي تقول:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل، ١٢٥)

وهكذا فإن هذه الجماليات عبارة عن جمال حال المؤمن وعمله الذي ينعكس على قلبه وحياته. وذلك لأن المؤمن هو أهل لإيثار زائد، وإنه في ذروة الكرم المادي والمعنوي. كما أن في داخله غنى لا حدود له بإستغنائه عما في أيدي الناس، فأخلاق



التجارة التي عنده قد ملأت التجارة التي كان يقوم بها ﷺ بركة، والأورام الخبيثة مثل الربا لم تعرف طريقًا إلى مكسبه الحلال ، وماله هو قرض حسن أعطي لله ﷻ، ومن هذه الناحية فهو يراعى المقاييس الإلهية، فهو دقيق إلى أقصى حد في شأن الدين والاِستدانة في العلاقات الاِجتماعية، لأن ذلك المؤمن قد أسس علاقة محبة مع الله تعالى ورسوله ﷺ، وقد أسس صداقة مع الأولياء، وأحكم تثبيت هذه الصداقة بالوفاء، وهو لا يمن على أصدقائه في أي وقت ولا يدفعهم للإعتراف بهذا الوفاء، وهكذا في كل صفاته وأحواله يكون في مقامه نموذجًا لأهل الإيمان ، وفى هذا المقام كل تقدير إلهي يعطيه صفاءً وراحة.

قُـراؤنـا الأعـزاء . . ،

إن الموضوعات والأمور التي سعينا لتقديمها لكم في كتابنا هذا الذي سميناه بـ "**الأَنفاسُ الأَخيرة**" هي جملة من كل ما ذكرناه.

بالاِضافة الى ذلك فقد تحدثنا عن أحد أحباب الحق ﷻ الكبار الذي وصل إلى حضرة الخالق تعالى بوجه أبيض وقد أعد للنَّفَس الأخير روحًا علوية تخطف الأبصار وتحير الألباب، وقد عرضنا ذلك الأمر تحت عنوان "**موسى أفندي–قدس سره–من الإيمان إلى الإحسان**" من قبيل أنه يشكل لنا نموذجًا جديرًا بالإتباع . كما أضفنا إلى خاتمة كتابنا التحقيق الذي قامت به مجلة "**آلتون اولوق**"



والمتعلق بكتابنا المُسمى **"التصوف من الإيمان إلى الإحسان"** والذي كان لمسة قلبية تناولنا فيها بالقلم طريق التصوف العظيم الذي سار فيه هؤلاء البشر العظماء، وأظهرنا جمال ذلك الطريق وعظمته وتمامه وكماله. وأردنا أن نشير إلى أن التصوف الحقيقي هو الحياة في عمق الكتاب والسنة الشعوري مع الأخذ نصيبًا من الأسرار والحكم.

وكل قولٍ أو حالٍ أو سلوكٍ يخالف محتوى الكتاب والسنة فهو باطل ، وقد قيل للتعبير عن هذه الحقيقة إن الشريعة هي الذراع الثابت للفرجار الهندسي ، وقلنا بإختصار أنه من الممكن أن يكون هناك تدين بلا تصوف، ولكن هذا التدين يكون محرومًا من قوام الإحسان.أي أن الحياة الإسلامية المُجردة من التصوف الذي هو تربية معنوية لا يمكن أن توصل الشخص إلى قوام العبودية الذي شعاره "**اعبد الله كأنك تراه**".

ومن لا يصلوا إلى هذا الحال يعيشوا ضيقًا وصعوبةً في الأَنفاسُ الأَخيرة. أي أن قوام عبوديتنا -لكي نستطيع المرور إلى عالم الأبدية من باب السعادة عند نفسنا الأخير- يمر من باب عبادته تحت شعار "**اعبد الله كأنك تراه**".

ويجب ألا ننسى أن الإنسان يواجه بأسباب الموت التي لا حصر لها ليل نهار سواء أدرك ذلك أم لم يدركه، فالموت يكمن ويختبئ للإنسان في كل لحظة. وقد قال مولانا جلال الدين



الرومي -قدس سره- في المثنوي معبرًا عن تلك الحال: «كل لحظة في الحقيقة هي موت جزء من روحِك، وكل لحظة هي وقت تسليم الروح، وكل لحظة ينقضي عمرك».

في الحقيقة أن الإنسان يبتعد كل يوم عن تلك الحياة الفانية ويقترب خطوة أكثر إلى القبر؟ أليس كل يوم سوى طيٍ لصفحة من أيام عمرنا؟

إن كل حجر في المقبرة ملفوف بصمت الموت هو ناصح أمين يتحدث بلسان الحال. ولعل إنشاء المقابر داخل المدن وفى أفنية المساجد وعلى جانبي الطريق هو تفكُر فعلى بشكل ما في الموت، وهو دعوة لأن تنظم حياتك في الدنيا تبعًا لهذا الموت. إن أكتاف الكلمات الضعيفة لا تستطيع أن تحمل ثقل الموت الرهيب، وكل القدرات والسلطات كلها تنتهي في مواجهة الموت.

إن الموت هو قيامة المرء الخاصة، ويلزم علينا أن ننتبه قبل قيام قيامتنا حتى لا نكون ممن يندمون، لأن كل فانٍ من المؤكد أنه سيقابل ملك الموت في زمن مجهول ومكان مجهول، وليس هناك مهرب أو مكان يفر إليه المرء من الموت. فالإنسان في هذه الحالة يجب أن يأخذ حظه من تلك الآية ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ**﴾ (الذاريات، ٥٠) ويتأكد أن الملجأ والمأوى الوحيد هو الرحمة الإلهية.

وأي عبد -بإستثناء الأنبياء والرُسل- ليس في مأمن، بشكل قاطع، من خطر أن تزل قدمه عن طريق الإيمان. ولهذا السبب فإن



كل مؤمن يجب أن يسعى إلى تقييم وتقدير نعمة العمر الذي مُنح له بالشكل اللائق. والوسيلة الوحيدة للنجاة من نفحات الموت الباردة هي السعي فقط إلى أن تعيش عمرًا بشكل صالح حسن، لأن الذين يستعدون للموت بدلاً من أن يشعروا بالخوف من الموت، فإنهم يتلقون هذا الموت باعتباره وسيلة للوصول للحياة الأبدية، وهؤلاء هم العبيد السعداء الذين وصلوا إلى «**تجميل الموت**» أي الراحة والهدوء به.

أما الذين نسوا آخرتهم وعاشوا حياة غافلة فإنهم لم يستطيعوا التخلص من الإحساس والشعور بالقشعريرة الباردة في مواجهة دوامته الرهيبة والمظلمة. وما أجمل ما قاله مولانا جلال الدين الرومي -قدس سره- إذ يقول:

«بني! إن موت كل شخص بحسب ما يحب، وباللون الذي يريد. فالموت يبدو كعدو رهيب لمن يعادون الموت وينفرون منه ويكرهونه دون أن يفكروا في أنه هو الوسيلة التي توصلهم إلى الله سبحانه وتعالى، والموت يبدو أيضًا كصديق أمام من يصادقون ويحبون الموت».

في الحقيقة إن الأَنفاسُ الأَخيرة هي مرآة لا غبش فيها ولا وسخ، وكل إنسان يرى في تلك المرآة عمره كله بحسناته وسيئاته في أوضح صورة، وفى تلك اللحظة لا تُسدل أستار الغفلة والعناد على العيون والآذان، بل على العكس تُرفع تلك الأستار كلها، وكل أنواع



الاِعتراف تدفع العقل والوجدان إلى جو من الشعور بالندم ، ولهذا السبب يجب علينا ألا نجعل الأنفاسُ الأَخيرة هي المرآة التي نشاهد فيها حياتنا ونحن نشعر بالحسرة والندم.

وسوف تدخل تلك المرآة إلى حياتنا عندما نعيش فقط في نور القرآن الكريم والسنة المُطهرة؛ لأن السعداء الحقيقيين هم الذين استطاعوا أن يعرفوا أنفسهم قبل أن يلتقوا بالموت.

وفى نهاية هذا التقديم أقدم شكري إلى أخواي م. **على أشملي** ، و م.**عاكف جوناي** اللذين قدما لي المساعدة عند تأليف هذا الكتاب، وأتضرع إلى الحق ﷻ أن يجعل هذا العمل صدقة جارية لهم وأن يكافئهم على هذا الجهد.

فاللهم إجعل **نفسنا الأخي**ر نافذة نشاهد منها مكافأتنا وأجرنا الذي جعلته لنا في العالم الأبدي ...آمين.

عثمان نوري طوباش

إسطنبول -أسكدار/ ٢٠١٠

الأنفاسُ الأخيرة
(١)



إن الإنسان يواجه الموت مرات لا حصر لها طوال عمره. فالأمراض التي تظهر، والمفاجآت غير المتوقعة، والمصائب التي تحدث، والمخاطر الحياتية الكثيرة الموجودة في كل لحظة في الحياة. ألا تشكل كل تلك الأشياء حاجزًا رقيقًا للغاية بين الموت والإنسان؟



الأنفاسُ الأخيرة

-١-

إن الحق ﷻ قد إختص نفسه وحده فقط بصفة البقاء. ولهذا السبب فإن مصير جميع عباده سبحانه وتعالى هو الفناء. وفي هذا تقول الآية الكريمة: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾ (الرحمن، ٢٦)

وتؤكد الآية :

﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ (الأنبياء، ٣٥) أن الموت حق على كل نفس.

وعلى هذا النحو يكون من الضروري أن يعيش الإنسان بخاصة وهو دائم التفكير في هذه الحقيقة الأبدية، ومن أجل هذا نجد الآية الأخرى تقول:

﴿**وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ**﴾ (ق، ١٩)

فالإنسان قد أرسل إلى هذه الدنيا الفانية للإمتحان والإختبار، ولهذا فإن أكبر غاية هي أن يسعى العبد للحصول على رضاء الله ﷻ، وأن ينال الجنة التي هي دار السلام. وطريق تحقيق هذه الغاية تشمله تلك الحقيقة:

﴿**يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ. إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ (الشعراء، ٨٨ -٨٩)



وتحقيق هذا الأمر يكون ممكنًا بتربية النفس. وجوهر تربية النَّفْس هو التسليم التام وطاعة وإتباع رسول الله ﷺ. أي إمكانية الحصول على قدر من الحياة النبوية التي استمرت ثلاثة وعشرين عامًا، وبمعنى أدق الحصول على قدر من مناخ رسول الله ﷺ القلبي. لأن الحق ﷻ أنزل القرآن الكريم على قلب رسول الله ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام، ولهذا كانت عبادات وأقوال ومعاملات وسلوكيات رسول الله ﷺ كلها تعد بمثابة تفسير للقرآن الكريم.

وفى إطار هذه الحقائق لكي نحصل على قدر مناسب من العالم القلبي لرسول الله ﷺ، يُشترط أن يكون الرسول ﷺ أحب إلينا من الزوج والمال والأهل والولد، وباختصار أحب إلينا من كل شيء.

وهذه المحبة تمنح العبد محبة الحق ﷻ. أي أن محبة الرسول ﷺ هي محبة الله تعالى، ومحبة الله تعالى هي محبة الرسول ﷺ. وهكذا يجب على القلب لكي يحقق الوصل أن يصل إلى تلك الحال.

وهذه هي أجمل خطوات الاِستعداد للأنفاس الأخيرة. فكما أن القطرة الأخيرة التي تسقط في الكأس وتتسبب في فوران وفيضان الكأس تبدو كعمل مختلف عما سبقها من قطرات، كذلك حال أنفاسنا التي تسبق **الأَنفاسُ الأَخيرةُ** . أي أن نَفَسنا الأخير يتحدد ما ينتج عنه بحسب أنفاسنا التي سبقته، ولهذا فإن الاِستعداد الأنفاس الأخيرة يرتبط بكيفية استغلال الأنفاس التي أخذناها حتى تلك اللحظة.



فالخواص الذين يمضون أعمارهم في حب الله ﷻ وحب رسوله ﷺ ويزينون تلك الأوقات بالأعمال الصالحة يتقلون في اللحظات الأخيرة وهم سعداء مع كلمة الشهادة ولفظ التوحيد، أي ينالون تلك البشرى التي بشر بها رسول الله ﷺ عندما قال:

"من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة" (أبو داود، الجنائز، ١٥-١٦/٣١١٦).

أي الذين يعيشون عمرًا في ظل كلمة التوحيد يسافرون إلى الحق ﷻ معها في اللحظة الأخيرة، لأنهم عندما كانوا يقولون "**لا**" في كلمة التوحيد كانوا يمحون من قلوبهم كل العوارض الفانية والعلائق الشهوانية وأصنام الهوى كلها. ومع لفظة "**لا**" يملأون القلب بمحبة الله ﷻ فقط. ويجب أن يكون معلوماً أن تلك الكائنات هي منزل فانٍ أسسته يد القدرة وزينته بآلاف النقوش.

وأي شيء في الكائنات لم يخلق عبثًا، بل إن غاية الحياة الدنيا لدى البشر هي الحصول على السعادة في الآخرة، ولهذا السبب فإن ربنا ﷻ قد نبهنا نحن عبيده فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

(آل عمران، ١٠٢)

إن الموت الذي سيأتي بالتأكيد إلى كل حي هو لحظة وداع كبيرة للدنيا الفانية وهو قيامة خاصة سيعيشها كل ذي روح في



شخصه، لذا يجب ألا ننسى أن الإنسان يواجه كل يوم وليلة أسبابًا ومسببات للموت لا حصر لها ولا عد. والموت ينتظر الإنسان في كل لحظة، وفى ذلك يقول مولانا جلال الدين الرومي –قدس سره– في المثنوي:

«كل لحظة في الحقيقة هي موت جزء من روحِك، وكل لحظة هي وقت تسليم الروح، وكل لحظة ينقضي عمرك».

فهل نحن حقًا نبتعد يوماً بعد يوم عن الحياة الفانية ونقترب خطوة أكثر إلى القبر كل يوم؟ وهل كل يوم ليس سوى إقتطاع صفحة من روزنامة العمر؟

وينبه مولانا جلال الدين الرومي –من جديد– الإنسان حتى لا تصيبه الغفلة في مواجهة تيار الحياة المتدفق كنهر جار فيقول:

«أيها الإنسان! انظر إلى **الأَنفاسُ الأَخيرةُ** في المرآة! ولا تنخدع بالكذب الذي في تلك المرآة، فالشباب مصيره إلى شيخوخة، والبناء ذات يوم مستقبله إلى تراب».

إن نَفَسنا الأخير هو سر إلهي في إطار حِكَم كثيرة جدًّا، أي أن تحقق واقعة الموت –التي هي أكثر الحقائق التي نعرفها عن مستقبلنا تأكيدًا– وزمن وقوعها مرتبط بالتقدير الإلهي.

حقيقة إن الإنسان يواجه بالموت مرات لا حصر لها طوال عمره، فالأمراض التي تصيب الإنسان، والمفاجآت غير المتوقعة،



والمصائب التي تحدث، والمخاطر الحياتية الكثيرة الموجودة في كل لحظة بالحياة والتي تمر -مع الأسف- دون أن يتعظ منها الإنسان بسبب عجزه وغفلته... ألا تشكل كل تلك الأشياء حاجزًا رقيقًا للغاية بين الموت والإنسان؟

وفى تلك الحال فإن الإنسان يدخل مرات لا حصر لها كل يوم في محتوى الآيات الكريمة التي ذكرت سابقًا. ومن ناحية أخرى فإن الفرصة والمهلة -التي لن تعطى في الآخرة- قد أعطيت مرارًا وتكرارًا في هذه الحياة الدنيا. ورغم هذا فإن الإنسان بينما كان يجب أن يكون على يقظة وحذر كبيرين، إذا به مع الأسف يشاهد سقوط أوراق عمره واحدة بعد الأخرى وهو في غفلة كبيرة متبلد الحس والإحساس تماما مثل الأحجار الصلدة التي لاتستطيع أن تأخذ نصيبًا من قطرات المطر التي تهطل عليها.

نحن في الأساس نموت منذ اليوم الذي ولدنا فيه قطعة قطعة كل يوم. ودون أن ننتبه نتجه مباشرة كل يوم إلى الموت. وما أجمل تلك الآية الكريمة التي تعبر عن أن كل لحظة تسقط من شريط الزمن تقربنا إلى صبح الحقيقة فتقول:

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ﴾ (يس، ٦٨)

وكان هناك عبد صالح يسمى قُس بن ساعدة عاش قبل النبي ﷺ وبشر بقدومه قام يخطب في الناس في سوق عكاظ وتحدث عن هذه الحياة الفانية بشكل جميل، وعما يحدث فيها موافقًا لما ذكرته



الآية السابقة فقال: «أيها الناس اسمعوا وعوا وإذا وعيتم فانتفعوا إنه من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت، مطر ونبات وأرزاق وأقوات وآباء وأمهات وأحياء وأموات، جمع وأشتات وآيات وأرض ذات رتاج، وبحار ذات أمواج، ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا هناك فناموا. أقسم قس قسماً لا حانث فيه ولا آثماً إن لله دينًا هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه ونبيًا قد حان حينه وأظلكم أوانه فطوبى لمن آمن به فهداه، وويل لمن خالفه وعصاه. ثم قال تبًا لأرباب الغفلة من الأمم الخالية والقرون الماضية يا معشر إياد أين الآباء والأجداد، وأين ثمود وعاد، وأين الفراعنة الشداد، أين من بَنَى وشَيَّد وزخرف وغره المال والولد، أين من بغى وطغى وجمع فأوعى وقال أنا ربكم الأعلى؟ ألم يكونوا أكثر منكم أموالاً وأطول منكم آجالاً وأبعد منكم آمالاً طحنهم الثرى بكلكله ومزقهم بتطاوله فتلك عظامهم بالية وبيوتهم خاوية عمرتها الذئاب العاوية كلا بل هو الله الواحد المعبود ليس والد ولا مولود».

ونحن أيضًا في اليوم الذي نستكمل فيه الأنفاس المعدودة بلطف الله ﷻ ونجود بأنفاسنا الأخيرة سنلاقي الموت بوداع أو بغير وداع للدنيا ولروابطنا كلها التي فيها. ولكن هذه الملاقاة بالنسبة للعباد الصادقين العاشقين للحق ﷻ لا تكون موتًا، بل ستكون إحياءً سعيدًا وستكون بالنسبة لهم «**ليلة عرس**»، ومن أجل أن نكون مثلهم



يجب أن تصل إلى سر **«موتوا قبل أن تموتوا»**.

وقد عبر مولانا عن هذا السر بتلك الكلمة المعبرة فقال:

«موتوا لتحيوا»

وكذلك عبر عنه أيضًا سيدنا علي ﷺ حين قال:

«الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا»

وعلى هذا النحو يجب أن نعلم أننا لا يمكن أن نهزم مشاعرنا الشهوانية ورغباتنا الدنيوية في تلك الحياة بتلك الروح الحيوانية التي ركبت فينا، بل يمكن أن نفعل ذلك بالروح الإلهية التي نفخها الله تعالى فينا نحن البشر.

وعلى هذا فإن أفجع أنواع الموت هي أن تكون غافلاً عن الحق ﷻ وأن تخسر رضاه. فالمؤمن به يجب أن يدرك ويعرف كيف يعيش وكيف يموت، وأن يدخل في طريق يوصله من الإيمان إلى الإحسان؛ لأنه ليس هناك شخص – بإستثناء الأنبياء – لديه طمأنينة فيما يتعلق بالحال التي سيموت عليها، وعلى أي شكل سيُبعث؟

ومع أن الحال هكذا نجد أن يوسف ؑ يتضرع إلى الحق تعالى قائلا:

﴿أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف، ١٠١) وهذا يحمل معنى عميقًا وعظيما جدًا بالنسبة لنا.

ومن هذه الناحية فكل عبد يريد أن يكون صالح القلب فلابد أن يعيش بين الخوف والرجاء، ويتبع ذلك بدعم تلك الحالة الروحية



باليقظة والرقابة القلبية، وأن يفني عمره مشغول البال مهموماً بأن يختم له بالإيمان، وأن يخرج نفَسه الأخير وهو على تلك الحال.

إن أول إشارة وأوضحها تبين لنا ما سيكون عليه حالنا في الآخرة تظهر في حال **الأَنفاس الأَخيرة**. فالقرآن الكريم –معقل الهداية الخالدة– يعرض لنا في واحدة من اللوحات المعبرة لأبطال الإيمان وهم سحرة فرعون الذين صارعوا للوصول إلى الخلاص الأبدي حتى آخر نفس والمكافآت التي منّ الله تعالى بها عليهم.

فسحرة فرعون أمام المعجزة الواضحة التي ظهرت على يد سيدنا موسى عليه السلام سجدوا في الحال وتشرفوا بنعمة الإيمان:

﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (الأعراف، ١٢١–١٢٢)

لكن فرعون الأحمق غضب عليهم وهددهم كأنه يتحكم في ضمائرهم بسلطانه وقوته التي يملكها:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ. لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأعراف، ١٢٣–١٢٤)

أما السحرة فكانوا في وجد إيماني عميق يرددون هذا الهتاف العلوي:

﴿قَالُوا لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ. إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء، ٥٠–٥١)

وما أجمل هذه العبابة، إنهم حتى في مواجهة هذا الظلم القاسي إذا بهم يتضرعون إلى الحق ﷻ لا ليخلصهم من الظلم، بل إنهم مشغولون بأن يسلموا أرواحهم عند آخر نفس وهم مسلمون دون أن يضعف إيمانهم فيقولون:

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف، ١٢٦)

وفي نهاية الأمر وصلوا إلى معية الحق ﷻ وهم شهداء أولياء؛ لأنهم وقعوا صكاً مقابل الهداية التي نالوها تمثل في صلبهم وقطع أرجلهم وأيديهم.

وكما أن الطغاة عذبوا وأحرقوا أصحاب الأخدود لأنهم آمنوا بالله ﷻ وألقوهم في أخاديد مملوءة بالنار، ولكن المؤمنين الصادقين -رغم هذا الظلم- لم ينصرفوا عن إيمانهم ووقعوا في وجد إيماني عال لله ﷻ مقابل إيمانهم عندما ذهبوا للموت غير مترددين ولا خائفين في سبيل دعوتهم، لأن الخائفين بحق من الله تعالى لا يشعرون بالخوف في مواجهة أي شيء آخر.

فحبيب النجار -من أصحاب القرية- رُجم وقتل بسبب إيمانه ودعوته، ولكنه في آخر أنفاسه مودعًا هذه الدنيا الفانية مقبلاً على الآخرة عندما رأى المنح الإلهية التي سينالها في الآخرة شعر بالأسى والمرارة من غفلة قومه وقال:

﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ (يس، ٢٦)

لأنه في مقابل رجمه في هذا العالم الفاني حصل على سعادة أبدية خالدة لا تنتهي في الآخرة.

مرة أخرى كان الرومان واليونان وعبدة الأصنام في الفترات الأولى لإنتشار المسيحية كانوا يلقون أهل الإيمان في ذلك الوقت للأسود الجائعة في ملاعب الرياضة وهم يشاهدون ويتفرجون.

أما هؤلاء المؤمنون فكانوا يتصارعون بين أنياب الأسود ليس من أجل البقاء في الحياة، بل لتخليص إيمانهم والنجاة به، فقد صبروا على هذا الظلم الفاحش لأنهم رضوا بالمكافأة العالية التي عند الله تعالى.

ومما لاشك فيه أن كل هذه الأحوال السامية هي نتيجة لأنهم استطاعوا أن يعيشوا عمرهم في شعور «**أنهم مع الله تعالى**». ومن هذه الناحية كانت القدرة على أن يكونوا مع الله تعالى وفى معيته التي هي أعلى ذرى العبودية.

كان هناك واعظ يتحدث عن أحوال القيامة ومن بين الحضور كان مولانا الشيخ الشبلي، وقرب نهاية المجلس تحدث الواعظ عن الأسئلة التي سيسألها الحق ﷻ للعبد في القبر فقال: «سيسأل العبد عن علمه فيما عمل به، وعن ماله فيما أنفقه، وسيسأل عن عبادته وسيسأل عن مراقبته للحلال والحرام» وأخذ يعدد كثيرًا من الأمور التي سيسأل عنها العبد في القبر. إلا أن مولانا الشبلي –رغم هذه الفرعيات كلها – إلْتَفَتَ إلى لُب المسألة وجوهرها ونادى



على الواعظ قائلا: «أيها السيد الواعظ! الله تعالى لا يسأل كل هذه الأسئلة الكثيرة. بل يسأل قائلا: أيا عبدي أنا كنت معك فمع من كنت أنت؟!»

فإن أكبر دستور وقاعدة هو أن تكون مع الحق ولا تضيع الأنفاس، وما أجمل ذلك التعبير عن تلك الحال في كلام الكبار عندما قيل: «فهمنا أن ساعتنا التي تمر بدونك هي ساعة ضائعة».

وقد وضع رسول الله ﷺ هذه القاعدة لسعادة الفرد عندما قال لعبد الله . بن عمر رضي الله عنهما وهو ممسك بكتفه:

"كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل" (البخاري، الرقاق، ٣)

بهذا الأمر كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ينصح دائمًا في مجالسه فيقول:

"إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك" (البخاري، الرقاق ٣)

وهذه الجمل تفيد أن مرور الحياة مثل سحابة صيف يرشدنا ويدلنا على الحياة الحقيقية، فرسول الله ﷺ كان يعبر عن هذا في دعائه وتضرعه إلى الله تعالى فيقول:

"اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة" (البخاري، الرقاق ١)

وكانت حياة الصحابة- الذين أدركوا في أجمل صورة هذا السر- مملوءة بالفضائل والحكم والعبر التي لا تعد ولا تحصى.



فسيدنا خبيب بن عدي ﵁ كانت رغبته الوحيدة قبل أن يستشهد -بعد أن سقط في أيدي المشركين أسيرًا وجاءوا به ليقتلوه- هي أن يوصل سلامًا مملوءًا بالمحبة لسيدنا رسول الله ﷺ. وكان قد رفع عينيه إلى السماء حزيناً وتضرع إلى الله قائلاً: "اللهم إنه ليس هاهنا أحد يبلغ رسولك السلام عني، فبلغه أنت عني السلام".

وفى هذه الأثناء كان رسول الله ﷺ جالساً مع أصحابه في المدينة المنورة فقال:

"**وعليه السلام ورحمة الله**" فتحير الصحابة عندما سمعوا هذا وسألوا يا رسول الله؟ فأجابهم "**هذا جبريل يقرئني من خبيب السلام**"[1].

فضلا عن ذلك فقد وصف رسول الله ﷺ خبيبًا رضي الله عنه فقال: "**عظيم الشهداء**"، وقال أيضًا "**هو جاري في الجنة**".

وهذا مثال آخر على العشق والشوق، ففي نهاية غزوة أُحد أمر رسول الله ﷺ بالبحث عن الشهداء والجرحى وكان هناك صحابي يهتم به رسول الله ﷺ وهو الصحابي الجليل سعد بن الربيع ﵁.

عن مخرمة بن بكير عن أبيه قال: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد لطلب سعد بن الربيع وقال لي: إن رأيته فاقرئه مني السلام و قل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟ قال: فجعلت أطوف بين

١ انظر: البخارى، المغازى، ١٠؛ الواقدي ، المغازى، ص.٢٨٠-٢٨١



القتلى فأصبته وفي آخر رمق وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح و ضربة بسيف ورمية بسهم فقلت له : يا سعد إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام و يقول لك : خبرني كيف تجدك ؟ قال على رسول الله السلام و عليك السلام قل له : يا رسول الله أجدني أجد ريح الجنة و قل لقومي الأنصار لا عذر لكم عند الله أن يَخلص إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم و فيكم شفر يطرف قال: و فاضت نفسه رحمه الله(٢).

وهذه الكلمات التي نطق بها الصحابي الجليل سعد بن الربيع كانت بمثابة وصية للأمة، وقد أصبحت في نفس الوقت كلمات وداع لتلك الحياة الفانية.

أيضًا تلك الحادثة التي يحكيها سيدنا حذيفة بن اليمان ﵁ والتي تلفت النظر بشدة من ناحية أنها تعكس الفضائل والأخلاق العلوية التي يقدمها الصحابة حتى في آخر أنفاسهم فيقول: «كنا في معركة اليرموك، وكانت معركة شديدة سقط فيها المسلمون شهداء وجرحى على رمال الصحراء الحارقة وبدأوا يسلمون الروح. وفي تلك الأثناء جمعت ما بقي من قوة وبدأت في البحث عن ابن عمي، وبعد أن سِرْتُ قليلاً بين الجرحى الذين يجودون بأنفاسهم الأخيرة وجدته في النهاية، ولكن ما الفائدة كان ابن عمي يرقد في بركة من الدماء. ولم يكن يقوى على الحركة، فأشار إلْيَّ بعينه فأظهرت قِرْبَة

(٢) انظر: الحاكم المستدرك، جـ.٣، ص ١٢٢/ ٤٩٠٦؛ الموطأ، الجهاد، ٤١؛ ابن هشام،جـ. ٣، ص ٤٧؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ. ٢، ص.٥٩٠

الماء التي كنت أحملها وقدمتها له قائلا: هل تريد ماء؟، ومعلوم أنه كان يريد لأن شفتيه قد تشققتا من حرارة الصحراء، ولكنه لم يستطع الرد، وكأنه أشار بعينيه أن نعم. ففتحت قِرْبَة الماء ومددتها نحوه فسمعت صوت عكرمة ﷺ من بين الجرحى يقول «الماء! الماء! أريد قطرة ماء!»، وعندما سمع الحارث بن عمي هذا التأوه صرف النظر عن نفسه وأشار بعينه وحاجبه أن احمل الماء على الفور لعكرمة فهرعت حتى وصلت إلى عكرمة وأنا أسير بين الشهداء الراقدين على الرمال الملتهبة، ومددت قربة الماء إليه، وبينما يمد عكرمة يده إلى القربة ليشرب إذا به يسمع ابن عياش وهو يقول أعطني شربة ماء! ليرضى الله عنك شربة ماء!

وعندما سمع عكرمة هذه الاِستغاثة سحب يده وأشار إليّ أن احمل الماء إلى عياش. ولم يشرب أيضًا مثله مثل الحارث.

فأخذت القربة وسرت بين الشهداء، وعندما وصلت إلى عياش سمعت كلماته الأخيرة وكان يقول: «إلهي! لم نتأخر عن بذل أرواحنا في سبيل دعوة الإيمان. فلا تضن علينا بالشهادة وأعف عن أخطائنا!».

ومعلوم أن عياش كان يشرب من شراب الشهادة. ورأى الماء الذي أحضرته له ولكن لم يكن هناك وقت. فقط استطاع أن يتم كلمة الشهادة التي كان قد بدأها.

وفى الحال رجعت مهرعاً حتى وصلت إلى عكرمة ومددت



إليه القربة ولكن عكرمة كان قد استشهد. قلت لم يعد هناك بُد يجب أن أصل إلى ابن عمي الحارث. فهرعت حتى ذهبت إليه، ولكن ما الفائدة كان ابن عمي قد أسلم الروح فوق الرمال الملتهبة مثل النار، ومع الأسف بقيت القِرْبَة مملوءة بين هؤلاء الشهداء الثلاثة[٣].

ويحكي حذيفة رضي الله عنه حالته الروحية في تلك اللحظة فيقول:«صادفت في حياتي كثيراً من الحوادث. ولكن أي منها لم تؤثر في نفسي ولم تحرك مشاعري مثل تلك الحادثة.

فأناس لا تربطهم أية قرابة إلا أن محبتهم لبعضهم بعضًا وإيثار الواحد منهم لأخيه على نفسه، ورحمة كل واحد منهم بأخيه قد بلغت الغاية إلى الحد أن الواحد منهم ليجود بأنفاسه الأخيرة التي في الحياة وهو يردد تلك الآية:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِين﴾ (الأعراف،١٢٦)

وكنت أشاهد تلك الحال التي تركت في عقلي أعمق الأثر كعلامة على صبر وجلد وإيمان كبير أصابني بالحيرة وأنا أشاهده سعيدًا مسرورًا».

فاللهم ارزقنا حسن الخاتمة، واجعل آخر أنفاسنا في هذه الدنيا أول وصولنا للعالم الأبدي...آمين...

٣ انظر: القرطبي، ١٨، ٢٨ (الحشر، ٩)؛ زيلعي، نصب الراية، ٢، ٣١٨؛ الحاكم، المستدرك، جـ.٣، ٢٧٠/ ٥٠٥٨.

الأنفاس الأخيرة
(٢)



إن غاية الحياة أن تعيش عبدًا جميلًا وتُسلم الروح
وأنت عبدٌ جميلٌ لأن الهدف من أن تأخذ نصيبًا
وقدرًا من حياة الرسول الكريم ﷺ الذي أنعم الله
به على البشرية كلها أن تستطيع أن تكون عبدًا رقيقًا
حساسًا عميق الشعورز



الأنفاس الأخيرة
(٢)

من أجل أن تودع الدنيا وأنت عبد مؤمنٍ يجب أن تكون الأنفاس المعدودة في الدنيا مستعدة **للأَنفاس الأخيرة**. أي أنه من أجل حياة سعيدة في الآخرة يلزم بشدة أن تكون الحياة الدنيا مزينة بالعمل الصالح ومبنية على الاِستقامة وذات جمال وسكينة وحضور لأن الحديث الشريف يقول:

"يموت المرء على ما عاش عليه، ويُحشر على ما مات عليه"

(المناوي؛ فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج٥، ص٦٦٣)

وفي حديث آخر:

"يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَىَ مَا مَاتَ عَلَيْهِ" (مسلم، الجنة، ٨٣)

وتوجد أمثلة على هذا لا حصر لها. وهذا واحد من تلك الأمثلة المملوءة بالصبر والحكمة:

كان هناك مؤذن في مدينة "آده بزاري" وبينما كان قادمًا لزيارة والدي المحترم موسى أفندي -قدس سره- بعد أن أدى وظيفته في صلاة الظهر، وأثناء عبوره الطريق إلى الناحية الأخرى راكبا دراجة بعد أن أُضيئَت له الإشارة الخضراء، إذ بسيارة أخرى مسرعة قادمة ناحيته ولم تتوقف عند الإشارة الحمراء واصطدمت به، ونتيجة شدة



الأِصطدام طار ذلك المؤذن في الهواء وعندما سقط على الأرض لفظ أنفاسه الأخيرة وكان آخر ما نطق به وهو يصرخ بصوت فيه حنين واشتياق هي تلك الجملة التي سمعها السائق الذي اصطدم به والجمع الغفير الذي تجمع حوله فكان يقول: «**رَبي أنا قادم إليك**».

هذه هي المسألة كلها أن تستطيع أن تنتقل إلى رحاب الله تعالى بكل سرور وسعادة في اللحظة الأخيرة من العمر، أي أن تشعر بالفرح في تلك اللحظة التي يخاف فيه كل فرد، فاللهم اجعل لنا نصيبًا من تلك السعادة أجمعين، آمين.

وهذه الحال عبر عنها الأقدمون فقالوا هذا المثل المانع الجامع: «**جرة الماء تنكسر في طريق الماء**» أي أن القلوب لو كانت مشغولة بأمر ما دائمًا في الحياة فإنها تكون مشغولة به عند الموت.

ومن المؤكد أن لهذا الأمر إستثناءات. بمعنى أنه قد يكون هناك عبد أمضى حياة مزينة بالعمل الصالح مملوءة بالخير في سعي منه لأن يُختم له بالإيمان، إلا أنه اعتمد على هذا، لذا ليس حتمًا أن ينال بهذا رحمة الله تعالى. وعلى العكس من ذلك عبداً أمضى حياته كلها مرتكبًا للذنوب والمعاصي إلا أنه يجب عليه ألا يقطع الرجاء من رحمة الله تعالى ومغفرته. لأن ما سيكون عليه النفس الأخير هو سر إلهي.

وفى كتابنا العظيم القرآن الكريم كما أنه يَعرِض العباد الصالحين الذين أعطوا جهدهم للنجاة بإيمانهم في **الأَنفاس الأَخيرة** كشخصيات



نموذجية، فإنه يعرض أيضًا في لوحة معبرة العواقب الحزينة للموتى الذين إنقادوا للكفر بعد أن سَلّموا أنفسهم لشهواتهم رغم أنهم عاشوا عمرًا ودهرًا من الزمن وهم يعملون أعمالاً صالحة.

وأبرز الأمثلة على ذلك إبليس وقارون وبلعم بن بعوراء الذين لم يطهروا أنفسهم ولم يتزينوا بالعلم وبالعرفان الذي اكتسبوه، وثعلبة الذي كان صحابيًا وانخدع بزخرف الدنيا.

ومن المعلوم أن إبليس كان صاحب مكانة عالية عند الله تعالى، ولكنه نتيجة كبره وغروره لم ير القدرة والعظمة والجلال في أمر الله تعالى وادعى أنه أفضل من سيدنا آدم عليه السلام. وقد أدى به الوهم بأنه أشرف وأعز من آدم عليه السلام إلى مخالفة وعصيان أمر الله تعالى، ونتيجة عناده وكبره سيظل إلى قيام الساعة ذليلًا تعيسًا.

أما قارون فكان في بداياته شخصًا فقيرًا صالحًا، وكان أفضل من يفسر التوراة بعد سيدنا موسى عليه السلام، ولكنه بعد ذلك إنخدع بدسائس النفس والشيطان ومال قلبه إلى الدنيا. وكان مفاتيح خزائنه لتنوء بالعصبة أولى القوة. وقد خدعة ذلك الأمر وتجاوز الحد وغرق في دوامة من الثراء. وعندما أمره سيدنا موسى عليه السلام أن يؤدى زكاة ماله سقط في السفالة والجرأة وقال له: «**هل تطمع في مالي؟ إنما اكتسبته بنفسي وبجهدي**» وقد جعله ماله يطغى ويتجاوز الحد وكان سبباً لهلاكه.ويمكن القول إن قارون قد بدأ يشعر بالحسد تجاه الدرجات المعنوية التي وصل إليها سيدنا موسى وسيدنا



هارون عليهما السلام. حتى إنه تمادى في حسده إلى حد اتهام سيدنا موسى عليه السلام في شرفه، ونتيجة لهذا هَلك في باطن الأرض مع خزائنه التي جعلته يتكبر ويتفاخر.

إن أشد أنواع الغفلة مرارة هي نسيان الحق عزّ وجلّ صاحب الملك والملكوت وإغراق القلب بمغريات الدنيا الخداعة مثل المال والملك والجاه.

أيضًا بَلْعَمْ بن بعوراء كان عبدًا صالحًا صاحب كرامة، علمه الله تعالى **الأِسم الأعظم**. وكان هذا الشخص معروفًا في بني إسرائيل كأحد العلماء والأولياء. ولكن بعد ذلك فَقَدَ حالته الروحية والمعنوية تلك نتيجة ميله إلى هواه ورغباته الشهوانية، حتى إنه مات على الكفر وهذه الحادثة يُخبرنا عنها القرآن الكريم فيقول:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(الأعراف، ١٧٥-١٧٦)

أما حكاية ثعلبة فهي مثال على رجل من عصر السعادة(عصر الرسول ﷺ)خدعته الدنيا بعد أن كان يعيش حياة العبودية الجميلة وتحول لسوء حظه من السعادة الأبدية إلى الشقاء الأبدي. كان ثعلبة في البداية لا يكاد يترك المسجد وصحبة رسول الله ﷺ

وعندما أصبح صاحب مال وملك ملأ حُب الدنيا قلبه ومع الوقت ترك الجماعة، وامتنع عن أداء الزكاة فأصبحت عاقبته خسراناً مبيناً. وعلى الرغم من شعوره بالندم لأنه لم يتبع كلام الرسول ﷺ إلا أنه عندما كان يسلم الروح كانت ترن في أذنه كلمات رسول الله ﷺ :

"ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره، خير من كثير لا تطيقه"[١].

وكانت حال سفيان الثوري أحد كبار رجال التصوف حال معبرة ومؤثرة للغاية. إذ إن سفيان الثوري شاخ وانحنى ظهره في سن الشباب وعندما سُئِل عن السبب قال:

«كان لي معلم أتعلم العلم على يديه. وعند وفاته لم يستطع أن ينطق بكلمة الشهادة عندما كنت ألقنه إياها. وعندما رأيت تلك الحال شخت وانحنى ظهري».

وكما رأينا فإن الخاتمة مجهولة، فسحرة فرعون عاشوا حياتهم في ضلال وفى أواخر عمرهم ختم لهم بالهداية. على العكس من ذلك قارون وبَلْعَمْ بن بعوراء كانا ينعمان بالهداية ولكن في النهاية أغلقت صحائف أعمالهم بالخسران المبين. ولهذا السبب مهما بلغ العبد من المقام والمكانة المعنوية فإن النفس والشيطان يتربصان دائماً بالإنسان وبمجرد أن يجدا الفرصة فإنهما يزلان أقدام العبد عن الصراط المستقيم. لأن الشيطان كما أخبرنا القرآن الكريم قال للحق ﷻ:

(١) انظر: الطبرى، التفسير، جـ. ١٤، ٣٧٠-٣٧٢؛ ابن كثير، التفسير، جـ. ٢، ٣٨٨.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الأعراف، ١٦)

ومرة أخرى طلب إعطاءه مهلة حتى يوم البعث. ومن أجل إختبار البشر أُعطيت له تلك المهلة. وقد اعترف الشيطان بإستثناء عباد الله المخلصين من تَسلطه لعدم قدرته على إغوائهم:

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ .قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص، ٧٩-٨٣)

وبإستثناء الأنبياء ليس هناك عبد في مأمن بشكل قاطع من خطر زلة القدم في موضوع الإيمان. ولهذا السبب يجب على كل مؤمن أن يسعى بحماسة لتقدير نعم الله تعالى التي أنعم بها عليه طول عمره بالشكل اللائق. والوسيلة الوحيدة للنجاة من رجفة الموت ورعشته الباردة هي أن تسعى لتعيش عمرك بشكل صالح. لأن من يُسْتَدعون للموت بدلاً من أن يخافوا الموت يتلقونه كوسيلة للوصول الأبدي. وهؤلاء هم العباد الصالحون الذين وصلوا إلى حضور وسكينة «**القدرة على تجميل الموت**».

ولكن الذين عاشوا حياة غافلة وأضاعوا آخرتهم لم يستطيعوا النجاة والخلاص من الشعور بالرعشة الباردة في مواجهة سرداب الموت الرهيب والمظلم. وما أجمل قول مولانا جلال الدين الرومي -قدس سره- حين قال:

«بني، إن موت كل شخص يكون بحسب لونه وهواه. فمن نفر

من الموت ومن التفكير فأِن الإنسان ملاق ربه، ومن عادوا الموت فجعلوا الموت مثل عدو رهيب مخيف. ومن أحبوا الموت سيظهر الموت لهم كأنه صديق حبيب».

«أيتها الروح التي تخاف الموت وتهرب منه لو أردت حقيقة الأمر فأنت لا تخافين من الموت أصلا بل تخافين من نفسك».

«لأن الرعب والخشية والخوف اللَّذيْنِ تراهم في مرآة الموت ليست هي وجه الموت بل هي وجهك القبيح أنت. فروحك أنت تشبه شجرة. أما الموت فهو أوراق تلك الشجرة. كل ورقة هي من جنس ونوع الشجرة».

وهكذا فأيمَّا عبد تجاوز أنانيته في هذه الحياة الدنيا، وقطع المراحل في طريق الاِستقامة على الصفات الملائكية المكنوزة في روحه. أي لو نال سر «**الموت قبل الموت**» لرأى الموت كخطوة أولى ضرورية للوصول إلى المولى ﷻ المتعال والمعظم فوق ما يتخيله البشر. وهكذا فإن الموت الذي هو سبب للمخاوف الشديدة عند أغلب البشر يتحول في القلوب العارفة النقية إلى شوق لملاقاة الرفيق الأعلى.

إن اللحظات الأخيرة لرسول الله ﷺ كانت لحظات وصول عيشَتْ في ذروة هذا الحب وذلك الشوق. لأنه ﷺ كان في حال المحبة والطاعة لأمر ربه مع جميع المخلوقات طوال عمره لذا



تحولت وفاته ﷺ إلى "**ليلة عرس**".

لما بقي من أَجَلِ رسول الله ﷺ، ثلاث نزل عليه جبريل فقال: يا أحمد! إن الله أرسلني إليك إكراماً لك وتفضيلاً لك وخاصة لك يسألك عما هو أعلم به منك، يقول لك: كيف تجدك؟ قال:

"أجدني يا جبريل مغموماً وأجدني يا جبريل مكروباً!"

فلما كان اليوم الثاني هبط إليه جبريل فقال: يا أحمد! إن الله أرسلني إليك إكراماً لك وتفضيلاً لك وخاصة لك يسألك عما هو أعلم به منك، يقول لك: كيف تجدك؟ فقال:

"أجدني يا جبريل مغموماً وأجدني يا جبريل مكروباً!"

فلما كان اليوم الثالث نزل عليه جبريل وهبط معه ملك الموت ونزل معه ملك يقال له إسماعيل يسكن الهواء، لم يصعد إلى السماء قط ولم يهبط إلى الأرض منذ يوم كانت الأرض على سبعين ألف ملك ليس منهم ملك إلا على سبعين ألف ملك فسبقهم جبريل فقال: يا أحمد! إن الله أرسلني إليك إكراماً لك وتفضيلاً لك وخاصة لك يسألك عما هو أعلم به منك ويقول لك: كيف تجدك؟ قال:

"أجدني يا جبريل مغموماً وأجدني يا جبريل مكروباً!"

ثم استأذن ملك الموت فقال جبريل: يا أحمد! هذا ملك الموت يستأذن عليك ولم يستأذن على آدمي كان قبلك ولا يستأذن



على آدمي بعدك، قال: ائذن له، فدخل ملك الموت فوقف بين يدي رسول الله، ﷺ، فقال: يا رسول الله يا أحمد! إن الله أرسلني إليك وأمرني أن أطيعك في كل ما تأمرني، إن أمرتني أن أقبض نفسك قبضتها، وإن أمرتني أن أتركها تركتها! قال:

"وتفعل يا ملك الموت؟"

قال: بذلك أمرت أن أطيعك في كل ما أمرتني! فقال جبريل: يا أحمد! إن الله قد إشتاق إليك! قال: فامض يا ملك الموت لما أُمِرتَ به! قال جبريل: السلام عليك يا رسول الله! هذا آخر مواطئي الأرض إنما كنت حاجتي من الدنيا! فتوفي رسول الله، صلى الله عليه وسلم[٢].

أَنَّ عائشَة ﵂ كَانت تَقُول: إِنَّ مِن نِعم اللَّهِ علي أَن رسول اللَّه ﷺ تُوفِّي في بَيتي وفي يومِي وبين سَحْرِي ونحرِي وأَن اللَّهَ جَمع بين ريقي وَرِيقه عند مَوْته دخل علي عبد الرّحمن وبيدِه السِّواك وأَنا مُسْندة رسول اللَّه ﷺ فَرأَيته ينظر إِلَيْهِ وَعَرَفْتُ أَنه يُحبُّ السِّواك فَقُلت: آخُذه لَك فَأَشار برأسه أَن نعم فَتناولته فَاشْتَدَّ عليه وَقُلت: أُلَيِّنُهُ لك فَأَشار بِرأْسه أَن نعم فَلَيَّنْتُهُ فَأَمَرَّهُ وبَين يَديه رَكْوَةٌ أَو عُلبة يَشُكُّ عُمَرُ فِيهَا مَاء فَجعل يُدخل يَديهِ فِي الماء فَيمسح بهما وَجههُ يقول: **لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ لِلموت سَكَرَاتٍ** ثُمَّ نَصَب يَدَهُ فَجعل يقول: **في**

(٢) إبن سعد الطبقات، جـ.٢، ص٢٢٩،٢٥٩؛ البلاذري، أنساب الأشراف، جـ.١، ص٥٦٥؛ أحمد بن حنبل، جـ ٤، ٨٩.

الرَّفِيقِ الْأَعْلَى حَتَّى قُبِضَ ومالت يَده

وهكذا ترك رسول الله ﷺ خلفه عُمْرًا وهو ملئ بالكثير من الذكريات العلوية التي لا تحصى وتدل على مدى عشقه البالغ واشتياقه للقاء المولى ﷻ وهاجر رسول الله ﷺ هذه الدنيا الفانية إلى الدنيا الحقيقية الدائمة (البخاري، المغازي، ٨٣)

وقد نَقل حسام الدين تلميذ مولانا جلال الدين الرومي لحظة وداع مولانا للدنيا وكان يعيش حماسة وشوق الوصول إلى رب العالمين في النفس الأخير، بعد أن عاش حياة عبودية نورانية فقال:

«ذات يوم جاء الشيخ صدر الدين مع مجموعة من أشراف الدراويش لزيارة مولانا أثناء مرضه. وعندما رأوا حال مولانا حزنوا وقال له الشيخ صدر الدين: «الله يعجل لك الشفاء ويمنّ عليك بالصحة والعافية».وعندها قال مولانا:

«مبارك عليكم الشفاء! لقد بقيت مسافة قدر شعرة بين العاشق والمعشوق. فهل تريدون أن لا ألحق به وأن لا يمتزج النور بالنور»(٣).

إن مولانا لم ير الموت الذي هو سبب للغم والخوف عند كثير من الناس كابوساً، بل على العكس تلقى الموت على أنه نجاة وخلاص من الغربة، وانتقال إلى الحق ﷻ الذي هو صاحب الجمال المطلق. وقد عبر بنفسه عن شعور الموت في تلك الرباعية فقال:

«إذا مت لا تقل عني قد مات. قد كنت ميتاً فأحياني الموت.

---

(٣) انظر: أبو الحسن الندوي، تاريخ عظماء الإسلام، جـ١، ص٤٤٩.

هو صديق أخذني نقلني».ولهذا السبب يشبه اليوم الذي سيودع فيه الدنيا بأنه «**ليلة العرس**».

ومما لاشك فيه أن حياة الهدوء والسكينة التي عاشها في الدنيا أرباب القلوب أحباب الحق مثل مولانا جلال الدين الرومي، ويونس أمره، وعزيز محمود هدائي قد استمرت في قبورهم. وهذا الموت الذي سيأتي ذكره هو تقريبًا ترنيمة للهدوء والسكينة فيقول **الشاعر التركي : يحيى كمال:**

الموت راحة وربيع لمن ثمل بالعشق الإلهي

يتبخر القلب مثل الدخان في كل مكان أعوام طوال

في القبر الذي رقد تحت أشجار السرو المعتدلة

تتفتح وردة كل سحر ويغرد بلبل كل ليلة

ويجب عليك لكي تستطيع أن تقابل الموت بهذا الجمال أن تعيش حياة مستقيمة على صراط الأوامر الإلهية وأن تتخلص من الأنانية والحرص والطمع، وأن تكون مستعداً **للأَنفاس الأَخيرة**.

ويقول ربنا ﷻ في كتابه الكريم:

﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ (الحجر، ٩٩).

وهذا هو الدستور الذي يُلَخِص حياة أحباب الحق كلهم.

إن قلب العارف العاشق يزين حياته التي أودعها الله تعالى أمانة عنده بالعبادة والعبودية له على الصراط المستقيم دائمًا، ويكون في



سعي دءوب لأن ينتقل إلى درجة «**القلب السليم**» الذي هو مكافأة من الرب ﷻ على العبودية.

أي أن سيدنا رسول الله ﷺ عندما كان يترنم في نفسه الأخير بتلك العبارة "**في الرفيق الأعلى، في الرفيق الأعلى**" كان ذلك مظهرًا للعبودية وقد استمر هذا التجلي في العارفين الذين إقتفوا أثره.

فمثلاً سامي أفندي -قدس سره- كان من أحباب الحق ﷻ وقد سعى طوال عمره ليعيش على سنة النبي ﷺ وعند الاِحتضار قدم أجمل نموذج لنا. فقد كان سامي أفندي حبيبًا للحق مملوء قلبه بعشق النبي ﷺ فكما أن شخصًا يسير على الثلج فتكون له آثار تدل عليه ويأتي من بعده شخص فيسير على تلك الآثار ويتبع ذلك الطريق هكذا كان سامي أفندي يتعقب آثار النبي ﷺ وأمضى عمره في اتباع طريقه ونهجه. وكان نفسه الأخير علامة على هذا الأمر فقد أسلم سامي أفندي الروح بجوار الرسول ﷺ الذي اتبعه طوال حياته والذي عشقه من صميم القلب والوجدان وكان ذلك أثناء رفع آذان الفجر الأول. وفى تلك اللحظة كان الموجودون بجواره يسمعون فقط كلمة "**الله.. الله.. الله**" تخرج من لسانه وهو لم يكن يقول تلك الكلمة بلسانه فقط، بل بكل ذرة في جسده وبروحه كلها.

والحاصل إن عمله كله قد جعله يعيش عبدًا جميلًا ويسلم الروح وهو عبدًا جميلا . لأن الذي يرغب في الله ﷻ ويأخذ نصيبه من حياة الرسول ﷺ يكون عبداً رقيقاً وحساساً، لطيفاً، عالماً. ويمكن أن تنال شرف قول الرب ﷻ "**نعم العبد!**" بأن تتدله في العشق الذي



يجعلك تعطى قلبك لله ﷻ. وهذه الروحانية والمحبة الإلهية يمكن أن يكون لها الغلبة بتطهير القلب من الصدأ ومن الشوائب.

وعندها سيضيء نور شمس الحق في ذلك القلب، ونتيجة هذا الحال أن يصبح كل نفس نتنفسه بمثابة الاِستعداد **للأَنفاس الأَخيرة**.

ومن ناحية أخرى فإن كل الأضرار والفقدان المعنوي هو نتيجة نسيان الله تعالى. وفى ذلك تقول الآية الكريمة:

﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ (الحشر، ١٩)

حقيقة فإن الذنوب كلها تبدأ عندما نَنْسى الله تعالى. لأن أي عبد عندما يقول «**الله**» وينتبه لحقيقة الموت يُظهر اعتناءً بعبادته وسلوكياته وتصرفاته ويعيش في داخل إحساس لا يؤذى أو يضر قلباً آخر. أي لا يغرس في أي شيء شوكة لا بلسانه ولا بتصرفاته.

وينبهنا الحق ﷻ مرات كثيرة في القرآن الكريم لما يجب أن يكون عليه حال أنفسنا وخفقات قلوبنا لكي لا نبكى لسوء العاقبة في حياتنا. فعلينا أن نعيش في ضَوْء تلك الآية الكريمة التي تقول: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾** (آل عمران، ١٠٢)

إن العمر مهما طال أو قصر في تلك الدنيا الفانية لا يفيد صاحبه بأي شيء، فالأعمار كلها في النهاية مخاطبة بهذا التجلي والبيان



الإلهي في قوله تعالى:

﴿**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا**﴾ (النازعات، ٤٦)

وعلى ذلك فإن كل ما نفعله وقت المساء ووقت الضحى هو العبودية والعبادة والطاعة. وفى هذا الشأن كانت تلك النصيحة للجنيد البغدادي أكبر عظة لنا إذ يقول: «ساعة الدنيا أكثر قيمة من ألف سنة يوم القيامة. لأنه ليس هناك (في الآخرة) عمل يوصلنا للنجاة والخلاص».

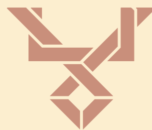
وهكذا فإن كل لحظة في مستقبل أيامنا هي فرصة كبيرة لهذه العبودية والعبادة والطاعة. وخاصة أيام الحج التي هي تدريب أساسي لنا على النفس الأخير. فالحج في منظره يشبه ساحة الحشر. فملابس الإحرام هناك تشبه الكفن. وعرفات مكان للتوبة واللجوء إلى الله تعالى. وعندما نرجم الشيطان يمكن أن نصل إلى الإحساس بضرورة أن نرجم ونعصي النفس التي بداخلنا وأن نبتعد عن ملذات الحياة الدنوية وشهواتها. وفى النهاية عندما نعود من الحج بلا ذنب كالطفل الرضيع نتذكر الوصول إلى الحق ﷻ. باختصار فإن الحج هو ترجمة صغيرة لما يجب أن نخطوه من خطوات نحو النفس الأخير وكيف ستكون تلك الخطوات.

فاللهم أنعم علينا أجمعين بحج كهذا الحج! يا رب! اجعل لنا نصيباً لأن نعيش عمراً نورانيا يكون وسيلة وسببا لأن نسقبل نفسنا الأخير بكل العشق والشوق لكي نصل إلى الجمال الإلهي. آمين...

الأنفاس الأخيرة
(٣)



إن الأنفاس الأخيرة هو مثل مرآة صافية لا غبش ولا غبار ولا أتربة عليها، وكل إنسان يشاهد فيبها عمره كله بحسناته وسيئاته في أنقى صورة. وفي تلك اللحظة لن يسدل أي ستار للغفلة أو الأعتراض على العيون والآذان على العكس فسوف ترتفع الأستار كلها وتُساق كل أنواع الأِعتراف والعقل والجسد إلى جو من الندم ولهذا السبب ليكن النفس الأخير هو المرآة التي نشاهد فيها حياتنا



الأنفاس الأخيرة
(٣)

الأَنفاس الأَخيرة هو مرآة صافية براقة لا غبش عليها. والإنسان يعرف نفسه في النفس الأخير في أنقى صورة. وحساب الحياة يعرض أمام قلبه وعينيه. فلهذا السبب لا يوجد منظر معبر أكثر من لحظة الموت عند الإنسان.

ومثلما أخبرنا القرآن الكريم فإن فرعون الذي أمضى حياته في معصية الله تعالى عندمـــا إبتلي بالعقاب الإلهي فـــي البحر الأحمر، عندها فقد عرف المعنى الحقيقي لنفسه ولعمره الذي ضيعه، وأدرك في النفس الأخير أن الوجه الحقيقي لمملكته الشهوانية في الدنيا كانت عبارة عن وضاعة ودناءة كبيرة وخسران مبين وفى تلك اللحظة شعر بندم لا حد له. وتخبرنا الآية الكريمة عن تلك الحال في القرآن الكريم فتقول:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس، ٩٠)



ولكن لم يعد هناك ما يمكن عمله، ويخاطب المولى ﷻ فرعون بينما كان يغرق في دوامات البحر الأحمر، وقد أجبر نفسه على التعلق بحلقة الإيمان لعله ينجو فيقول عز من قال:

﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس، ٩١)

إن من انغمسوا في الشهوات والمعاصي في حال صحتهم وسلامتهم ، فندمهم وإيمانهم عندما يأتي البلاء عند النفس الأخير يكون هباءً منثورًا. ولهذا فإن تأخير التوبة والندم إلى النفس الأخير هو طريق للإنخداع والغفلة. وطالما الحال هكذا فإن من لا يُصغي إلى صرخة الموت الصامتة والعميقة بينما تتقلب في داخل موجات الحياة بين مد وجزر صعوداً وهبوطاً. ومن يعش دون أن يحاسب نفسه قبل المرور من ذلك الباب -وهو الموت- ذات يوم فما أمر طعم الغفلة التي يعيش فيها.وقد ذكر الحق ﷻ في كتابة الكريم مرات كثيرة أنه قد خلق الحياة الدنيا بغاية الأِمتحان. وتلك الآيات الكريمة -التي ورد ذكرها في القرآن الكريم- هي بمثابة تنبيه إلهي لمن غرق في الغفلة ونسى الغاية الأصلية له فتقول:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء، ٣٥)

وتقول له أيضًا:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك، ٢)

ولهذا السبب فإن العبادات والمعاملات والأخلاق التي نعيش بها في الحياة الدنيا، والأنفاس كلها التي نتنفسها في تلك الحياة هي البوصلة تقريبًا لنفسنا الأخير. وهى في نفس الوقت مثل ترجمان عما سيكون عليه حالنا في الآخرة.

وفى ذلك يقول الإمام الغزالي رحمة الله عليه:

«من لم يصل إلى أدق المعرفة في الدنيا فلن يستطيع أن يتذوق طعم المشاهدة في الآخرة. ومن لم يستطع أن يؤدى شكر ما رزق في الدنيا فلن يستطيع أن يملك أي شيء في الآخرة. وإن ما تزرعه في الدنيا سوف تحصده في الآخرة. وسوف تموت مثلما كنت تعيش وسوف تبعث على ما متَّ عليه. وهكذا على قدر ما يوفق الإنسان إلى المعرفة في الدنيا بمعرفة الحق ﷻ والعمل بموجب تلك المعرفة فإنه في الآخرة سينال نعمته في تلك الدرجة».

وعلى ذلك فعلى كل فرد أن يحضر نفسه ويجهزها مع كل نفس يتنفسه إما للعقاب الإلهي أو للمكافأة الإلهية. والحق ﷻ في القرآن ينبهنا نحن عباده فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم، ٦)

ويقول ﷻ:

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (التكوير، ٧) ؛ **﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾** (التكوير، ٢٦)



وكل إنسان من هذه الناحية مطلوب منه الإنتباه أي طريق سيسلك؟ وإلى أي مدى يستعد لذلك؟ ويجب أن يعيش بهذه الحالة طوال العمر ولا يترك ذلك **للأَنفاس الأَخيرة**.

ومن المؤكد أن من رضي فوق الأرض بملكة الشهوة الفانية والضعيفة وإنخدع بزخرفها الخداع، وعرّض شخصيته وماهيته الروحية للضعف فإنه حتما سيبتلى بالحقارة والدناءة والخسران تحت الثرى. وغالبًا فإن حياتنا تحت الثرى -أي حياتنا في القبر- لا نعرف كم سيكون مقدار أعمارنا فيها وإن كان من المؤكد أنها ستكون أضعاف أعمارنا في هذه الدنيا. ولهذا فإن المهمة الأساسية التي تشغل بال الإنسان صاحب العقل السليم هي الأِستعداد لحياة القبر الطويلة وللعالم الأبدي الذي يليه.

ومن ناحية أخرى فإن وجه الموت المظلم الذي تحول ضياءً بنور الإيمان في قلوب المؤمنين، قد تحول من كونه خوفًا مرعبًا إلى بشرى لإحياءٍ أبدي.

والمقابر المملوءة بأسماء وعناوين الأقارب ليست مناطق مظلمة عند أهل الإيمان بل هي دولة صامتة للإرشاد والعظة.

إن الحياة بالنسبة للمؤمن صاحب الشعور هي في الحقيقة معايشة متداخلة مع الموت. لأن قلبه يكون هادئًا ساكنًا بسبب أنه يعيش مستعدًّا لذلك الموت. باختصار يمكن أن يكون نفسنا الأخير هو أجمل لحظات عمرنا إذا استطعنا أن نكون أصحاب قلوب



مملوءة بمحبة الله ﷻ. وعلى العكس من ذلك فإن أي حياة تنتهي بحب الدنيا والنفور من الموت تكون نتيجتها الخسران.

إن الإستعداد الكامل للآخرة يكون بالدخول في الأوصاف التي يحبها ربنا سبحانه وتعالى، والتي أخبرنا عنها في القرآن الكريم أي يتزين العبد بأوصاف الجمال مثل الرحمة، الشفقة، العفو، ومساعدة الآخرين، والعبادة التي تأتي نتيجة التقوى والزهد والإحسان ويمكن اختصار ذلك كله في أن نقول أن يصبح عبدًا يحب الله تعالى.

والمؤمن تبعًا لهذا لابد أن يأخذ نصيبًا من كرم الله تعالى، وأن يكون صاحب إحسان وبذل وعطاء. ويجب أن يأخذ لنفسه شعار التقوى والصدق. ومن ناحية أخرى يجب تجنب الصفات الشيطانية التي لا يحبها الله تعالى مثل الغرور والكبر والإسراف والظلم والفتنة والغيبة والنميمة والكذب والبهتان، لأن هذا يشكل قسماً مهماً من الأستعداد **للأَنفاس الأَخيرة**.

يجب على العبد أن يزكى نفسه الأخير بحسن الخاتمة، أي يزكي قلبه أولا من أجل أن يستطيع أن يملأه بالإيمان. فيطهر قلبه من الميول القبيحة وأن يزينه بالخصال العالية.

لأن وصول القلب إلى قوام التقوى بهذه الصورة هو أفضل مشعل هداية في رحلة الحياة، وتلك العبارات لمولانا جلال الدين الرومي -قدس سره- توضح تقريباً ماهية تلك التزكية فيقول:



«إن صنع القبر لا يكون بالأحجار ولا الأخشاب ولا بالقماش، بل يجب أن تحفر قبرًا في قلب نظيف عفيف، في عالم داخلي طاهر، ومن أجل ذلك يجب أن تمحو الأنانية والاِعتداد بالنفس أمام عظمة الحق ﷻ».

ومن أجل أن تحقيق التزكية بالمعنى الكامل ولكي تصل القلوب إلى مستواها يجب أيضًا أن تمتلئ بمشاعر المحبة لله تعالى ولرسوله عليه السلام. وأكبر علامة على محبة الله تعالى هي طاعته، فمن يعصِ الله تعالى وهو يدعى محبته فهو يخدع نفسه.

وفى ذلك يقول الحق ﷻ في الآية الكريمة:

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة، ٢٤)

ومن أجل هذا يجب أن نتمسك فوق كل شيء بمحبتنا القدسية الخاصة بالله ورسوله ﷺ، ويجب أن نستمر في ذلك الإحساس الروحي حتى أَنفاسنا الأخيرة. ووصول القلوب إلى مستوى عال في محبة الله تعالى ورسوله ﷺ يكون بأداء العبادات والأعمال الصالحة.

وهكذا فإنه يوجد فرق عظيم في المستوى بين العبودية التي يقوم بها قلب متعلق بالمحبات الدنيوية بعيداً عن المحبة الإلهية وعبودية يقوم بها قلب مملوءة بالعشق الإلهي.

لأن أحوال أي مؤمن وأساليب حياته ترتبط بالمحبة الحقيقية لله تعالى ورسوله ﷺ والتي تنعكس على مستوى العلاقات البشرية والعبادة وحياة العبودية. وواحدة من الخصوصيات التي تلفت الاِنتباه بشدة لإستعداد المؤمن **للأَنفاس الأَخيرة** اكتسابه للخشوع في العبادات، ويعدد الحق ﷻ في الآية الكريمة أوصاف المؤمنين الذين وصلوا إلى النجاة والخلاص فيقول الحق:

﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾ (المؤمنين، ١ – ٢)

وعلى العكس من ذلك قال في شأن من يقيمون صلاتهم وهم غافلون في الصلاة وعن الصلاة:

﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾ (الماعون، ٤ – ٥)

ومثلما رأينا فإن الحق ﷻ يريد من العبد أن يعيش حياة عبودية تكون مرحلة للوصول إلى توازن داخلي بين القلب والجسد. وبلا شك فإن المراد الإلهي لا يخص الصلاة فقط، بل إنه يشمل بشكل أساسي العبادات كلها مثل الصيام والحج والإنفاق.

فإن عبادة الصيام يجب أن تؤكد معرفتنا بقدر حجم النعم، وأن تجعل قلوبنا في شغل دائم وحزن وتفكر لكي تكتسب عمق المشاعر في مساعدة من تتلوى أجسامهم من العدم.

وفى نفس الوقت فإن الصوم لأنه يَمْنعنا حتى عن بعض الحلال لوقت معلوم، فهو إلهام آخر لضرورة أن نقف بعيداً بأقصى درجة ممكنة عن الشبهات و المحرمات.

أما في الحج فيجب أن نعيش فيه حياة عبودية داخل شعور وإحساس بأننا نرتدي ما يشبه الكفن ذلك الأمر الذي يذكرنا بأن العبد لا شيء في مواجهة العظمة الإلهية.

أما المؤمن الذي ينفق فيجب أن يكون في شعور دائم أنه في الحقيقة مؤتمن على ما يملك وأن كل ما يملكه يعود إلى الله ﷻ المالك الحقيقي، فضلاً عن ذلك فإن أي مؤمن يكتسب شعور الإنفاق كيف يستطيع أن ينظر بعين السوء إلى مال الآخرين؟.

إن شعور العبودية الذي في أساس العبادات يكون فقط على قدر عمق المحبة التي في القلب ، والقلب عندما يتطهر من الصدأ والوسخ تصل العبادات إلى قوام الحقيقة وفيه يتلألأ نور شمس الحق.

وقد شاهدنا في الحياة نموذجًا لكيفية أداء العبادات بكامل الخشوع في أجمل شكل لها. وقد تمثل هذا النموذج في حياة رسول الله ﷺ وفي الصحابة الكرام ﭫ. فرسول الله ﷺ الذي لم تكن أي صفحة من صفحات حياته سوى تجسيدٍ لحقيقة الآخرة فقد أكد على ضرورة أن تكتسي العبادات بالحالة الروحية التي تكون في **الأَنفاس الأَخيرة**.



فمثلاً جاء أحد الصحابة إلى رسول الله ﷺ فقال:

"يا رسول الله علمني وأوجز. قال:"**إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودع، ولا تكلم بكلام تعتذر منه، وأجمع اليأس عما في أيدي الناس"** (ابن ماجة، الزهد، ١٥؛ أحمد بن حنبل، المسند، جـ.٥، ٤١)

ومن هذه الناحية فإننا -كأي مؤمن يعيش ممارسة الإستعداد للموت- يجب عليه مثلما تفعل في حياتك التعبدية أن تجمل وتزين معاملاتك وتصرفاتك البشرية آخذا الفيض والنور من السنة المطهرة. فيجب عليك أن تكون عبداً تستفيد الأمة من يده ولسانه، وتحب الغير وعدم الأنانية حتى تحب لأخوك المؤمن ما تحبه لِنَفْسك. وتكون النتيجة أن تصبح المحبة التي تشعر بها تجاه الله تعالى ورسوله ﷺ عندما تنبع من قلبك وتفيض حتى تشمل المخلوقات جميعها تكون سببًا في استطاعتك وقدرتك على أن تنظر إلى تلك المخلوقات بعين نظر الخالق ﷻ.

أما الخاصية الأخرى المهمة في الأستعداد لنفس الموت فهي القدرة على تثبيت شعور الإحسان في القلب أي تأكيد المعية القلبية في كل لحظة مع الحق ﷻ والشعور دائمًا بأن الله يرانا.

وأكبر سعادة للعبد أن يستطيع أن يكون في معية الرب. ولكن العقل المهزوم أمام النفس والذي لم يرتبط بالقلب يكون عاجزًا عن إدراك هذا. أي يكون غافلاً عن أكبر سعادة.

مرة أخرى لابد أن يكون أي مؤمن متوكلاً صابرًا. يجب ألا يفقد توازنه وإعتداله في مواجهة عواصف الحياة. ويجب أن يفكر في الأِمتحانات الصعبة التي واجهها رسول الله ﷺ بنفسه.

ويجب عليه أن يتذكر ثبات رسول الله ﷺ وحال الرضى الجميل التي كان عليها رغم أنه فقد في حياته خمسة من أولاده الستة.

وأن لا ينسى ذلك المؤمن صبر رسول الله ﷺ وصلابته عندما سقط عمه حمزة ﵁ ومصعب بن عمير ﵁ شهداء، وكان رسول الله ﷺ يحبهما بشدة.

ويجب على السالك في طريق الحقيقة لكي يصل إلى صلاح القلب في هذا العالم الفاني أن يواجه الأبتلاءات والمصائب بالصبر، والنسيان بالذكر، والجحود بالشكر، والعصيان بالطاعة، والبخل بالكرم، والأنانية بالإيثار وحب الآخرين، والوهم باليقين، والرياء بالإخلاص والتواضع، والذنوب بالتوبة، والغفلة بالذكر والتفكر.

فضلاً عن ذلك فإن الأيام والليالي المباركة وخاصة أوقات السحر التي تُحيى بالذكر هي فرص ونفحات نورانية في هذا العالم الفاني للإقتراب من الحق ﷻ. ومن يلتمس سعادة الآخرة يجدها مختفية في ظلام الأسحار الدامس.

وأحبّاء الحق كلهم الذين عاشوا حياتهم ومزجوا الحياة بالموت قد بحثوا عن رضاء الحق ﷻ بالتفكر والذكر في أوقات السحر وهم يعيشون شعور المحبة لله تعالى والخشية منه ﷻ. لأن الأسحار



التي تمر بعيدة عن الذكر والتفكر تكون بالنسبة لعاشقي الله تعالى ساعات هجران.

والخاصية الأخرى المهمة هي الإنفاق في سبيل الله تعالى وفي ذلك تقول الآية الكريمة:

﴿**وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (البقرة، ١٩٥)

وقد ذكر المفسرون أن التهلكة التي ورد ذكرها في تلك الآية الكريمة هي: «الأِمتناع عن الإنفاق والتضحية في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، وعن خدمة دين الله تعالى بسبب خشية الفقر أو حب الدنيا».

فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ: إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ لَمَّا نَصَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ وَأَظْهَرَ الإِسْلاَمَ قُلْنَا: هَلُمَّ نُقِيمُ فِى أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحُهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هذه الآيَة فَالإِلْقَاءُ بِالأَيْدِى إِلَى التَّهْلُكَةِ أَنْ نُقِيمَ فِى أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحَهَا وَنَدَعَ الْجِهَادَ. (أبو داود، جهاد، ٢٢/ ٢٥١٢)

عَنْ أَنَس رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:"**جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ**". (أبو داود، جهاد، ١٧/ ٢٥٠٤)

وتبعاً لهذا فإنه يجب على أي مؤمن أن يسعى بكل جهده وحماسته للإنفاق في سبيل الله في كل حال وعمل بماله وروحه وكلامه.

لأن مثل هذه الحياة هي أمانة في عهدة كل واحد منا، وهذه الأمانة بينما تكتسب الأبدية والخلود إذا أنفقناها في مكانها، إلا أنها تكون سببًا لخسران الآخرة إذا ضيعناها في الركون إلى الراحة والدعة وتقوية النفس الأمّارة بالسوء.

ويجب على كل مؤمن ألا ينسى أبدًا تلك اللوحة المعبرة التي تتعلق بالإنفاق وهي أن: الدود يبدأ بالتعلق بجسد الميت بعد أن يوضع في القبر وأثناء إنشغال الأقارب بالتعازي. وبعد ذلك يبدأ الورثة في تقسيم المال بينهم ، بينما تبدأ الأرض في تمزيق ذلك الجسد وتُفنيه. وهذان الأمران يستمران معا وينتهيان معا، ففي جانب يفنى الجسد ويتحلل وعلى الجانب الآخر توزع الثروة. والروح التي تشاهد تلك الحال بدهشة وحيرة تريد أن تضرب بيدها على فخدها ندمًا على فرص كثيرة أضاعتها. ولكن لم يعد هناك لا يد ولا فخِذ، فقط هناك الأعمال الصالحة والتقوى. فالأعمال الصالحة التي عملناها في الدنيا ستكون أفضل رأس مال وأحسنه وأطيبه لحياتنا الأخروية. وفى ذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ: **"إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار"** (الترمذي، القيامة ٢٤٦٠)

والحاصل أن حياتنا في القبر التي تستمر حتى قيام الساعة سوف تتشكل طبقًا وتبعًا لأعمالنا وحالنا الذي كان في الدنيا.

وهكذا فإن تخليص الموت من الخسران وتحويله إلى نصر مبين وجعله ليلة عرس بدل أن يكون مأتم حزن هو عمل الذين

يستعدون للموت ويعرفونه. وقد كان الضابط العثماني المسمى مظفر بك واحدًا من السعداء الذين لحقوا بالرفيق الأعلى بعد حياة نورانية عاشها على هذه الاِستقامة وهذا الفكر، وكان شخصية نموذجية أهدت إلى التاريخ العثماني العظيم ذكرى لا مثيل لها.

فهذا الشاب الذي كان قلبه عامرًا بالإيمان والذي أظهر بطولات كبيرة وحماسة لا نظير لها في معركة "**جناق قلعه**" لم يتوقف بعد تلك المعركة بل هرع إلى الجبهة الشرقية هذه المرة من أجل الدفاع عن الوطن، وفى إحدى المعارك الدامية جرح جرحاً بليغاً ذاق من خلاله طعم الشهادة بعد أن ترك ذكرى وخاطرة علوية للأجيال التي ستأتي من بعده.

فمظفر بك الضابط الذي أصيب على خط النار وسقط شهيدًا وهو يؤدى وظيفته قد أخرج من جيبه وَرَقة في **الأَنفاس الأَخيرة** عندما لم يعد قادرًا على الحديث أو الكلام وأخذ قطعة من عشب جاف وغمسها في دمائه التي تسيل وبدأ يكتب:" أيها الجندي! القبلة في أي اتجاه". فما كان من المحيطين به إلا أن حولوه إلى القبلة ونفذوا رغبته لأنه كان يريد أن يسلم الروح وهو متوجه إلى بيت الله. وهذا الضابط الذي امتلأ وجهه ببياض سعادة الوصول قد أسلم روحه إلى ربه شهيدًا.

وهكذا فإن أي عبد مهما يكن عمله ومهنته ومشغوليته طوال عمره ولم ينفصل بقلبه عن الاِستقامة فإن الله تعالى سيجعل له



نصيبًا أن يجد القبلة في اللحظة الأخيرة. والذين كانوا يجدون القبلة في أثناء إنشغالهم بأعمالهم وفى منزل العائلة وفى العلاقات البشرية ومن كانوا يجدونها في مضمون كلمةالتوحيد في حياة العبودية فسيدخلون بشكل عام عند **الأَنفاس الأَخيرة** في الجو الهادئ للقبلة.

ومن الطبيعي أن المقصود من القبلة هي أن تعيش الحياة على هدى القرآن والسنة بما تشمله وتتضمنه كلمة التوحيد.

فالمهم أن نعيش أعمارنا كلها وأنفسنا الفانية تلك بقصد أن ننال سر الآية الكريمة: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ (الفاتحة، ٦) وعلى العكس من يفعل غير ذلك ستكون عاقبته خسراناً مبيناً مثل سفينة فقدت بوصلتها وضلت طريقها وتسير على غير هدى حتى تصطدم بأي صخرة تقابلها، فاللهم احفظنا أجمعين من كل سوء.

والواقع أن من أمضوا حياتهم وهم يعيشون في حضن الموت تقريبًا ووصلوا إلى سر «**موتوا قبل أن تموتوا**»، هم العباد العارفون أولياء الحق ﷻ، وهكذا سيكون هؤلاء العباد آمنين من فزع يوم القيامة وحزنه وهذا وعد إلهي. والموت الذي هو حجاب يخفي العالم الأبدي -عالم الخلود- يكون سعادة بالنسبة لمن عاشوا محافظين على خاصيتهم الإنسانية وتمكنوا من النجاح في الإستعداد **للأَنفاس الأَخيرة** بلطف الله تعالى ومنه وفضله.

والمعرفة الحقيقية هي استعادة واسترجاع هذه الأمانة أمانة الروح التي منحها الله تعالى واستعادتها بنفس الطهر والصفاء



والنقاء عند **الأَنفاس الأَخيرة**.كما قال الشاعر التركي نجيب فاضل:

في تلك اللحظة التي ترتفع فيها الحجب وتنزل فيها الحجب،

تكون المهارة بأن تستطيع قول مرحباً لملك الموت.

حقيقة إن **لأَنفاس الأَخيرة** هو مثل مرآة صافية لا غبش عليها ولا غبار وكل إنسان يشاهد في تلك المرآة عمره كله بحسناته وسيئاته في أنقى صورة. في تلك اللحظة لن ينزل حجاب الغفلة أو الأعتراض على العيون والآذان، بل على العكس ترتفع الأستار كلها وينقاد العقل والجسد وأنواع الأِعتراف كلها إلى جو من الندم.

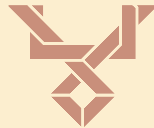
لهذا السبب لتكن **للأَنفاس الأَخيرة** هي المرآة التي نشاهد فيها حياتنا بأن نعيش بالقرآن الكريم وبالهدي النبوي الشريف. لأن سعداء الحظ الحقيقيين هم من استطاعوا أن يعرفوا أنفسهم قبل أن يلتقوا بالموت.

فيا ربَّ لتجعل أنفاسنا الأخيرة نافذة نشاهد منها نجاحنا وتوفيقنا الذي سيكون في عالم الخلود والأبدية. آمين...

ذكر الله في الكائنات
وأوقات السَّحر



إن أكثر أوقات الذكر بركةً هي أوقات السحر ، وقد أعطى الحق عز وجل للذكر في هذا الوقت من الليل قيمةً أكبر من سائر الأوقات . وإحياء الأسحار هو تعبير عن المحبة والتعظيم الخالصين اللذين يشعر بهما العبد تجاه ربه ، وصلاة الليل وتسبيحه تحمل ماهية اللقاء مع الحبيب الأعلى والجلوس بين يديه ، والأسحار تحيي الجسد الذي سيحمل فيضه وروحانيته إلى سائر اليوم كله.



ذكر الله في الكائنات وأوقات السَّحر

أِن ربنا ﷻ بتجلّي اسمه الشريف "**الحي**" قد وهب نصيبًا من الحياة لكل المخلوقات التي خلقها، ولا يوجد أساسًا في المخلوقات أي مخلوق يمكن أن نصفه بأنه "بلاروح" أو بلا حياة.

فرغم أن الحركة والحياة تبدو خاصة بالأحياء مثل النبات والحيوان والإنسان فقط، إلا أننا لو شاهدنا بعين المحبة الإلهية مرح الجزئيات في داخل ذرة ما لظللنا مندهشين متحيرين للحياة الرائعة والمُدهشة التي توجد في أساس مادة ما يُظن أنها بلا روح ولا حياة، وهذه الدهشة تبدو متزايدةً باستمرار من عالم الموجودات الصغرى إلى عالم الموجودات العظمى والكبرى.

وقد عرّف الحق ﷻ نفسه إلى المخلوقات كلها الحية والميتة التي خلقها وقد كلفها بالذكر بصورة دائمة، ولهذا السبب فإن المخلوقات جميعها تعرف ربها بصورة خاصة في نفسها بمقتضى فطرتها وخلقها وهى تذكره وتسبحه دائمًا.



والجمادات والنباتات والحيوانات في نفس الوقت تعرف رسولنا محمداً ﷺ وسائر الأنبياء الآخرين، وتلك الحال تبدو باستمرار في معجزات الأنبياء، فهم صلوات الله عليهم قد أعطوا الروح بإذن الله ﷻ إلى المخلوقات الميتة مثل الحجر الذي ترك مكانه والعصا وما يشبههما من كائنات.

لهذا السبب فإن الأحجار التي كانت في يد أبى جهل قد تكلمت كمعجزة لرسولنا ﷺ وأكدت على صدق دعوته وأمانته، وذكرت الحق، أما العصا التي كانت في يد سيدنا موسى عليه السلام فقد تحولت إلى حية تسعى بإذن الله تعالى وأرعبت فرعون.

والبحر الأحمر قد انفلق بأمر الله تعالى وأصبح طريقًا لموسى وأصحابه، وفى مقابل ذلك عندما جاء فرعون وجنوده خلف موسى عرفهم البحر فأهلكهم. وجذع النخلة الذي كان في المسجد النبوي أنَّ وبكى حزنًا على فراق النبي ﷺ، فضلاً عن أن كثيرًا من الحيوانات قد أشتكى لنور الوجود رسول الله ﷺ من ظلم أصحابهم لهم. وفى تلك الأبيات الموجزة عبر مولانا جلال الدين عن طاعة الجمادات لأمر الله تعالى فقال:

«ألا ترى السُحب والشمس والقمر والنجوم كلها تتحرك وفق نظام معين. وكل وحدة في تلك النجوم التي لا تُحصى تشرق في موعدها فلا تتأخر عن أوقات شروقها وبزوغها ولا تتقدم».



كيف حدثت هذه المعجزات مع الأنبياء؟ لانعرف ولم نستطع أن نفهم، فهم قد جعلوا الحجر والعصا أشياء عاقلة. فلنقس هذه الأشياء بالجمادات الأخرى كما فعلوا بقطعة الحجر وبالعصا.

إن طاعة قطع الحجارة لرسول الله ﷺ، وكذلك طاعة العصا لسيدنا موسى عليه السلام تخبرنا كيف أن المخلوقات كلها التي نظن نحن أنها بلا روح تحني رقابها لأمر الحق عز وجل.

وهذه الأشياء تقول: نحن نعرف الله سبحانه وتعالى ونحن نطيعه، نحن لسنا أشياء تافهة خُلقت عبثًا، بل نحن كلنا نشبه البحر الأحمر الذي عرف فرعون فأغرقه وميز بني إسرائيل فأنقذهم ونجاهم.

وأيما حجر أو شجر في أي مكان عندما كان يرى المصطفى ﷺ كان يسلم عليه بشكل واضح ومسموع. وهكذا فإعلم أن كل شيء تظن أنه بلا روح هو حي مثلك والروح تسرى فيه.

أي أن المخلوقات كلها وليس الجن والإنس فقط، بل الحيوانات وحتى الجمادات تعرف بالسر الإلهي فخر الكائنات سيدنا محمد ﷺ وقد خُلقت من أجل وجهه الكريم، وهى تطيعه بلا قيد أو شرط بمحبة لا نهاية لها. ولكن حُجب الغيب المُسدل أمام أعين بني البشر بسبب سر الإمتحان في الدنيا لتكون مانعًا في أحيان كثيرة من أن يُلاحظ ذلك الأمر. وكما كان هذا الحديث لرسول الله ﷺ معبرًا منبهًا لنا من الغفلة حين قال:

"إنه ليس شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس" (الدارمي، المقدمة، ٤؛ أحمد بن حنبل، المسند، جـ٣، ص٣١٠)



وهذا الحديث يبين أن معرفة الله ﷻ ورسوله ﷺ وطاعتهما لا تنحصر في الإنسان فقط، بالعكس يمكن القول إن هذا الأمر موجود على مستوى متقدم أكثر في المخلوقات الأخرى بشكل فطرى لا إرادي، وهذه الآية الكريمة توضح لنا مظهرًا آخر لتلك الحقيقة حيث يقول الحق ﷻ:

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء، آية ٧٩)

فربنا ينبه الغافلين في تلك الآية ويعرّفنا أن كل شيء في الوجود يعرفه وأنه يذكر الخالق بلسان حال يفوق إدراكنا نحن. فلو استطعنا أن نسمع ذكر المخلوقات لتحولت القلوب نتيجة العبادة والذكر والتسبيح وحياة العبودية الحقة إلى قلوب طاهرة صافية، ولأمكن لنا أن نرفع حُجب الغفلة وأن نقف على عالم الحقيقة. وكان حديث الشاعر التركي يونس أمره مع الزهرة الصفراء من قبيل هذا الأمر.

وتلك القصة لولي الله **عزيز محمود هدائي** تعبر أجمل تعبير عن أن عالم النباتات مشغول دائمًا بذكر الله تعالى، فتقول:

«ذات يوم خرج السيد **أُفتاده** إلى نزهة برية مع مريديه ، وبناءً على طلبه تجول الدراويش كلهم في أجمل أماكن الصحراء وأحضر كل منهم باقة من الزهور لمعلمه، ولكن القاضي عزيزمحمود أفندي كان في يده زهرة ذابلة مكسورة الساق فحسب، وبعد أن قدم كل



منهم ما في يده لسيده مسرورًا قدم محمود أفندي وهو مطأطئ الرأس زهرته الذابلة المكسورة تلك إلى السيد افتاد، وعندما سأله وهو بين مريديه الآخرين الشغوفين: يا ولدي محمود. كل منهم أحضر باقة نضرة من الزهور. فلماذا أحضرت أنت زهرة ذابلة مكسورة الساق؟!

فأحنى محمود رأسه للقاضي بأدب وأجاب قائلاً:

«يا سيدي مهما قدمت لكم فهو قليل. ولكن كلما مددت يدي لأقطف زهرة وجدتها في حال ذكر ربها قائلةً «الله .. الله»، فلم يطاوعني قلبي أن أمنع هذا الذكر. وعندما لم تعد لديَّ حيلة اضطررت أن أحضر بتلك الزهرة التي لم تستطع أن تستمر وتداوم على ذكر الله».

ويقول مولانا جلال الدين الرومى -قدس سره-:

«إن سلطان الطيور هو طائر اللقلاق ، هل تعرف معنى قوله: «لك .. لك»؟. إنه يقول الحمد لك ، والشكر لك ، والملك لك يا مُستعان».

أما الشيخ محي الدين بن عربي فيقول في هذا الشأن:

«المخلوقات كلها تذكر الله تعالى بصورة خاصة بها، ولكن المخلوقات في هذا الشأن في مستويات مختلفة، فأبعد المخلوقات عن الغفلة هي الجمادات لأنها تكون مستغنية عن كل الحاجات مثل الطعام والشراب وتنفس الهواء. ثم تأتي النباتات بعد الجمادات لأن



الحاجة تبدأ فيها، فالأزهار تأخذ غذاءها من التربة والماء والشمس، وتخلط هذا بتقدير إلهي، فتظهر للوجود الأزهار والأوراق والثمار مختلفة الأشكال والألوان. بعد ذلك تأتي الحيوانات، فعناصر الحياة فيها مكتملة أكثر من النباتات، ولهذا السبب تكثر حاجاتها وتزداد شهواتها. أما حاجات الإنسان فلا نعلم أنها تنفذ وتنتهي، فالأنانية والأوهام والأطماع الدنيوية تسوقه دائمًا إلى الغفلة».

وفى ذلك يقول الحق ﷻ في كتابه الكريم:

﴿**يَا أَيُّهَا الإنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ**﴾ (الانفطار، ٦-٨)

إن إمكانية تلقي الأسرار والحكمة التي في صفات الكائنات بالمعنى الحقيقي هي كيفية مرتبطة فقط بالغوص في عالم القلب. وأي مؤمن ينظر إلى السماء والأرض بعين القلب فهو يختار أن يملأ قلبه بإحساس مختلف تمامًا.

فالقرآن الكريم قد أعلن أن كل شيء في الكون وفى السموات والأرض من الذرة إلى المجرة كلٌ في ذكر وتسبيح للخالق ﷻ. وقد أخبرنا القرآن أن السموات والأرض والجبال والأشجار والمروج والشمس والقمر والنجوم والصواعق والحيوانات والأحجار الصماء وحتى الظلال المنتشرة التي تسقط على الأرض كلها تسجد صباحًا مساء فتقول:

﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ**﴾ (الرعد، ١٥)

وقوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ (النحل، ٤٨)

فالآيات الكريمة تعرض أمامنا منظرًا عظيمًا لأقصى درجة. فالسجدات في تلك اللوحة في حالة تزاوج ومزاوجة تشترك مع الظلال. أي سجدتان، بمعنى أن السجدة الأولى هي سجدة الوجود نفسه والأخرى هي سجدة ظل هذا الوجود في نفس الوقت واللحظة. فكل ذرة في الكائنات قد أدت السجود من أجل عبادة الرب تعالى، وهى تؤدي وظيفتها ومهمتها في حضور الخالق ﷻ. فالكائنات كلها في حالة سجود وكل الوجود يطيع ويسلم لإرادة الحق ﷻ بشكل فطري حتى المنكرين والغافلين فهيهات هيهات أن تكون قلوب هؤلاء الغافلين في حالة دهشة وغفلة الإنكار والذنب!.

فالغافلون الذين يتخذون آلهة أخرى سوى الله تعالى لا يعرفون أن الوجود كله حتى ظلال الأشياء التي يعبدونها تتوجه إلى الله تعالى الذي ينكرونه في الأساس، وهم في وضع تابع للنظام الذي وضعه الرب تعالى للكائنات كلها، فياله من خسران وضياع وخداع كبير.

مرةً أخرى فالآيات تصور مساحة تتشكل من الظلال والأشياء والأحياء والملائكة، الكل يؤدى وظيفته ومهمته في خشوع وبوجه تعبدي. فيا له من حظ سيء لمن يهرب من عبادة الله تعالى ويخالف



أمرهﷻ. والآيات الكريمة، وانحناء المخلوقات كلها، تصفع وجوه هؤلاء الغافلين المستهزئين.

وفى الحقيقة لو نظرنا بنظرة إعتبار حولنا لوجدنا أن إنطباق السموات الممتدة نحو عمق الآفاق على الأرض، وإنحدار الجبال هي حال سجود بشكل غير مألوف. وظلال الأشجار والزهور والحشائش والحيوانات والإنسان على الأرض من اليمين والشمال هي أجمل عرض لحال السجود المثير هذا. وكأن الأرض هي سجدة ظلال الوجود كله، أما حادثة المطر فكأنه بكاء سماوي، وكأن ضوضاء السماء (**الرعد**) التي تأتي عقب البرق الذي يبرق وهو استغاثات طاهرة وجلية تنبع من صدر السماء.

إن أحوال المخلوقات التي على الأرض والتي في السموات لهي دليل مُدهش وعظيم إلى أقصى حد للقلوب السليمة، فمن دعوات وإبتهالات وتضرعات أصغر حشرة، والتي تتردد في قلب صغير يشبه رأس الإبرة حتى زئير الحيوانات الضخمة والعظيمة لهي كلها مظاهر متنوعة لدفقات القدرة الإلهية.

والنغمات الحزينة المتدفقة من قلوب البلابل المنفطرة، و"هو.. هو" المنتشرة من طيور القُمْرِيُّ، و"لك .. لك" المنبعثة من طيور اللقلق لهي تسبيحات عميقة الشعور والإحساس إلى أقصى حد للقلوب المشتاقة.



وفى ذلك يقول الحق ﷻ في كتابه العزيز:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُوم والْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (الحج، ١٨)

فالموجودات مثلما رأينا وحتى الجمادات كلها في حال تسبيح لله تعالى، ولكن مع شديد الأسف فإن قسمًا من بني البشر سيُبتلون بالعذاب والخسران بسبب بقائهم غافلين عن ذكر الله ﷻ.

وفى الحقيقة فأن كل شيء في الوجود من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة يعرف خالقه ﷻ. وحتى الطيور تعرف العبادة والدعاء، والجبال والجداول تداوم على الذكر والتسبيح. وإذا كان هذا هو الحال فما بال الإنسان لا ينتبه أمام هذا النظام البديع العظيم للتسبيح والذكر والعبادة، وما باله لا يأخذ العبرة والعظة من تلك اللوحة المُعبرة للكون، فأي خسارة مره وكبيرة تُصيب من لم ينل حظًا من إنسانية وظل عابس بليدًا محرومًا من ذكر الحق ﷻ.

ومما لاشك فيه أن طريق الأُنس بالله تعالى هو ألا ينسى العبد ربه، والمؤمنون أصحاب البصائر أينما ولوا؛ رأوا حلقات ذكره وأينما أصغوا آذانهم سمعوا أنغام تسبيحه. ونحن على قدر ما نبحث عن ربنا في هذه الحياة الدنيا يكون قدر الوصل الإلهي في الآخرة غدًا.



إن عدم نسيان الرب هو طريق الحياة بقلب ووجدان طاهر، وهو طريق الإرتباط والحضور والصفاء الأبدي، والموت على الإيمان. لأن العمر الذي يُنسى فيه الرب يذهب هباءً منثورًا في سراديب الغفلة. وهؤلاء لن يستيقظوا من تلك الغفلة إلا بالموت فقط، ولكن في ذلك الوقت يكون كل شيء قد انتهى ويكون قد أوقع نفسه في خسران مبين.

وقد جاء في الآية الكريمة:

﴿**وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ**﴾ (الحشر:١٩).

وعن عبد الله بن بُسرٍ رضي الله عنه أن رجلاً قال:

يا رسول الله إن شرائع الأِسلام قد كثرت علي فأخبرني بشيء أتشبث به ، قال ﷺ:

"**لا يزالُ لِسَانُكَ رَطبًا من ذكر الله**" (الترمذي، الدعوات، ٤؛ ابن ماجة،الأدب، ٥٣)

إن ذكر الله تعالى ليس عبارة عن تكرار لفظة الله فقط، ولكن الذكر عندما يجد مكانًا في القلب الذي هو مركز الأِستعداد الخاص يكون عاملاً على وصول النية والأعمال إلى المستوى المطلوب، والذكر بهذه الكيفية هو إظهار لوفاء العبد بالعهد الذي قطعه مع الحق عزوجلعندما سألهم الحق سبحانه وتعالى:

﴿**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**﴾ (الأعراف، ١٧٢)

فكان جوابهم عليه: **أنت ربنا** هو تأكيد أن العبد لن ينسى ربه أبدًا بحق. وبسبب الخطر الكبير الذي يحدثه الأنخراط في الغفلة عن ذكر الله فإن الحق ﷻ قد لفت انتباهنا نحن عبيده في مرات كثيرة لأهمية هذا الأمر، حتى أن سيدنا موسى وسيدنا هارون وهما نبيان عليهما السلام عندما أرسلهما إلى فرعون أمرهما قائلاً:

﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ (طه، ٤٢)

لم يستثنيهما من هذا التنبيه، ومحتمل أنه سبحانه وتعالى بهذه الصورة أراد أن يشكل نموذجًا وعبرةً لنا.

والواقع أن الطريق الذي يخلص قلوب المؤمنين من قساوة الغفلة ويوصلهم إلى حيث ينالون رضا الله ﷻ يمر من الذكر الدائم. وليس هذا الذكر في مدة ما أو موسم ما بل يكون هذا طوال العمر، وربما يكون شعور ذكر الله مع كل نفس يتنفسه الإنسان، لأنه في هذا المستوى فقط تتحقق اليقظة والتنبيه المعنوي. وفى هذا الشأن يقول الحق ﷻ في كتابه الكريم:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد، ١٦)

وقد نزلت هذه الآية لتنبه قِسْمًا من الصحابة الذين عاشوا الضنك والشدة في مكة، ولكن بعد الهجرة شعر هؤلاء بالإسترخاء بسبب النعم والرزق الواسع الذي حل بهم في المدينة.



ونحن على هذا النحو يجب أن ندخل في جو من المحبة الأبدية التي لا نهاية لها للرب ﷻ، ويجب أن نبذل كل جهد للوصول إلى روحانية معنوية لن تستطيع الأطماع الدنيوية والمنافع الفانية أن تهزها.

لأن المحبين يحملون أحبابهم في قلوبهم دائمًا. ولا يغيبون عن خاطرهم لحظة واحدة. أما القلب الذي لا يحب فهو مثل الأرض الخراب. فالمعرفة هي أن تحب. لأن سبب الوجود هو المحبة ، فالحق ﷻ أراد أن يُعْرَف بسبب المحبة التي يشعر بها تجاه الكون فخلق هذا العالم.

إن عظمة المحبة تقاس بالتضحية التي تُبذل في سبيل المحبوب. وهكذا فإن اليقظة والأنتباه في الأسحار واللجوء إلى ﷻ هو واحد من أوضح الأمثلة وأبرزها على ذلك الكمال.

ومع ضرورة أن يصاحب المؤمنين شعور دائم بذكر الله تعالى إلا أنه من ناحية أخرى فإن أكثر أوقات الذكر بركة هي «**أوقات الأسحار**»،

فالحق ﷻ قد أعطى قيمة أكبر وأعظم للذكر الذي يُؤدى في تلك الأوقات من الليل عن سائر الأوقات الأخرى. لأن الأِشتغال بالذكر والعبادة في الأسحار يكون أصعب من الأوقات الأخرى. ولهذا السبب فإن إحياء الأسحار هو تعبير عن المحبة الخالصة والتعظيم الذي يشعر به البعض تجاه ربهم.



وقد قال ربنا ﷻ في شأن هؤلاء المؤمنين السعداء الذين رضي عنهم:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ. كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الذاريات، ١٥-١٨)

ومرة أخرى يقول الحق تعالى:

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ (الشعراء، ٢١٨-٢١٩)

وعقب نزول هذه الآيات الكريمة كان رسول الله ﷺ يتجول بين منازل أصحابه ليلاً فكان يجد تلك المنازل لها دوي كدوي النحل من تلاوة القرآن والذكر والتسبيح.

وهكذا فإنه على قدر العشق الذي في القلوب وشدة المحبة الإلهية تكون الرغبة في صلاة الليل والتهجد والتسبيح، ومن هذه الناحية فإن صلاة الليل والتسبيح فيه يكون بمثابة أنس بالحبيب المعظم ومناجاته والتحدث إليه. وفي هذا تقول الآية الكريمة:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً. إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ العَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾ (الإنسان، ٢٦-٢٧)

وقوله تعالى:

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (السجدة، ١٦)



وفى الحقيقة فإن الليالي تكون بالنسبة للمؤمنين الساعين للكمال بمثابة غنيمة إستثنائية بسبب السكون والفيض والنور الذي بداخلها. والعارفون بقدر هذه الغنيمة يجدون بعد منتصف الليل خاصة - في الوقت الذي يغشى الدنيا سكون عميق- أرضية نورانية للتوجه إلى ربهم من أجل قبول دعائهم وعبادتهم وتضرعاتهم الحارة للمولى ﷻ.

وإذا كان النهار فيه العمل والكد بقصد تأمين الغذاء للبدن، فإن الليالي بالنسبة لهم هي غذاء أرواحهم، وهى اللحظات التي تنير القلوب بالنورالإلهي.

وقد سأل الطلاب أحد الأولياء أحباب الحق عن مسألة لم يفهموا الحكمة منها فقالوا:

«يا أستاذنا وسيدنا عندما ننظر حولنا نرى أن الكلاب لا تُذبح للحصول على لحومها مثل بعض الحيوانات الأخرى وتُترك لِتَنفُق وتموت عندما يحين أجلها. فضلاً عن أنها -قياسًا بالحيوانات الأخرى- تلد عددًا كبيرًا في البطن الواحدة لكن الإنسان يذبح الأغنام بقصد العبادة ويتغذى على لحمها ، والأغنام على عكس هذا القدر من أهميتها لا تحمل بأكثر من واحد في البطن الواحدة في أغلب الأحيان. لكن أعدادها لا تنقص نوعها أبدًا بل حتى على العكس فإنها تزيد ، فيا للعجب. ما حكمة هذه البركة التي في الأغنـام؟!



وبعد أن استمع إليهم الولي مبتسمًا أجاب عليهم ذلك الجواب الحكيم قائلاً:

«إن العبرة من هذه الحال التي تشاهدونها في الحيوانات أنها إشارة بارزة على بركة وقت السحر ، لأن الأسحار هي أوقات مباركة تنزل فيها الرحمة والنور كأنها السيل، والكلاب تظل تنبح طوال الليل ولكن إذا ما جاء وقت السحر ترقد لتنام. أما الأغنام فهي تستيقظ وقت السحر، لهذا السبب فهي تأخذ نصيبها من الوابل الصيب من بركة وقت السحر».

وعن إبن عباس قال: «عجبت للكلاب والشاء، إن الشاء يذبح منها في السنة كذا وكذا، ويهدي كذا وكذا، والشاء أكثر منها والكلب تضع الكلبة الواحدة كذا وكذا» (البخاري، الادب المفرد، ٥٧٥)

ومثلما رأينا فإن من أصيب بالنوم وقت الأسحار وغفل عن تلك الأوقات يظل محرومًا من هذا الفيض وتلك البركة مثل أمطار إبريل المباركة التي تذهب هباءً لأنها تهطل على الصحراء أو على البحر أو على أحجار ملساء.

فيا رب لا تجعلنا نغفل عنك طرفة عين، ونوِّر قلوبنا وليالينا ببركة ذكر الله، وأحيى قلوبنا بأمطار السحر النورانية. واجعل لنا نصيبًا أجمعين من الحقيقة العظيمة للذكر. وأهدِ مَن حُرم إدراك عظمتك الإلهية، واحفظ بحرمة الذاكرين لك في الأسحار بلادنا وأمتنا من شرور الأشرار. أمين...

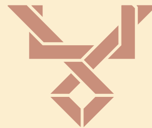


القرآن والتفكر

(١)



إذا كانت السموات بنجومها التي تتلألأ ستبقى حتى يوم القيامة كدليل على القدرة والعظمة الحاكمة، فإن القرآن أيضًا سيضيء بنجوم الآيات مثل سماء تمثل المستقبل وحسن الطالع للإنسانية وسيبقى إلى يوم القيامة. ومن هذه الجهة فإن أكثر البشر سعادةً وخيرياً في هذه الدنيا هم الذين يجتمعون تحت ظلال القرآن الكريم ويسيرون بنور الحياة الصادر عنه.



القرآن والتفكر
(١)

الصفات الإلهية للحق ﷻ تتجلى في هذا العالم بشكل كامل في ثلاثة مواضع هي: **الإنسان والقرآن والكائنات**.

فالإنسان قد شكل جوهر العالم وأساس الوجود آخذًا نصيب من تجليات الأسماء كلها. أيضًا فإن هذه الأسماء نفسها تجلت في حال الكلام فكان القرآن. والقرآن مفصل أكثر مقارنةً بالإنسان ولكن بسبب توحدهما في الجوهر قيل إن: «**الإنسان والقرآن توأمان**».

أما الكائنات التي هي الموضع الثالث لتجلي الأسماء الإلهية فهي تفسير نوعي للقرآن الكريم. فالكائنات قرآن صامت، والقرآن كائنات متكلمة. أما الإنسان فإعتباره جوهر الأساس والأصل، فهو بداخلهما يقع في موضع السلطان الكامل للتجلي بلا نقصان. ومن هذه الناحية فإن «**الإنسان والقرآن والكائنات**» هي عائلة توحيدية تامة.

فإذا كانت السموات بنجومها التي تتلألأ ستبقى حتى يوم القيامة كدليل على القدرة والعظمة الحاكمة فإن القرآن أيضًا سيضيء بنجوم



الآيات مثل سماء تمثل المستقبل وحسن الطالع للإنسانية وسيبقى حتى يوم القيامة، ومن هذه الجهة فإن أكثر البشر سعادةً وخيريةً في هذه الدنيا هم الذين يجتمعون تحت ظلال القرآن الكريم ويسيرون بنور الحياة الصادر عنه.

إن كل سر وحكمة وحقيقة مخفية في القرآن، وكل سعادة ظاهرة في الإيمان، وهذا العالم المترامي اللامحدود يوضح أن الحق ﷻ لو أراد لجعل المحيط في ذرة ، والذرة في محيط.

واستنادًا إلى تلك الحقيقة فقد قال مولانا جلال الدين الرومي -قدس سره- في كلمة له:

«ذات يوم تيقظت في رغبة تقول يجبُ عليّ أن أرى نور الحق ﷻ في البشر. فكأني أردت أن أرى البحر في قطرات أو الشمس في ذرة».

والحقيقة التي يطرحها هذا البيان الذي يعبر عن الرغبة والاِشتياق في الوصول إلى الحقيقة من ناحية، والعمق الذي في الحقيقة من ناحية أخرى لهي أكبر وسيلة تحمل الإنسان إلى الذرى والقمم هي التفكُر؛ لأن الوسيلة الوحيدة الفريدة للوصول إلى الحقيقة هي التفكُر والولع بالبحث والاِهتمام بها.

إن الغايات الدقيقة في تفكُر الكائنات بالقلب هي إظهار الحكم اللطيفة. وكون الدنيا هي حجرة درس إيمانية في جو امتحان هي من أوضح تلك الحكم. أما البشر الذين يدعون بوجود سلبيات وتناقضات في هذا الكون الذي يسيرون فيه فإنهم يخسرون قيمتهم



النفسية والشخصية في الحياة بعيدًا عن رضى الخالق ﷻ، ويعيشون داخل دوامة من الخسران بسبب عدم إستطاعتهم تأمين رأس مال الأبدية اللازم.

إن الإنسان يجب أن يحل عقدة المستقبل أي لغز الموت بأن يعيش بشرف وعِزة، فيجب عليه أن يكون عبدًا للحق ﷻ. وأن يتفكر فيه داخل إطار الوحي ويرتبط بحقيقته. لأن الموت الذي يحاصر كل فرد على شكل دوامة هادرة، ويصبح سقوطه على رأس الجميع بلا إستثناء هي أقسى وأصعب حقائق المستقبل، فإن التفكير فيه والحياة بموجبه والوصول إلى السكينة والراحة تأتى في مقدمة الغايات البشرية.

وعلى هذا النحو فإن الإنسان يحتاج إلى إرشاد القرآن فقط لمعرفة الكائنات وأن يجد الوسيلة بحق للتفكير والبحث بشكل صحيح للوقوف على الأسرار والحكم الإلهية التي بها.

لأن تفكر الإنسان بدون القرآن لو كان بإمكانه أن يقدم عقلاً وإدراكًا وفراسةً بشكل كامل لما تفضل الله ﷻ بإرسال الأنبياء كمساعدة إضافية لعبيده، ولما أنزل الكُتب السماوية. ويمكن القول إن الإنسان يحتاج إلى مساعدة إلهية كتلك المساعدات حتى يستطيع أن يستعمل العقل للتفكر والبحث الموجود في فطرته بالشكل اللائق، فلو لم يُخاطب الإنسان بالقرآن هل كان يستطيع أن يقف على أوصاف الله تعالى مثل «**الأحدية**» و «**الصمدية**»؟!



ويمكن القول إن القرآن يوجه رأس المال الفطري بأصح شكل وأجمله عن طريق تنبيهات وإرشادات لا حصر لها وذلك من أجل أن يستطيع الإنسان أن ينهل من بحر الحقائق كلها الذي هو أساس التفكر والبحث لدى الإنسان.

ولو لم يكن هناك باب التفكر الذي فتحه القرآن علينا لبقينا محرومين سواء من إدراك الكثير جدًا من الحقائق والأسرار الموجودة في الكائنات.

وعلى هذا النحو فمن الضروري أن نقدح الذهن للوقوف على محتوى القرآن اللامحدود واللامتناهي. ومن الطبيعي أن يكون هذا في داخل الحدود والمقاييس المعروفة، وذلك لأن القرآن الكريم قد أخبرنا بان الأِنسان لا يمكنه الوصول إلى نهاية منظومة الحقائق التي فيه مثل الكائنات، وهذا ما عبر عنه القرآن في قوله تعالى:

﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام، ٥٩)

ويمكن القول إنه يوجد أفق رسمه القرآن الكريم للبشر بتنبيهات لا حصر لها عن كيفية لزوم استخدام التفكُر والبحث، وهذا الأمر يجب أن يُفهم جيدًا وأن يتم إدراك وجوده حتى أصغر نقطة فيه. لأن العقل الذي أُعطي لنا في حجم صغير يوازن بميزان اليد، أما الحقيقة التي يمكن أن يقيسها فهي في حجم «جبل القاف»[١].

لذا من الضروري أن يذاب العقل في بوتقة الوحي، وأن يُزين

١ هو جبل أسطوري وبحسب الأسطورة هو جبل ضخم يحيط بالدنيا كلها ويسكنه الجن والحوريات (المصحح)

ذلك العقل بالتسليم.

ومن هذه الناحية فإن المفسرين الذين يدركون عجز العقل ويعرفون حدوده كانوا بعد أن يوضحوا المعاني التي تحملها آية من آيات القرآن الكريم -بما يليق بها من تفسير- يقولون: «والله أعلم بالصواب» لأنهم يؤمنون أن حقيقة تلك الآيات هي بالقطع عند المولى ﷻ.

لأن هناك فرقًا بين الحجم والكيفية اللانهائية واللامحدودة بين الماء الذي في المحيط والماء الموجود في الكوب في أحد المنازل، رغم أنه لا فرق في ماهية تلك المياه إلا أن الفرق بينهما هائل.

ومن ناحية أخرى فلو شُرح لون لأحد العميان منذ ميلاده لترك أثرًا بالتأكيد في ذهنه، لكن يوجد فرق كبير للغاية، ويا للعجب بين هذا الأثر وحقيقة اللون وهذا الفرق لا يمكن قياسه.

وعلى هذا يجب أن نتجنب الإدعاء بأن المعنى الذي تم إدراكه بالحواس البشرية هو المعنى الكامل والتام للألفاظ كلها التي احتواها القرآن الكريم. والحاصل أن هذه الكيفيات والمسببات كلها التي يمكن فهمها وإدراكها بوسائل الإدراك الإنساني والتي توصل إلى الحقيقة كلها تلفت الإنتباه إلى محدودية التفكر والبحث. والآن يلزم أن نسعى ونجتهد لتقديم باقات عديدة للقلوب من الإرشادات والتنبيهات القرآنية لتحقيق الخبرة اللازمة في هذا التوجه.

إن القرآن الكريم الذي كان مرشدًا ولا زال لا نظير له للهداية



والسعادة يدعونا في آيات كثيرة جدًّا منه للتفكر والتأمل في الحِكم التي في خلق الإنسان وفي النظام الخارق للعادة الذي في الكائنات وإلى كون القرآن الكريم هو معجزة بيانية ولغوية. ويجب على من يريد أن يعيش بشكل يليق بخاصية الإنسانية أن يدخل إلى دنيا التفكر هذه التي وجهنا إليها القرآن الكريم.

إن شعور الإنسان الذي يفكر في أحوال الكائنات يجب أن يدفعه إلى البحث عن إجابات لتلك التساؤلات التي تمتد وتعرض أمامه من قبيل: «ما هذه الدنيا؟»، و«لماذا خُلقت؟»، و«ما حقيقة وماهية الأيام الفانية؟»، و«أي طريق هو طريق السعادة؟»، و« كيف يجب أن أعيش؟»، و«كيف يجب أن أفكر؟»، و«كيف يجب أن يكون الأِستعداد والتجهيز لوداع هذا العالم الفاني؟»، و« ما هي هويتي؟».

وإذا كانت الكائنات كلها تتحرك وتتقلب في داخل تيارات القدرة البديعة وضمن مقياس حساس لا يختل أبدًا، فهل يوجد طريق تغلب عليها الشهوانية العبثية وبدون حساب يتحرك فيه الإنسان الذي هو أعلى وأذكى في هذا الوجود؟ وفي هذا تقول الآية الكريمة:

﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ**﴾ (المؤمنون، ١١٥)

وتقول أخرى: ﴿**أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى**﴾ (القيامة، ٣٦)

إن مرحلة براءة الإنسان يجد نهايته مع الوصول إلى سن

البلوغ، ويبدأ المؤمنون الذين يسعون لتحقيق العبودية على الوجه اللائق في تحمل مسئولية جديدة. وفى مرحلة النضج هذا يلزم التفكر بالقلب إضافةً إلى العقل، لأن هذا يكشف للقلوب المؤمنة فقط الأسرار الإلهية والحكم القدسية والرؤى الحقيقية، وفى ذلك تقول الآية الكريمة:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ. وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ (ق، آية ٦-٨)

إن الذين يضيعون أعمارهم في غفلة ونكران ويتكاسلون في البحث عن صانع هذه الدنيا والصاحب الحقيقي لكل هذه النعم التي يستمتعون بها في لذة وسعادة تحت تلك السماوات التي يتكور فيها الليل والنهار، وتشرق فيها الشمس وتغرب بلا كلل أو ملل، وتتزين بزينة الكواكب والقمر. هؤلاء البشر ما أروع هذه التنبيهات لهم والإرشاد في حقهم في تلك الآية إذ يقول الحق ﷻ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (ص، ٢٧)

وقوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ. مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الدخان، ٣٨-٣٩)

إن الدنيا تُعد معرضًا خارقًا لتجليات العظمة الإلهية، وكل قلب



مؤمن يتجول بالشعور والإحساس في هذا المكان البديع يكون مظهرًا ومكانًا للتبصّرات الفكرية والخفقات في مواجهة دفقات القدرة التي في الكائنات ولأعظم اللذات المعنوية.

ويقول الله ﷻ في كتابه العزيز:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ (الزُمر، ٢١)

وقوله تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة، ١٦٤)

وفى الحقيقة فإن نور المحبة يهطل من السماء وتتفجر ينابيع العشق الأخضر من الأرض، وهكذا فإن كل إنسان صاحب تفكر عميق يحاط بإطار من المحبة مثل السماء والأرض سينتهج طريقة لنفسه للتكامل المعنوي لتتآلف وتمتزج فيها أحاسيسه ومشاعره الظاهرة والباطنة مع المحبات الإلهية بالضرورة.

وفي ذلك يقول الحق ﷻ:

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الرعد، ٣).

إن الذين يعرفون السعادة في أن يكونوا عبيدًا لله ﷻ وأتباعًا لرسوله ﷺ يتمسكوا بالنقاء والصفاء في رابطة هذه المحبة. إن اسم هذه الرابطة العلوية هو الإيمان. فالإيمان الذي في القلب هو شعور قدسي يملأ الوجدان يكون عبارة عن تكاثر وزيادة المحبة من تلألأ نور الحق، وإن الذين ينظرون إلى الكائنات بقلب نوراني ينالون شعورًا كهذا الشعور حيث السماء التي فوقهم كأنها عند النظر إليها بعمق يجذب ويلفت الاِنتباه ويجذبه من الأسرار الإلهية مثل ثريا بلورية عظيمة.

أما وجه الأرض فيتضرع إلى ربه ﷻ مرتعشًا فاتحا ذراعيه مع كل شجرة ومع كل ورقة فيها، والحشائش كأنها بساط أو سجادة لجماعة محمدية، والأزهار التي فوقها تتوج كأنها أمة صافية... والجبال التي هي علامات للقدرة هي في حال قيام في حضور إلهي ... والسحاب كل منها كأنه بحر متحرك يتجول في السماء منبعًا للفيض والبركة ... والرياح هي مخبرة الغيب عن الإلهام الإلهي ... والبرق هو شرارات الخوف والرجاء... والرعد هو قاذفات موقظة من الغفلة وبيانات صادرة عن مملكة القاهر ... والنهار هو ظهور لنوره ﷻ ... والليالي للأسرار والحِكم.

الخلاصة أن الدنيا هي كتاب أسرار وتجلٍّ ممتلئ بالآيات اللافتة تقريبًا ... والقرآن أيضًا هو دنيا متدثرة بالكلام ... أما الإنسان فهو رمز للتجلي ونقطة مركزية عرفانية في مكان الصلة والاِلتقاء بين



كليهما.

عن عطاء قال: دخلت أنا و عبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها فقالت لعبيد بن عمير: قد آن لك أن تزورنا فقال: أقول يا أمه كما قال الأول: "زر غباً تزدد حباً"

قال: فقالت: دعونا من رطانتكم هذه قال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ قال: فسكتت ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي قال ﷺ: **"يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي"**

قلت: والله إني لأحب قربك وأحب ما سرك قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي قالت : فلم يزل يبكي حتى بل حجره قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل لحيته قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض فجاء بلال يؤذنه بالصلاة فلما رآه يبكي قال :

يا رسول الله لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟

قال: **"أفلا أكون عبداً شكوراً لقد نزلت علي الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها"** ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ (آل عمران، ١٩٠-١٩١)؛

(ابن حبان ، جـ٢، ٣٨٦)

إن رسول الله ﷺ قد بكى في تلك الليلة التي نزلت فيها تلك الآيات الكريمة حتى الصباح بدموع غزيرة تشبه نجوم السماء. فمن

المؤكد أن دموع المؤمنين بلطف الله ﷻ هي بحق زينة الليالي الفانية التي تضىء ظلمات القبر، وهي قطرات الندى لحدائق الجنة التي في الآخرة.

والحقيقة أن هناك بعض الأيام والليالي والشهور التي ينعم بها الله تعالى على المؤمنين لتكون فرصة لينالوا مرتبة الوصول، وفي تقويم السماء الذي وضعه الله يوم خلق الخلق، وهناك أيام تتفوق على أيام وشهور تتفوق على شهور، وليالٍ تتميز على ليال وهذا الأمر حتى قيام الساعة.(سبب تطرق الشيخ المؤلف لشهر رجب لمصادفة كتابته هذا المقال في هذا الشهر)

حتى في العصر الجاهلي كانت السيوف توضع في غمدها في شهر رجب والصراعات الدموية كانت تتوقف ويسدل عليها ستار السكون والهدوء ، وبعد أن تشرف العرب بالأِسلام استمر حرمة وقدسية هذا الشهر. وزادت بركة وقدسية هذا الشهر بتشرفه بليلتي الجمعة الاولى **(ليلة الرغائب)** بلغة الملائكة وليلة السابع والعشرين ليلة الأِسراء والمعراج .

ولكي تنال شرف تلك الأوقات لابد أن تتحلى وتتزين بنور رسول الله ﷺ ومحبته، لأن محبة رسول الله ﷺ هي رأس مال سعادة قلوبنا. والسعداء الذين يطيعونه بالمحبة ويعطون قلوبهم له قد سلكوا طريق الأبدية الذي يلحقهم بقافلة الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.



فاللهم املأ قلوبنا بنور هذه الأيام والليالي والشهور وبركتها ونور قلوبنا بنور رسولنا الكريم، وزينها بمحبته ﷺ، واحشرنا يوم المحشر تحت لوائه، واجعلنا ممن ينال شفاعته.

اللهم اجعل دولتنا وسائر بلاد المسلمين محلاًّ للخيرات والفتوحات والفيوضات.

يا رب نسرع الخطى لمحل الغربة الطويلة والوحدة الموحشة فاجعل الإيمان والنبيين والصالحين وأعمالنا الصالحة شمسنا هناك.

إلهي اجعلنا من عبيدك أصحاب الإدراك الحقيقي الذين يشاهدون الكائنات والحوادث بعيون القلب، وأنعم على قلوبنا بنصيب من فيض أمرك الجليل. آمين...

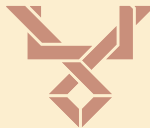




القرآن والتفكر
(٢)



إن قلوبنا يجب أن تمتلئ وتفيض بالمحبة والشوق إلى حقائق القرآن والسنة النبوية المطهرة لرسول الله ﷺ، لأن القرآن الكريم والرسول الكريم يدعوانِ المؤمنين إلى طريق السعادة والهداية الأبدية، ويجب ألا ننسى أن الكتاب والسنة هما أمانة نبوية عندنا فلابد أن نصاحبهما ونحافظ عليهما



القرآن والتفكر
(٢)

إن الإنسان ليس كائنًا يتكون من لحم وعظم فقط، بل هو معجزة في الخلق خارقة للعادة، لأنه الكائن الوحيد الذي جُعل فيه الأِستعداد للوصول إلى ذات الله العليا، وأي إنسان يصل إلى الكمال محافظًا على الشرف والعزة التي فُطر عليها يكون مظهرًا للفيوض والأنوار الإلهية، ومصدرًا للتجليات الكونية والعلمية ونهرًا للخيرات وقيمة معظمة. لأن الرب ﷻ قد وصف الإنسان بأنه "**أحسن تقويم**".

والواقع أن ضياع هذا الوجود الفاني الذي هو أمانة - والخاص بالإنسان الذي نال منح وعطايا- في دوامات الشبهات والجهالة هو أشبه ما يكون بمن ينسج كفن العذاب لنفسه.

إن البشر هم أهداف الأِمتحان المنصوب أمام سهام النفس، ومن أجل ذلك يجب أن يعيش الإنسان عمره في جو من اليقظة القلبية دون أن ينسى إحتمال أن يغص في كل رشفة أو جرعة ماء،وأن يختنق في كل لقمة. لأن العمر يشبه تَقْويماً يحتوى أيام الحياة الفانية المعدودة. ويد خفية تقطف وتقطع ورقة العمر كل يوم وتتركها لرياح الأجل.



إن أيامنا الماضية شاهدة، وأيامنا التي في المستقبل ستحل ضيفًا علينا، فيلزم أن نجهز ما يلزم لأيامنا تلك. والأعمار هي حافظة الأوراق الأبدية، والملائكة الكرام الكاتبين تسجل ما نعمله دون أن تُخْطئ، وتلك الحافظات ذات يوم سوف تعرض علينا ويقال لنا:

﴿**اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً**﴾ (الإسراء، ١٤)

إن كتابنا هو وجه الأرض التي نعيش عليها إضافةً إلى صحيفة الأعمال. وكل ما قمنا به أو عملناها سيشهد علينا ويتحدث أمام الحق ﷻ حيث تقول الآية الكريمة:

﴿**يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا**﴾ (الزلزلة، ٤)

وإن شاء الله تبيض وجوهنا جميعًا في ذلك اليوم، ومن أجل ذلك فإن القرآن الكريم يوجّهنا فيقول:

﴿**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾(السجدة، ١٦)

وقوله تعالى:

﴿**إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً**﴾(الإنسان، ١٠)

وقول تعالى :

﴿**وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُون. إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ**﴾

(المعارج، ٢٧-٢٨)

ويوضح القرآن الكريم أن الذين يؤكدون لأنفسهم أنهم في أمن من عذاب الله تعالى هم جماعة من الخاسرين، فيقول عز من قائل في كتابه العزيز:

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

(الأعراف، ٩٩)

أما من قنطوا ويأسوا من رحمة الله فالقرآن يعلمنا أن هؤلاء هم الكافرون، فيقول:

﴿وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف، ٨٧)

إن قلب المؤمن يهتز بشوق العبودية بين جناحي الخوف والرجاء. وهذه الموازنة التي بين أحاسيس الخوف والرجاء والتي تُسمى مقام «**بين الخوف والرجاء**» تجعل المؤمن في حال دعاء ولجوء دائمين، ويتصرف وفق هذه الموازنة إلى حين اليقين أو الموت، وفي ذلك تقول الآية الكريمة:

﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف، ٥٦)

وعلى هذا فيجب على المؤمنين أن يعيشوا في تفكُر يناسب هذا الوصف الذي جاء في تلك الآية:

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ (الإسراء، ٥٧)



وليس هناك صك يضمن النجاة لأحد من البشر باستثناء الأنبياء، ومن أخبرهم الأنبياء أنهم من الناجين، ويقول ربنا لتأييد هذه الحال في كتابه الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(آل عمران، ١٠٢)

إن خشية الله هي نور سعادة القلوب. والقرآن الكريم مملوء بكثير جدًّا من آيات العذاب وأخبار جهنم. ورغم ذلك فإن بعض الأشخاص الغافلين تغرهم أيات الرحمة دون الاِلتفات لأيات العذاب من قبيل أن الله هو الغفور فأحبوه ولا تخافوا منه فينبههم الله ﷻ فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (لقمان، ٣٣)

بعض الأشخاص الغافلين يتبجحون بقولهم دع ذنوبك لي لأتحملها عنك فكم محزنة هذه الحماقة ، فالغافل يفرح في الحياة ويغرق في اللذة ونعيم الدنيا، أما الشخص المتفكر الصالح فيعلم كيف يغتنم الحياة الدنيا، ويعيش في سعي دءوب ليصل إلى المراتب المعنوية، والغافل في حال عصيان وصراع مع قدر الله تعالى غارق دائمًا في متاهات الأسئلة (لأي شيء ولماذا).

أما الشخص الصالح المتفهم فهو في حال رضا وهدوء وسكينة حقيقية يسعى دائمًا إلى النظر إلى الحكمة من هذا الأمر ويتعمق في حقيقته.

كما أن البعض من الأشخاص يتصرفون كأنهم وصلوا إلى عمق صوفي مغاير تمامًا لما في نفوسهم وبشكل أكثر وضوحاً فهم يهذون بهذه الكلمات دون فهم ودون الوقوف على أساس مقامات الذروة وأسرارها التي لم يستطيعوا الوصول إليها من ناحية القلب والحال. فمن لم يكن في مقام مولانا جلال الدين الرومي ويونس أمره وأمثالهم يقول كلمات منمقة مزينة من قبيل : «أنا لا أريد الجنة ولا أخاف من جهنم، أنا عاشق للحق، أنا أحبه فقط»، وهذا الأمر غير مقبول أصلاً بل هو يعد مجذوبًا مصنوعًا وليس حقيقيًّا.

فالشخص الذي يفنى في الله ﷻ يغلق كل الطرق الخاصة في قلبه، ويفتح فقط الطرق الموصلة إلى الله تعالى، ويصل إلى كمال المحبة والعشق فيه.

وبعبارة عبد القادر الجيلاني - قدس سره -:

«إن الرب قد أخرج من قلب العبد -الذي وصل إلى هذه الحال من المحبة- حب الموجودات كلها والمخلوقات كلها من العرش إلى باطن الأرض؛ لأنه قد أخرج هذه الأشياء من قلبه فلا يفكر العبد إلا في ربنا وفي الآخرة. حتى إنه يفزع من نفسه أيضًا، فقط يريد الأنس بربه، ويكون كالمجنون مع ليلى».



فالشاب الذي كان مجنونًا (قيس بن ملوح) بحب ليلى إنفصل مع الوقت عن الناس، وبدأ يعيش وحيدًا، وترك البلاد المعمورة وعاش بين الوحوش البرية في الصحراء، يستوي عنده مديح الناس وذمهم، ولم يعد يشعر بهم، ووصل إلى حال أنه لم يعد يفرق بين حديثهم وسكوتهم، وذات يوم سُئل هذا المجنون:

من أنت؟

قال: «ليـلى».

فسُئل مرةً أخرى:

من أين جئت؟

قال: من عند ليلى.

فسُئل مرة أخرى:

إلى أين تذهب؟

قال: إلى ليـلى.

لقد عمي قلب المجنون وبصره عن العالم كله من شدة حبه وعشقه لـ «ليلى»، وأصبحت أذناه لا تسمع كلمة أخرى سوى كلمة ليلى. (عبد القادر الجيلاني، الفتوح الربانية، ص٢٨٤)

إن المؤمن عندما يعرف عشق الله جل جلاله وعندما يَفْنَى فيه يُخْلي قلبه من الموجودات كلها، ويملأه بالله ﷻ. فالإنحراف والرغبات الدنيوية والبشرية تفني العمر. والقلب العاشق يكون في حال الأُنس مع ربه فقط في وحدته وفي إجتماعه مع الناس.



وهو يجد السعادة في هذا الأمر الألهيّ الجليل ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾(هود، ١١٢)، وهكذا فإن الله تعالى يوقف عبده عند الحقائق العميقة.

فالحق ﷻ قد أنعم على البشرية برسوله الكريم محمد ﷺ كشخصية نموذجية، وهو ﷺ النموذج المثالي الفريد للمؤمن في كل نقطة ومرحلة من حياته البشرية.

فقد روي أن رسول الله ﷺ شعر بحب زائد عن الحد في قلبه تجاه أحفاده "الحسن والحسين" بمقتضى غلبة حال البشرية عليه وعند ذلك جاء إليه جبريل عليه السلام، وسأل الحبيب"محمداً" ﷺ قائلاً:

هل تحبهم كثيرًا؟

فأجاب ﷺ: نعم أحبهم.

وعند ذلك أخبره جبريل عن حالهم فقال لهُ: أحدهم سيموت مسمومًا، والآخر سيموت شهيدًا. وبعد هذه الحادثة اعتدل حبه لأَحفاده نور عينيه واتزن . (عبد القادر الجيلاني، الفتوح الربانية، ص.314)

وهذا يظهر أيضًا المحبة عندما تتحقق بدرجة زائدة عن الحد في حق أحد المخلوقات دون الله تعالى فإن هذا الأمر لا يكون مقبولاً عند الله. ورسول الله ﷺ رغم أنه كان سبب وجودهما في هذا العالم، إلا أنه لو لم ينل هذا التنبيه والإرشاد -مثلما حدث في المثال السابق- من قبل الله ﷻ فإنه ﷺ كان سيقع في زلة ما. وفى تلك

الحال يجب أن نفهم من هذا المثال أن تجنب الإفراط في المحبة هو في أعلى درجة من الأهمية. وأننا يجب أن نسعى لنحفظ أنفسنا من أن تتحول علاقاتنا القلبية بكل شيء نحبه ونتوجه إليه بالكلية إلى نوع ما من الأصنام . وذلك لأننا لسنا مخلصين ولا محفوظين عن الزلل مثل الأنبياء.

إن تجاوز الحد في المحبة لا يجوز إلا في التوجه إلى الله تعالى ومحبته هو فقط. وأحاسيس الخوف والرجاء التي تُحس تجاه المولى ﷻ لو استمرت في توازن دقيق ستكون القلوب عبارة عن سُحب رحمة في سماوات الإيمان. لأن من يحب يَعِيشُ دائمًا في خوف من أن يُؤذى من يحب ويحمل همٌ أن يفقد محبة من يحب وفي ذلك تقول الآية الكريمة: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾(محمد، ٧)

ومن أجل ذلك يجب أن نبذل قصارى الجهد لكي نجعل صحائف الأعمال مع مظاهر إيماننا الجميلة مَعارض للعمل الصالح. ويجب ألا ننسى أننا -نحن المؤمنين- أحفاد آدم عليه السلام الذي أُمرت الملائكة بالسجود له كعطاء من الله ﷻ ، وأننا طلاب في مدرسة الأسماء الإلهية وفى فصل الحقيقة اللدنية لسيدنا محمد ﷺ، وإننا في طريق الصراط المستقيم الذي يعيش ويحيا بالقرآن.

ولهذا السبب فإن قلوبنا يجب أن تمتلئ وتفيض بالمحبة والشوق إلى حقائق القرآن والسنة النبوية المطهرة لرسول الله ﷺ،



لأن القرآن الكريم والرسول الحبيب يدعوننا إلى طريق السعادة والهداية الأبدية، ويجب ألا ننسى أن الكتاب والسنة هما أمانة نبوية عندنا فلابد أن نصاحبهما ونحافظ عليهما.

وقد أخبرنا ربنا ﷻ وأعلمنا أنه سيصل إلى طريق السعادة والهداية الأبدية ذوو القلوب السليمة فقط .

وعلى هذا الإعتبار فإن البقاء دون تفكُر أو إحساس بدعوته ﷻ هو خسران وغفلة للقلوب التي عليها أقفال مصداقًا لقوله تعالى:

﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ (محمد،٢٤)

والقرآن الكريم يدعو إلى التدبر فيه وفى آياته التي لا نظير لها ولا مثيل فيقول:

﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً**﴾ (النساء، ٨٢)

أي أنه ليس من الممكن أن تظهر أَيَّةُ آية في القرآن الكريم الموجود منذ أربعة عشر قرنًا مضادة للعلم.

بالعكس فإن الإستكشافات والإختراعات التي تتم في كل عصر تزيد من قوة القرآن، فالقرآن الذي أُعطي للبدوي الذي كان يعيش قبل ألف وأربعمائة عام ووفر له ما يبحث عنه ويطلبه وكان ينظم حياته في أجمل صورة، يستطيع اليوم أن يصيب أرباب العلم في أعلى المستويات بالدهشة والحيرة كلما مر الوقت ويجعلهم



منقادين مطيعين له بصورة واضحة. لأنه مملوء بأكمل المعارف والعلوم القائدة للطرق العلمية كلها التي كانت والتي ستكون حتى يوم القيامة.

حتى أن إمكانية الاِقتراب اليوم أكثر من المعارف المعجزة التي في القرآن الكريم بالإستكشافات العلمية التي تتم هو وعد الحق ﷻ كمعجزة تم توضيحها في الآيات، وهذه الأحوال الخارقة للسعادة والأحوال العالية التي في القرآن الكريم تتحقق بالتدريج في إطار ذلك الوعد الإلهي. حيث يقول الحق ﷻ:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت، ٥٣)

والأمثال في توجيه هذا البيان الإلهي كثيرة، وما أكثر الحقائق العلمية في كثير من الآيات! يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج، ٥)



ويقول أيضًا:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون، ١٢-١٤)

وقد اعترف العالم الكندي البروفسور كيث ل. مور الأستاذ في علم الأجنة أنه عند مطابقة المعلومات الخاصة بمراحل تكون الجنين في رحم أمه بآيات القرآن الكريم وجد أن هذا العلم في حالة مطابقة تامة مع القرآن الكريم حتى أنه أضاف أن القرآن قد سبق علم الطب بتلك الأمثلة والتعريفات التي ذُكرت فيه.

وأضاف الدكتور كيث أن التغيرات الثلاثة المذكورة في القرآن الكريم وهي النطفة والعلقة والمُضغة بجانب أنها مطابقة كلها للحقائق العلمية فإنها تعطي معلومات كاشفة كبيرة إلى عالم الطب.

فالمرحلة التي عبر عنها بالنطفة تُعد شاملة لمحتوى الأبحاث العلمية كلها. ومرحلة العلقة تشير إلى وضع دموي معلق ومتصلب ومتجمد. وخصائص حياة الجنين كلها قد تجمعت في هذا الدم الذي في حالة تجلط، أما المضغة فهي تعنى اللحم الممضوغ. وهي عند النظر إلى شكلها تبدو وكأنها قطعة لحم ممضوغة، ويوجد



بها تقريبًا آثار أسنان. ونتيجة تلك الأبحاث فقد شعر دكتور كيث بحيرة ودهشة كبيرة فيما يتعلق بالقرآن الكريم ورسولنا ﷺ، وصدَّق باطمئنان كبير معجزة القرآن الكريم التي حدثت منذ ألف وأربعمائة عام ودخل الإسلام ونطق بالشهادتين.

وهذا التصديق وما يشبهه من حوادث قد أخبرنا به القرآن الكريم كمعجزة أخرى له فيقول الحق ﷻ:

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾ (سبأ، ٦)

وأيضًا فأنّ العلم الحديث الذي بدأ يبحث بصمات الأصابع وجد أن تلك البصمات تبقى هي نفسها دون أي تغيير طوال العمر، ولا يمكن أن تتشابه بصمة إنسان مع أخرى بأي شكل. ولهذا السبب يتم التحقق من هوية أي شخص في الأحوال القانونية والأمنية عن طريق بصمات الأصابع والأنامل. وهذه الحقيقة التي اُكتشفت في أواخر القرن التاسع عشر وبدأت الاِستفادة منها وقد ذكرها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان بقوله تعالى:

﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ. بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ (القيامة، ٣-٤)

مشيراً في هذه الأية الى دقة أطراف الأصابع وهي البنانة

أي أن القرآن يأتي في المقدمة دائمًا ويأتي بعده العلم ليؤكده.

وفي ذلك تقول الآية القرآنية الكريمة:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء، ٨٨)

لأن القرآن ليس علمًا إنسانيًا عاجزًا بل هو علم رباني أنعم به على البشر ووضع قواعد العلوم كلها التي في هذه الدنيا.

وفى نفس الوقت فإن الله تعالى هو صاحب هذا الكلام، وهو الذي خلق المدارك التي توصلنا إلى هذه الكشوف العلمية.

والأنبياء والأولياء كلهم يأخذون علومهم من حقيقة القرآن، ولهذا السبب فإن الكتب السماوية السابقة كانت في نفس توجه القرآن الكريم أيضًا، فكما أن الإنسان نموذج مصغر للعالم فإن القرآن يبقى بنفس الشكل كتابًا إلهيًّا يحيط بالعوالم كلها.

وعلى هذا النحو فإن العلوم التي احتواها القرآن هي صالحة ومستمرة لكل زمان ومكان كما أنها تحيط بالأزمنة كلها. وأحباب الحق تعالى بهذا الإدراك كانوا محلاً لتجليات الأسرار المختلفة من كل كلمة فيه بل حتى من كل حرف. مرة أخرى فإن أولياء الله قد أكدوا أن الكتب التي ألفوها وكل العلوم التي عرفوها كانت تجليًّا من نور القرآن الكريم.

وقد كانت حادثة الإسراء والمعراج التي وقعت في ليلة السابع والعشرين من رجب قبل عام ونصف من الهجرة تجليًا إلهيًّا كبيرًا حدث خارج ظروف الزمان والمكان وحدودهما، لأن رسولنا



الكريم أُسري به من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بمدينة القدس، ثم عُرج به إلى السموات العلى وكل ذلك حدث في ليلة واحدة، وقد عبرت الآيات الكريمة عن تلك الرحلة القدسية فقالت:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء، ١)

وعبّرت آية أخرى عن التجليات الحكيمة التي كانت في تلك الرحلة الإلهية فقالت:

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى. مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (النجم، ١٦-١٨)

إن واقعة وحادثة المعراج -هذا التجلي الإلهي الذي حدث في ليلة والذي يحتار العقل عند التفكير في عظمته وقدره- كانت مقابلة «لقاء» حبيب مع المحبوب رُتبت هذه المقابلة من أجل أن يشاهد رسول الله ﷺ عظمة وقدرة الله تعالى ﷻ اللامحدودة. وهذه الدعوة الإلهية والحِكم العميقة التي فيها والجمال والرقة التي زينتها يصعب على حدود العقل وحدود المنطق البشرى أن تفسرها وتدركها على الوجه الذي يليق بها. وبهذا التوجه فإن الحكم العميقة لتلك الرحلة العظيمة تبقى سرًّا بين الحبيب والمحبوب خارج المعارف المحدودة التي نعرفها.



وفى هذه الليلة المباركة يلزم ألا يغيب عن الخاطر أن القناديل المضيئة في مآذننا المرتفعة الممدودة إلى السماء مثل أصابع الشهادة هي هدايا إلهية وحصص نورانية تنعكس على يومنا الحاضر من ذكريات تلك الليلة المقدسة المباركة.

أما أعلى ذكرى خاطرة علوية للأمة من ليلة المعراج فهي بلا أدنى شك هي الصلاة، فالصلاة هي عماد الدين، ونور العيون، وسرور القلوب، وهى لقاء مع الخالق، بالجملة هي معراج قلوب المؤمنين، وكل واحد منا نحن عباد الله تعالى وأتباع رسوله ﷺ لديه استعداد في أن يعيش معراج فردياً.

وتوجد علامات واضحة تدور حول أن معراج حياة العبودية يتحقق بالصلاة خاصة. وبالتبعية فإن كيفية صلاتنا هي مقاييس لمستوى معراجنا ، ونحن لدينا دعوة إلى ذلك المعراج في خمسة أوقات في اليوم.

فيا رب اجعل من تلك الليلة المباركة مصدر سعادة للأمة كلها. واللهم اجعل لنا نصيبًا من هطول الرحمة التي تسكبها على عبادك. واحفظنا من الغرق في بحر دنيا الشهوات. ربنا يا واسع الكرم أعطنا فهمًا وإدراكًا نفهم به حقائق القرآن. واملأ قلوبنا بمحبته.

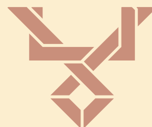
اللهم زينا بعلم القرآن. وأحيِ قلوبنا في جو التفكُر اللانهائي فيه وفى اكتساب محبة رسولنا الكرِيم ﷺ حتى نأتي بقلب سليم إلى مقامك العلىّ العظيم . اللهم آمين...



القرآن والتفكر
(٣)



ما أكبر الحقائق! والمشاعر القلبية وأعظمها التي يمكن الوصول إليها نتيجة تقوية وتغذية التفكير والإحساس الذي لدينا بالقرآن إنها تشبه العظمة التي تكسبها بذرة شجرة دلب الصغيرة جدًّا –مثل الذرة– حتى تصير بسبب الأرض المنبتة المعطاءة شجرة دلب عظيمة وضخمة، وعلى هذا فإن مشاعرنا وتفكيرنا الذي يُحرم من إرشاد ونور القرآن الذي لا ينفد يبقى مثل بذرة جافة محرومة من الأرض المنبتة



القرآن والتفكر
(٣)

إن الحق ﷻ -والذي كلف الإنسان بالعبودية- قد سخر له كل الموجودات في السماء والأرض حيث قال:

﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (الجاثية، ١٣)

وقد زين الحق ﷻ الإنسان بأحاسيس قلبية مثل الاِستعداد للتفكر كي يستطيع أن يعيش بعمق شعور العبودية. ومرة أخرى لكي يستطيع الإنسان أن ينال الوصول ويدرك الكمال في الإيمان، فإن الحق ﷻ قد تلطف عليه مرة أخرى فأرسل إليه الأنبياء في صورة أسوة حسنة له.

والحقيقة أن العون الإلهي الذي تحقق بواسطة الأنبياء قد وصل إلى الذروة عن طريق نبي آخر الزمان ﷺ، وبالقرآن الكريم الذي جاء به هذا النبي ﷺ والذي أنعم الله به على البشرية كلها.

ولهذا السبب فإننا مدينون بشكر أبدي لا ينفد، لأن الله أنعم علينا بنعم إلهية كثيرة بأن جعلنا من أمة محمد ﷺ وأن جعل لنا نصيبًا من القرآن الكريم.



لأن أكبر الحقائق والمشاعر القلبية وأعظمها التي يمكن الوصول إليها نتيجة تقوية وتغذية التفكير والإحساس الذي لدينا بالقرآن تشبه العظمة التي تكسبها بذرة شجرة دلب الصغيرة جدًّا -مثل الذرة- حتى تصير بسبب الأرض المنبتة المعطاءة شجرة دلب عظيمةٍ وضخمة، وعلى هذا فإن مشاعرنا وتفكيرنا الذي يُحرم من إرشادٍ ونور القرآن الذي لا ينفد يبقى مثل بذرة جافة محرومة من الأرض المنبتة.

ولهذا السبب فليس هناك نعمة لدينا أكبر من إدراك عظمة الإكرام الإلهي الذي تحقق في ظل القرآن الكريم وعظمته الأبدية.

إن الحياة الدنيوية السفلى الدونية والحقارة في التفكير والإحساس التي تطرحها الأقوام البدائية المحرومة من التبليغ الإلهي في ذلك القرن الحادي والعشرين الذي هو عصر الفضاء، تظهر هذه الحقيقة في شكل بارز للغاية. والآن فإن وجود ملايين البشر المنتسبين إلى أديان منحرفة كالبوذية الذين يعبدون تماثيل بوذا المصنوعة من الحجر، والهندوسية الذين يعبدون البقرة ويقدسونها وهى عبارة عن حيوان عاجز، ومليارات البشر الذين يؤلهون موجودات هي عاجزة كتلك الموجودات؛ كل هؤلاء يشكلون لوحات معبرة إلى أقصى حد من أجل أن ندرك ونحيط بعظمة النعمة المحمدية التي لدينا.

لكن الأكثر إيلامًا وحزناً من ذلك أنه بسبب مجموعة من الأسباب الشهوانية والدنيوية التي تتخلل نعمة الإيمان وتظهر به



فإن صدى الحق الهائل لا يجد آذانًا صاغية في نفوسنا. ويتحدث القرآن الكريم عن أشياء كتلك توجد في كل عصر فيقول الحق في كتابه العزيز:

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ (البقرة، ١٨)

وبهذا الشكل فإن الحق ﷻ قد طلب أن يكون المؤمنون أصحاب تعمق في الإحساس، وأصحاب فراسة ويقظة، لذا قال الحق في كتابه الكريم:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُماً وَعُمْيَاناً﴾ (الفرقان، ٧٣)

وفى عصر كهذا يوجد وصفان مهمان لأي مسلم أوّلهما: أن يكون لديه إحساس شكر بقدر قيمة النعمة التي تجلت فيه مثل الأزهار الندية التي كان لها حظ أن تنمو وتزدهر بين تصدعات الصخور الصلدة القاسية.

أما الوصف الثاني: فإن الذي سيتشرف بهذه المنح واللطائف الإلهية بصورة طبيعية يكون متحمساً لتبليغ هذه الحقائق إلى كل المحرومين من هذا الحق وتلك الحقيقة بإحساس الرحمة والشفقة. وفي هذا تقول الآيات الكريمة:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران، ١٠٤)



ويقول تعالى أيضًا:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت، ٣٣)

ولو أُريد لجهود التبليغ تلك أن تكون مثمرة بالقدر المطلوب فيشترط أن يتعلق القلب والعقل أكثر من أي وقت بالمحتوى العظيم للقرآن الكريم. وأن يستقيم على طريق القرآن ويتخلق بأخلاقه الكريمة ويمكن القول إن المحتوى والروحانية الكبيرة للقرآن الكريم تجبرنا على أن نكون أصحاب دراية قلبية وهمة فوق خبرات ودرايات وهمم علماء الطبيعة الذين يدرسون العالم المادي.

فمن الواضح أن علوم الماديين كلها لم تستطع أن تحصل على نتيجة أخرى سوى تحقير البشر وتأكيد فقرهم وذلهم، وثمار هذا الوهم قد نشأت من وزن حقيقة الإنسان بالعقل فقط. أما القرآن الكريم فقد احتوى ست عشرة مرة على تنبيهات وإشارات من قبيل «**يا أولى الألباب**» لتشير إلى العقل الذي اكتسب قيمته بالوحي.

إن القرآن الكريم الذي يأتي قبل العلوم كلها قد طرح حقيقة أنه مصدر للنور -ما أعظمه- عن طريق الكشوف الجديدة التي يحققها التفكير والبحث البشرى كلما مرت الأيام.

لذا يجب علينا نحن المسلمين أن نفكر في مسئوليتنا ونكون نموذجاً ، وأن نبقى جديرين في أمر إيضاح كمال القرآن للبشرية



كلها وفى تنبيه الناس لذلك، وأن نرتجف عند التفكير في تلك المسئولية.

فضلاً عن ذلك فإننا في حال لم نستطع أن ننشر حقيقة القرآن التي أيدتها الكشوف العلمية ملايين المرات، رغم وجود كل الإمكانات والوسائل المتنوعة التي يوفرها العصر الذي نعيش فيه، فإن البشر الغافلين الذين يعيشون في أركان الدنيا الأربعة يعني على هذه الكرة سيقفون منا موقف الخصومة أمام الله تعالى يوم القيامة.

وذلك يزيد مسئوليتنا أكثر، لأن كثيرًا جدًّا من الكشوف العلمية في عصرنا الحالي توفر تسهيلات كبيرة قياسًا بالعصور الماضية في موضوع إيضاح حقائق الإيمان -التي هي غيب في معظمها- وإثباتها.

وبعض الحقائق في الكائنات والتي تحتل مكاناً في القرآن الكريم سيتم فهمها وإدراكها عندما يصل المستوى العلمي إلى فَهْم قدرها وعظمتها.

أي أن القرآن يَعرض حقائقه حتى يوم القيامة تبعاً لإدراك البشر ومستواهم العلمي في كل زمان، وبلا شك فإن هذه الكيفية هي من قبيل الرحمة الإلهية.

لأن الخصائص الخارقة للعادة والتي تَظهر في فطرة الإنسان والكشوف الطبية الكبيرة والكثيرة جدًّا من النظام والدقة في أقطار السموات والأرض بحيث تصيب العقل بالدهشة والحيرة، فلو أن



القرآن الكريم قد أوضحها صراحةً وبشكل واضح قبل أن تُكتشف علمياً لما صدقها البشر في القرون السابقة، لأنها كانت تفوق مستواهم العقلي والعلمي ومن ثم لما استطاعوا وما أمكنهم أن يدخلوا في الإيمان نتيجة لهذا الأمر.

والقرآن الكريم في هذا الجانب يشبه أرضاً طيبة تُخرج كنوزها كلما حفرنا باطن الأرض. فيلزم علينا إذن أن نقدح عقولنا وذهننا لكي نقف على محتواه - أي القرآن الكريم - الواسع والعظيم.

إن إمكانية الوصول إلى عمق الشعور بكتاب الكائنات ومشاهدة حكم الدنيا وأسرارها يتحقق فقط في ظل تفكير أهل القلوب. لذا فإن ربنا ﷻ يدعو الإنسانية كلها إلى هذا النوع من التفكير فيقول في آياته الكريمة:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج، ٤٦)

وقوله تعالى:

﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد، ٤)

إن القدرة على أن تصير مؤمنًا حقيقيًّا تبدأ مع تحرك القلب وسعيه الدَّؤُب إلى التفكير وحب الحق ﷻ.

إن ما يجعل الإنسان إنسانًا هي أعمال القلب والعقل، وعندما نعلي من قيمة العقل فقط ونهمل عامل القلب، فإن الإنسان ربما قد يكون رجل دنيا ناجح، لكن من أجل أن يصبح مؤمنًا رقيقًا حساسًا فمن الضروري أن يجعل القلب لينًا وأن يلفه ويحوطه عمق الشعور والإحساس.

وكل شيء يتحدث بلسان الحال لكل مؤمن يسعى لأن يجعل قلبه على هذا النحو فكل الموجودات لها لسان حال تعبر وتبين به عن نفسها.

فأي شخص يكون أعمى عندما يولد من بطن أمه ولو فتحنا عيناه فجأة لأصيبت بالدهشة الشديدة وأُغلقت تلقائياً، وعندما تنظر العين نظرة إلى البحار أو إلى الأشجار أو إلى الطيور المُحلقة في السماء فإنها تُصاب بالحيرة والدهشة، لأن الأشياء التي لم ترها العين أبداً تقول عند رؤيتها: «**يا رب ما أجمل ما خلقت**» وتشعر بالحيرة.

والإنسان الذي يقابل كل يوم آلافاً من تلك الجماليات ولا تلفت انتباهه ولا يشعر بالتفكير العميق والبحث عن كُنه تلك الأشياء فهو يمر عليها وهو في غفلة دائمة يشبه الصخور الصلدة التي لا تستطيع أن تأخذ أي قدر من أمطار نيسان المباركة التي تتعاقب عليها.



وما أجمل تلك الدعوة إلى الأِنتباه واليقظة التي وردت في تلك الآيات الكريمة التي تقول:

﴿وَاخْتِلاف اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الجاثية، ٥)

وقوله سبحانه:

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ القَدِيمِ. لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس، ٣٧-٤٠)

وقوله تعالى:

﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ﴾ (العنكبوت، ٤٣)

إن الإنسان لو تلقى واكتسب معرفة في عمق الإحساس والتفكير طوال حياته لاستطاع أن يأخذ نصيبًا من المحبة الإلهية. فالسعادة التي تأتي بعد الموت تكون على قدر تلك المحبة، والأنبياء والأولياء الصالحون عبر التاريخ كانوا أمثلة حية على الدراية والمعرفة التي تدرك وتفهم الكائنات، ومعرفة الله التي في فطرة الإنسان وفى أعماق وجوده هي سر خفي.

إن الغافلين المعاندين والمُنكرين الذين أمضوا حياتهم في بحر من الأزمات عندما يشعرون بالوحدة الرهيبة وأنهم بلا حامٍ يحميهم



ويحسون بالحاجة إلى طلب العون من القدرة الإلهية يعودون إلى الله تعالى بما بقى من فطرتهم، تلك الفطرة المركوزة في وجدان الإنسان .

لكن الذين أخمدوا وأطفأوا هذا الإستعداد وظلوا بعيدين محرومين في هذا العالم من دفقات القدرة الإلهية، ومن خوارق الطبيعة، ومن عاشوا بلهاء وعلى عيونهم غشاوة في عالم العبر والنصائح تلك سيظلون على هذا الحال في الآخرة وفي ذلك تقول الآيات الكريمة:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج، ٤٦)

وتقول الآيات أيضًا:

﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾

(الإسراء، ٧٢)

ومن الضروري أن نَتعلم القرآن الكريم من المعلمين والمعلمات الصالحين والصالحات المملوءة قلوبهم بمحبة الله؛ لأنهم يدفعون المستمعين إليهم بانعكاس حالهم من قلوبهم المضيئة بنور الله تعالى إلى عمق الإحساس والتفكير، وعن طاوس قال سئل النبي ﷺ أي الناس أحسن صوتاً للقرآن وأحسن قراءة قال:

"من إذا سمعته يقرأ أريت انه يخشى الله" (الدارمي، فضائل القرآن، ٣٤)



وعلى العكس من ذلك فإن أي قراءة لا تنزل من الحلق إلى القلب فإنها لا تستطيع أن تحمل الإنسان إلى عمق الإحساس وأفق التفكير القرآني، وفى هذا الشأن يجب أن تصغي السمع إلى ذلك التنبيه النبوي الشريف عندما قال رسول الله ﷺ:

"يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ يَنْظُرُ فِي النَّصْلِ فَلَا يَرَى شَيْئًا وَيَنْظُرُ فِي الْقِدْحِ فَلَا يَرَى شَيْئًا وَيَنْظُرُ فِي الرِّيشِ فَلَا يَرَى شَيْئًا وَيَتَمَارَى فِي الْفُوقِ" (البخاري، فضائل القرآن، ٣٦)

وهكذا وحتى لا ننساق إلى تلك الكارثة، يجب علينا أن نسعى إلى أن ننشغل بالقرآن الكريم أكثر، وأن نلج إلى دنيا التفكير في آياته ونفهم معانيها في قلوبنا ونتدبر أخلاق القرآن الكريم، لأن القرآن الكريم يدعو المؤمن بكل وسيلة إلى الأستعداد للتفكير والشعور الدائمين وفى ذلك تقول الآية الكريمة:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ. بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل، ٤٣-٤٤)

حقيقةً فإن الله تعالى في القرآن الكريم يدعونا -نحن عبيده- إلى التفكير في دلائل وجوده ﷻ، وفى الحكم العميقة التي في النعم التي منحنا إياها الله ﷻ.

ويلفت النظر إلى أن كون البشر من بينها، فهم أصحاب ألسنة وألوان متعددة فيقول ﷻ:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ (الروم، ٢٢)

حقيقةً فإن أي من اللغات التي يتحدث بها بنو البشر لم تتشكل من قبل لجان مختلفة أسستها الأمة التي تتحدث تلك اللغة وليست قواعد اللغة ولا مجموعة الكلمات المستخدمة جهد مشترك.

فبينما بعض اللغات تبدأ الجملة بالفعل، فإنها تبدأ في بعضها الآخر بالفاعل وتنتهي بالفعل. وليست هذه اللغات ترجيحات وتفضيلات محسوسة، بل هي منحة وهبة من الحق ﷻ. وخلق الإنسان في حال متنوعة من الألوان والأعراق المختلفة فضلاً عن أنه منحةٌ إلهية فإنه أيضًا منظومة من الحكم المتنوعة. فالألوان هي نتيجة أحدثتها الجغرافيا، والأعراق هي تجل في الخلقة وهذا الموقف هو من أجل تعارف البشر وتفاهمهم مع بعضهم البعض بسهولة أكثر.

وإلا فليس هناك شيء يُسمى عِرق يتفاضل على الآخر أو عِرق لا قيمة له، فمن كل عِرق يخرج الأشخاص الطيبون ويخرج الأشخاص الأشرار، ولكن المهم أن تكون الغلبة للتقوى والتميز بها وقد بين الحق ﷻ تلك الحقيقة في كتابه العزيز قائلاً:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات، ١٣)



ومن ناحية أخرى فإن الحق ﷻ قد حصر الوحدانية في نفسه وخلق الموجودات كلها في حال أزواج تتكامل مع بعضها البعض. وحياة العائلة التي بدأت في الجنة بآدم وحواء (عليهما السلام) قد انتقلت إلينا نحن أبناء آدم على شكل قانون إزدواج أسسه الله تعالى، وقد تأيد هذا القانون بدين الإسلام حيث يقول الله تعالى:

﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾(الروم، ٢١)

وقد جعل الحق ﷻ البركة في النكاح في أمة محمد ﷺ والزواج تحت ظلال الكتاب والسنة، وقد جعله الله جنة السعادة التي في الحياة الدنيا.

ففي الزواج يوجد كثير من الدروس والحكم الخفية -التي تترك العقول في دهشة وحيرة- من التقاء شخصين غرباء عن بعضهما بشكل يجلب الخير لكليهما. فإرتباط قلوب شابين غريبين عن بعضهما بالرحمة والمحبة التي منَّ الله بها عليهما حتى أنهم يعيشون في جو جذاب بشكل حقيقي لدرجة أنهم ينسون بيوت آبائهم وأمهاتهم -التي نشأوا فيها وتربوا فيها بمجرد أن ينفصلوا عنها ويؤسسوا بيت الزوجية- لهو تجل علوي، ودرس قدسي يستحق التفكير العميق فيه أكثر من أي درس.

والسبب أن بني الإنسان بمقتضى الإمتحان الإلهي هو صاحب فطرة مجادلة مترددة في قبول الحق فإن آيات القرآن الكريم قد



تزينت بالأمثلة المختلفة من أجل أصحاب المسالك والمشارب المتنوعة حتى أن كل شخص ليحصل على نصيب منها تبعاً لحال نفسه. وهذه الحقيقة قد بينتها الآية الكريمة:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ (الكهف، ٥٤)

والقرآن الكريم يلفت انتباه الإنسان إلى المعجزات التي فيه ويدعو إلى التفكير، وتدعو الآية الإنسان أن يفكر في حياته فتقول:

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ﴾ (يس، ٦٨)

وآية أخرى تشير إلى حقيقة أن الإنسان في فطرته؛ الميل إلى الفجور أوالميل إلى التقوى كما يتضح ذلك في قوله تعالى:

﴿وَنَفْس وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس، ٧ –١٠)

وتعرض آية أخرى قدرة الله ﷻ على الإحياء مرة أخرى، وعجز الإنسان مقابل هذا الأمر، والحقيقة الإلهية التي ينتظرها الإنسان في آخرته فتقول الآية:

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس، ٧٧-٧٩)



وآية أخرى تذكر الإنسان -الذي يهرع متعجلاً خلف الزمان- بأن الزمن نسبي وعارض فتقول الآية:

﴿**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا**﴾ (النازعات، ٤٦)

إن كل هذه التوضيحات التي تدعو الإنسان إلى التفكر الدائم توضح أن جهدًا ذهنيًا وعقليًّا كهذا هو ضرورة وأمْر قد أَمَرَ الله به رسوله ﷺ قبل ألف وأربعمائة عام حيث أنه أوضح ذلك ﷺ في حديثه الشريف الذي جاء فيه (فيما معناه):

"**ولا عبادة كالتفكُر**" (البيهقي، شعب الإيمان، ٤/ ١٥٧)

حتى إنه يمكن القول أن هذا الحديث يشير إلى أن التفكُر هو لازمة ضرورية موجودة قبل العبادة. لأن فهم وإدراك أهمية وكُنه الخيرات كالعبادة مثلا يكون ممكنًا فقط بالتفكُر.

ومن المحقق أن التفكير الذي أشارت إلى أهميته آيات كريمة وأحاديث شريفة كثيرة لا حصر لها قبل ألف وأربعمائة عام قد زادت أهميته في عصرنا الحالي نظرًا لتلك الإيضاحات التي ذكرناها في السابق، ومهما قلنا حول وجوب أن نكون أصحاب غيرة وحماسة في أمر الحث على الخير وتبليغ الحق من أجل أن نبرأ بحق من المسئولية، في تلك النقطة مهما قلنا في ذلك فهو قليل.

ومن أهم الأوقات التي يجب على المؤمن إغتنامها هي ليلة النصف من شعبان، فيجب على المؤمنين إحياؤها بكل ما لديهم من شعور قلبي، لأن تلك الليلة هي ليلة الأحكام والتقسيم، ففي



تلك الليلة يُكتب من سيولد في هذه السنة ومن سيموت، وتُوزع فيها الأرزاق وتُرفع فيها الأعمال إلى الحضرة الإلهية وفى ذلك يقول رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

"إِذَا كَانَتْ لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ فَقُومُوا لَيْلَهَا وَصُومُوا نَهَارَهَا فَإِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ فِيهَا لِغُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ أَلَا مِنْ مُسْتَغْفِرٍ لِي فَأَغْفِرَ لَهُ أَلَا مُسْتَرْزِقٌ فَأَرْزُقَهُ أَلَا مُبْتَلًى فَأُعَافِيَهُ أَلَا كَذَا أَلَا كَذَا حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ" (ابن ماجه، إقامة الصلاة، ١٩١)

ويمكن القول بأن الله تعالى يفتح أبواب الرحمة والإحسان والإجابة حتى يبزغ فجر تلك الليلة. (صادف كتابة هذه الأسطر بداية النصف من شعبان)

وما أجمل البُشرى النبوية! والبشارة المحمدية التي أكسبت المؤمنين الذين يحيون ليلة النصف من شعبان بالصلاة ويحيون نهارها بالصيام قيمة إستثنائية. لذا يجب علينا أن نسعى إلى إحياء تلك الليلة بتلاوة القرآن الكريم والذكر والتسبيح والصلوات الشريفة والجلسات الروحانية إضافةً إلى الصلاة.

ويلزم أن نعتني ونهتم بالأيام والليالي التي تعقب ليلة النصف من شعبان، لأنها بمثابة دعوة مقدسة لشهر رمضان المعظم الذي هو منبع النور، ويلزم أن نزيد من روحانية مشاعرنا القلبية بسعادة رمضان، وأن نكثر من فعل الحسنات الطيبات، وأن نزيد محبتنا الإيمانية وقربنا من الله ﷻ.



ويلزم أن نؤدي صلواتنا وبخاصة في جو وجداني وفى توازن روحي بين القلب والبدن، لأن الصلاة هي لقاء علوي للعبد مع ربه فقد جاء شخص يسأل رسول الله ﷺ قائلاً: يا رسول الله علمني وأوجز، قَالَ:

"إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ وَلَا تَكَلَّمْ بِكَلَامٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ وَأَجْمِعْ الْيَأْسَ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ" (ابن ماجه: الزهد،١٥)

فالمؤمن عندما يقيم الصلاة عليه أن يسعى جاهدًا إلى إكتساب الفضائل والحسنات كلها، ويجب عليه أن يحذر أن يضيع تلك النعمة الإلهية، لأن رسول الله ﷺ قد قال في حديثه الشريف:

"إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلاَّ عُشْرُ صَلاتِهِ تُسْعُهَا ثُمُنُهَا سُبُعُهَا سُدُسُهَا خُمُسُهَا رُبُعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا" (أبو داود، الصلاة، 123، 124)

والحاصل أنه يلزم علينا أن نوضح تلك الأمور، لأن سحائب الرحمّة والبركة قد أهلّت علينا بقدوم هذا الشهر الكريم -الذي يأتي بعد أيام معدودات- وهي أن القرآن الكريم الذي نزل في رمضان قد أُنزل من أجل أن نعيش حياة رمضانية طويلة تمتد حتى يوم القيامة.

فرمضان والقرآن هما محضن تربوي عملي وحياتي دائم. وفي ذلك تقول الآية الكريمة:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ



فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة، ١٨٥)

وفي تلك الآية الكريمة بعد أن تبين أن القرآن هو مُرشد نوراني مملوء ببراهين الهداية ودلائل الحكمة أمر كل من يشهد هذا الشهر أن يصومه وفق معايير القرآن التربوية.

ومن اللازم عدم نسيان أنه لا يكفي أن نسمع صدى تلاوة القرآن بآذاننا فقط، وأن نمر على حقائقه بعيوننا مرور الكرام، بل يجب أن نصغي إلى أوامره المباركة التي توضح لنا طرق النجاة في الحياة الدنيا والخلود في الجنة بآذان القلب وعيون العقل. وذلك لأن المؤمن هو شخص يدخل إلى محراب النفس القاسي مسلحًا بروحانية القرآن الكريم ليواجه هجمات الشهوة والنفس.

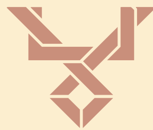
فيا رب اجعل لنا نصيبًا أن نحيا حياة القرآن والجنة بعمق الأِحساس في هذا الشهر المبارك، واجعل القرآن الكريم والإيمان حجة لنا لا حجة علينا، واجعل صيامنا له رحمةً وسحورنا فيه بركةً وإفطارنا فيه لحظة الوصول إليك. اللهم آمين...

التوبة ودموع العين



تُب وادع بعيون دامعة وقلب مملوء بنار الندم، لأن
الأزهار تتفتح فقط في الأماكن المُشمسة والمُبتلة

مولانا جلال الدين الرومي.



التوبة ودموع العين

ذات يوم سأل حائك أحد الصالحين عن معنى حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه:

"إن الله تعالى ليقبل توبة العبد ما لم يغرغر" (ابن ماجه، الزهد، ٣٠)

فسأله هذا الرجل الصالح:

"نعم هو كما قال رسول الله ﷺ. هل لي أن أعرف ما مهنتك؟"

فقال له: أنا حائك أخيط الملابس.

فسأله: ما أسهل شيء في الحياكة؟

فقال له: قص القماش.

فسأله: منذ كم سنة وأنت تعمل في هذا العمل؟

فقال له: منذ تسع سنين.

فسأله: عندما تبلغ الروح الحلقوم، هل تستطيع قص القماش؟

فقال له: كلا ... لا أستطيع.

فقال له الرجل الصالح: أيها الحائك إذا كنت لا تستطيع أن تعمل عملاً كنت تعمله وتمارسه وتتقنه لتسع سنوات، فكيف



يمكن عند لحظة الموت أن تقوم بالتوبة التي لم تعملها ولا مرة في عمرك؟!! فتُب اليوم وأنت في حال القوة، وإلا فلن يكون لك نصيب عند الإحتضار من الاِستغفار وحسن الخاتمة، ألم تسمع تلك الكلمة أبداً:

"**عجلوا بالتوبة قبل الموت**" وعند ذلك غَلف التوبة بالإخلاص. عندها أصبح الحائك أيضاً من الصالحين.

ومثلما رأينا في هذه القصة فإن مزالق الشهوة والدنيا المتنوعة التي تُعرض للعباد رغم خطورتها إلا أن أخطرها - بشكل حقيقي- هو تأخير التوبة باستمرار ، بينما التوبة هي طوق نجاة الروح طوال عمرنا، قال قتادة: إن القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم أما داؤكم فذنوبكم وأما دواؤكم فالاِستغفار.(١)

لأن الاِستغفار -الذي له مكانة مهمة في التوجه إلى الله تعالى وإكساب القلب مستوى علوي- هو الوسيلة الوحيدة للتخلص من الأدران المعنوية. والتوبة التي ترفع الحُجب والعوائق التي بين العبد وربه مهمة إلى أقصى درجة من أجل نجاح الأعمال الصالحة، لذلك يجب إلغاء الأمور التي تمنع الوصول إلى الهدف، وهكذا يتحول القلب إلى عامل مساعد لهذه الغاية النبيلة.

وبهذا السبب فإن طرق التصوف كلها تبدأ بالاِستغفار والأوراد

(١) انظر: البيهقي، شعب الايمان، ٥/ ٤٢٧



التي في الأسحار من أجل التكامل الروحي.

والتوبة الأولى بدأت أول ما بدأت من سيدنا آدم عليه السلام، وفي تلك التوبة دعا ربه تعالى:

﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾(الأعراف، ٢٣)

وقد أصبح هذا الدعاء نموذجًا للاِستغفار لذريته التي ستأتي من بعده حتى يوم القيامة.

ويُقَسِّم أهل الله التوبة إلى ثلاثة أنواع:

١- توبة العوام وهؤلاء يتوبون من ذنوبهم.

٢- توبة الخواص (الصفوة) وهؤلاء يتوبون عن الغفلة.

٣- توبة خواص الخواص وهؤلاء يتوبون لكي ينالوا القرب أكثر إلى الله تعالى.

لكن الإخلاص والصدق هما شرطان لازمان في كل عمل صالح. وهكذا فإن كثيراً من أهل الله كانوا يتوبون عن التوبة التي يتوبونها، أي أنه توجد ضرورة أن نستَعِيذ بالله تعالى من التوبات التي تحتاج إلى التوبة، وأن ننال سر "تَوْبَةً نَّصُوحاً" التي ذُكرت في الآيات، لأن النفس والشيطان عندما لا يجدان طريقًا لخطف القلب يظهران في صورة الحق ويصبح كل منهما معلمًا يرشد هذه المرة إلى الجمال والخير. وهكذا يسقط العبد في حبائلهما ويضيع توبته



ويجعلها هباءً منثورًا، بينما النكوص عن التوبة دون توقف هي آفة تجعل الآخرة سوادًا، يقول الله تعالى:

﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ (الإسراء، ٨)

لأن الشخص الذي يُفسد توبته دون توقف يصبح مسخرة للشيطان، فضلاً عن ذلك فإنه لو تاب في أي وقت فإن الشيطان أو الغافلين الذين أصبحوا شياطين له يفسدون توبته هذه المرة من جديد بقولهم: «وآسفاه عليك، واحزناه عليك».

ومن أجل ذلك تقول الآيات الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم، ٨)

والشاعر **رحمتي** ينبه القلوب التي توجهت إلى التوبة بتلك الحقيقة فيقول:

عندما ينطق اللسان بالاِستغفار عدة مرات

وان كان القلب في غفلة فالنفس تغرق في ألف دهليز ودهليز

وقد ذُكر في كتاب الحديث «الجامع الصغير» أمر يستوجب



الدهشة في موضوع التوبة، وهو أن الملك المُكلف بكتابة السيئات لا يكتب الذنب على المذنب إلا بعد مضي ست ساعات، وهو ينتظر طوال تلك المدة لعل المذنب يتوب. ولهذا السبب لا يجب القول: «إنني لم أستطع أن أحافظ على توبتي واقترفت الذنب مرة أخرى، ولهذا السبب يلزم ألا أتوب».

بل يجب على المُذنب الاِستغفار الدائم، لأن الله تعالى قد ينعم عليه ولا تفسد توبته مرة أخرى، ولكن يجب أن نعلم أن التوبة تتحقق بالندم الشديد عند طلب العفو، والعزم على عدم ارتكاب هذا الذنب مرة أخرى. ومن أجل ذلك فقد نبه الحق ﷻ إلى ذلك في كتابه الكريم فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الغَرُورُ﴾ (لقمان، ٣٣)

وهذا الحديث الشريف لرسول الله ﷺ الذي يقول فيه:

"يَا عَائِشَةُ إِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ فَإِنَّ التَّوْبَةَ مِنَ الذَّنْبِ النَّدَمُ وَالاِسْتِغْفَارُ" (أحمد، المسند، جـ٦، ٢٦٤) يشير إلى توبة لا يعقبها التفكير في الذنب مرة أخرى.

وهذا الحديث الشريف يوضح ضرورة أن تبدأ التوبة بالندم ويُقال إن أدران هذا الذنب تطهرها دموع العين الحارة. فيُروى أن



أحد المذنبين بعد أن تاب وندم أُعطيت له قائمة بالذنوب التي اقترفها وقيل له: "اقرأ هذا". فبكى هذا المُذنب المُجرم في حق نفسه أمام تلك الأعمال ولم يعد يستطيع أن يرى ذنوبه التي في تلك القائمة بسبب دموع عينه، وفى النهاية فإن هذه الدموع الحارة الحقيقية غسلت ذنوبه كلها وطهرته، وهكذا عفي عن هذا المُذنب.

وعلى هذا النحو فَرُب ذنب يتطلب ألف دمعة لتمسحه، ورُب دمعة واحدة تمسح ألف ذنب، لأن دمع العين هو عين ماء التوبة للداخلين إلى بستان المحبة الإلهية، وهو يطهر الذنوب ويمسحها، وهو تعبير عن الشكر تجاه الرب ﷻ. ودمع العين هو دار الأمل في الله ﷻ، والسعداء الحقيقيون هم الذين يستطيعون البكاء على عتبة تلك الدار في اللحظة التي تنقطع فيها الآمال كلها.

وكل دمعة من تلك الدمعات للذين يشاهدون العالم بدموع حارة تشبه مرايا تعرض ألف محيط ومحيط في صدرها، لأن كل ذرة فيها تعظيم وإكبار للأسرار الإلهية. وصفحات الحكمة التي يمكن أن تُقرأ كثيرًا تُقرأ بتلك الدموع. لأن دمع العين هو لسان يعبر ويحمل معانٍ لن تستطيع أن تحملها الكلمات، لأن العبد بهذا يريد أن يطلب من الرب تعالى أشياء لن تستطيع نفسه أن تتخيلها. ومن أجل ذلك فإن العشق يجد العزاء والسلوى عند عين ماء الدمع، ويستريح الغرباء البؤساء على شاطئها.

وما أجمل تلك القصة التي توضح قيمة دمعة سُكبت من العين



لله تعالى، فذات يوم كان الجنيد البغدادي -قدس سره- يسير في طريقه فرأى كأن الملائكة تنزل بشيء من السماء، وبلهفة تستخرج شيئًا من الأرض فسأل واحدًا منهم: ما الشيء الذي تخرجونه من الأرض؟ فأجابه الملك قائلاً:

"بينما كان يمر من هنا حبيب للحق خرجت منه لفظة (آه) بإشتياق وسُكبت من عينيه عدة دمعات، ونحن نستخرج تلك الدمعات قائلين لينال رحمة الله تعالى ومغفرته بهذه الوسيلة".

ويقول الحديث الشريف:

"عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" (الترمذي، فضائل الجهاد، ١٢)

وقد تحدث مولانا جلال الدين-قدس سره- عن المياه التي تتسخ ثم تتبخر بعد ذلك وتعود مرة أخرى لتسقط على وجه الأرض نقية نافعة كمثال على كيفية تطهير الذنوب بالتوبة وبدموع العين فقال: "عندما ينفد الصفاء والنقاء أي عندما يتعكر الماء ويتلوث بالطين، ويصبح الماء بالنسبة لنا مصدرًا للقلق على الأرض بسبب تلوثه، ويُصاب الناس بالحيرة والدهشة، ويبدأ الناس بالأِستغاثة والأِبتهال والدعاء للحق وعقب تلك الأِستغاثات والأِبتهالات يتبخر الماء ويصعد إلى السماء ويمر هناك بطرق متنوعة حتى يتطهر تماماً، وبعد ذلك ينزل إلى الأرض مطرًا أو ثلجًا، وبعد ذلك يصل إلى بحر واسع لا شاطئ له".



وبلا شك فإن تلك الأمثلة توضح مدى المحبة والرحمة التي يظهرها الرب ﷻ تجاه عبيده المُذنبين الذين يسعون إلى النجاة، فلو توفرت شمس الندم مع ماء التوبة في الأشخاص الذين تلوثت قلوبهم بأدران الذنب، فإن الحق ﷻ يأخذ تلك القلوب إلى السموات، ويطهرها من التراب والطين ومن أدران الشهوة كلها. ومرة أخرى ينعم الله تعالى على الإنسان أشرف مخلوقاته بالرحمة، وهذا المعنى يتحقق ويتجلى في أوسع صورة له في الصلاة، ذلك أن الصلاة التي تُؤدى على أكمل وجه هي **"معراج المؤمنين"**.

ولأن الإنسان كثيراً ما يغفل عن تلك الحقيقة وتلهيه الدنيا ويضحك بدلاً من أن يبكى حتى يختنق من كثرة الضحك، لذا نجد الحق ﷻ يقول في كتابه الكريم:

﴿**وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ. وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ**﴾ (النجم، ٦٠-٦١)

ويقول لرسوله الكريم ﷺ مخبرًا عن حال هؤلاء :

﴿**فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ (التوبة، ٨٢).

أي أن الله تعالى يريد من عبده تطهير الذنوب بالتوبة ودمع العين، وفى هذا المعنى يحكي مولانا جلال الدين -قدس سره- عن أهمية دمع العين فيقول: «عندما تبكي الشمعة وتذرف دمع العين تنير أكثر، وغصن الشجرة يخضر ويتجدد ببركة السحب التي تبكي وبحرارة الشمس، أي أن الحرارة والماء لازمين لنمو الثمر».

«ومثل هذا تمامًا فإن السُحب والبرق ضرورية من أجل قبول التوبة أي دمع العين وحُرقة القلب».

«فلو لم تقدح شرارة القلب ولو لم تسكب سُحب العين مطرها، فكيف تطفئ نار غضب النفس لهب الذنب؟ وكيف ينبثق فيض الوصول إلى بريق نور التجلي الإلهي في القلب؟ وكيف تفور وتتدفق منابع الروح والمعاني؟»

«ولو لم تهطل الأمطار. فكيف ستبوح حديقة الورد بالسر إلى العشب الأخضر؟ وكيف يتعاهد البنفسج مع الياسمين؟»

«فاترك الطبيعة ولتبك مرارًا وتكرارًا ، فهذه الأراضي عندما تنفصل عن الماء تتحول إلى أرض سبخة، والمياه التي تسقط بعيدًا وتبقى منفصلة عن الأنهار والجداول تفسد وتتلوث و تأسن»

«والحدائق والغابات شديدة الخضرة مثل الجنة عندما تُحرم من الماء تصفر وتذبل وتجف أوراقها وتتساقط وتصبح وطنًا ومكانًا للمرض. والإنسان كذلك».

ومن أجل أن نحمي أنفسنا من تلك الحال فلابد أن نكون مثل سيدنا شعيب عليه السلام الذي عميت عيناه من البكاء، ورسول الله ﷺ يقول في حديثه الشريف:

"لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا" (البخاري، تفسير، ٥/ ١٢)



لذلك فإن جنود القلب التي تنظف وتطهر الجراح التي تتكون في القلب من الذنوب طوال العمر بدموع العين يمكن أن تجعل تلك القلوب من القلوب العاشقة التي تستطيع أن تدخل إلى جنة العفو. ومن ذلك فإن الأنبياء والأولياء والصالحين والصادقين كلهم كانوا يلجؤن إلى الله تعالى دائمًا في الضيق والسعة والحزن والفرح وهم في حال مناجاة وحُرقة دائمين.

لأنه لا يمكن تصور أن هناك عبدًا يستطيع الإستغناء عن الإستغفار والتوبة، لأن وجود الزلات التي تتحقق بشكل لا إرادي هو أمر موجود حتى في الأنبياء (عليهم السلام). فالتوبة والاِستغفار هما أكثر الوسائل تأثيراً في القرب إلى الله تعالى، لأنهما يشكلان شعورًا بندم واستعاذة داخلية صادقة خالصة.

ومن ناحية أخرى فإن التوبة ودموع العين التي يريدهما الحق ﷻ من عباده بالمحن والشدائد التي يبتلى بها عباده هي تجارة أبدية. وإن الذين يختارون تجارة رابحة -كتلك التجارة- لا يشتكون أبدًا من أية مصيبة، لأنهم يعلمون أنهم سيفوزون فوزًا عظيمًا أبديًا. وقد عبر مولانا جلال الدين-قدس سره- كواحد منهم عن هذا أجمل تعبير فقال: «إن الله تعالى يأخذ منك عدة دمعات في هذه الدنيا، ولكن في مقابل هذا ينعم عليك بأنهار كثيرة في الجنة. وهو يأخذ منك استغاثات وآهات مملوءة بالمحبة والألم، وفى مقابل كل آهة وكل استغاثة يعطيك مئات من المراتب العالية المعنوية ومقامات لا يمكن الوصول إليها».



لكن يجب أن نعلم أن الدموع كلها ليست سواء ، بل توجد فروق كثيرة فيما بينها، فكثير من التأوهات الكاذبة الباردة المصطنعة هي تعبير عن الغفلة والاِنخداع، يقول سفيان الثوري -قدس سره-:

«البكاء عشرة أقسام، تسعة منها رياء، وواحد فقط منها لله تعالى. وبكاء كهذا من أجل الله تعالى يكون وسيلة بإذن الله لخلاص العبد من جهنم».

ويُروى أن امرأة جاءت باكية تشكو زوجها إلى القاضي شريح، وكان الشعبي حاضرًا فقال:

«يا أمية، أظن أن تلك المرأة مظلومة، أفلا ترى كيف تبكى؟!»

وعند ذلك قال القاضي شريح:

«يا شعبي، لقد جاء أخوة يوسف إلى أبيهم يبكون وهم ظالمون، فلن يكون حكمك صحيحًا لو نظرت إلى هذه الدموع».

ومن المؤكد أن دموعًا كتلك مردودة ، والبكاء الذي يفيد الذلة والمسكنة هو بكاء آخر كريه، ودموع الأشخاص الخاسرين الذين لم تعرق جباههم هي دموع فارغة غير مفيدة. وفى شأن هذه الدموع يقول الشاعر التركي المرحوم محمد عاكف:

يا ناس اتركوا الحـزن، اتركوا التـأوه

لو كان يفيد البكاء لنهض أبي من قبـره

فما الفائدة من الدموع إذا لم يسل العرق



إن الدمع والبكاء الذي يريده الله تعالى ليس دمعًا يحط من قدرنا أمام الصديق أو العدو، بل على العكس هو دمع يرفعنا إلى عنان السموات ويُحْيِي القلب. فكما أن البحار الواسعة تحمل فيها كثيرًا من الزبد والغثاء والقذى، وكما حفظتها من الغرق في الأعماق فيجب أن تكون دموعنا نحن من قبيل المياه التي تحمينا وتحفظنا من الغرق وتحملنا فوقها لتوصلنا إلى المنزل المقصود. وهذه الدموع تكون عبارة عن قطرات تسيل من القلب أكثر من العين وتعرض على الحق تعالى وليس على الخلق.

وهناك مسألة هامة أخرى بشأن البكاء هي: أنه يجب ألا يكون هذا البكاء بكاء شكوى، لأن الشكوى تنم عن حال عدم الرِضى وهذا ليس مقبولاً في الأساس. لأن الشكوى تحمل الإنسانَ إلى العصيان وتمحو رأس ماله كله الذي في يده، وهذا يجلب غضب الرب ﷻ. أما البكاء الذي نقصده نحن فليس يجلب الغضب، بل هو فكر يَسُرُّ الحبيب والصديق ووسيلة تطهر من أدران الذنب.

والحاصل أنه عندما يأتي الموت يستيقظ النائمون أي يفتحون عيونهم ويرون الحقيقة. ولكن ليست هناك أية فائدة تُرجى من رؤية الحقيقة عند النفس الأخير تمامًا مثلما لم تنفع فرعون. وما أجمل قول مولانا جلال الدين-قدس سره-: «إن العقلاء يبكون قبل الموت، أما الجهلاء فيتأسفون ويضربون رؤوسهم في نهاية العمل، فشاهد نهايتك في بداية العمل، ولا تكن من النادمين يوم القيامة».



وليكن حال الطائر في تلك القصة عبرة لك، فقد رأى الطائر حبات القمح في شبكة الصياد فاندهش وتحير وتحول إلى حال لم يستعمل فيه عقله، وهكذا أكل القمح بشكل لا إرادي ولكنه سقط في الفخ. فهذه المرة كم قرأت سورة يس وكم قرأت سورة الأنعام لتخلص رأسك من الألم، ولكن ما الفائدة؟ وبعد أن جاء البلاء واشتد فما فائدة البكاء والتأوه والإستغاثة والشكوى؟ فهذا التأوه والشكوى والإستغاثة كانت واجبة قبل السقوط في الفخ.

فمثلاً سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما سمع أن قوم لوط سيهلكون بسبب شهواتهم الحيوانية التي جلبت لهم الأنتقام الإلهي، أراد أن يدعو لهم بالرحمة بسبب جهلهم بحجم تلك المعصية، فقالت له الملائكة: "لقد مضى وقت الدعاء".

فالموت على مراد الله تعالى ليس معلومًا لنا أين ولا متى ولا كيف سيأتي؟ ومن أجل ذلك فمن الضروري أن نمزج القلوب بسر «**موتوا قبل أن تموتوا**»، وأن نتجهز في كل لحظة لملاقاة الرب عز وجل. أما عكس تلك الحال عندها تكون الأنفاس الأخيرة لحظة خسران مليئة بالاِستغاثات والتأوهات تقول عندها: «آه. هكذا. إلى أين؟!»

وتقول الآية الكريمة:

﴿**وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ**﴾ (ق، ١٩)

وعلى هذا فإن أهم قضية للعبد هي تزكية النفْس، وتصفية القلب، وكل ما ذكرناه حتى الآن عن التوبة ودمع العين هو بمثابة



باب فقط لنيل هذه الحال. وبعد أن نلج من هذا الباب يجب أن نحيي الأعمال الصالحة كلها. وعقب أداء الفرض الواجب والسنن يجب على المرء أن يتحلى بالجماليات قبل أداء حق العباد وحق الوالدين، والإنفاق في سبيل الله تعالى، والرحمة بالمخلوقات كلها، والشفقة والعفو. فمثلاً إن الذين ارتبطوا بمزية العفو من هذه الجماليات يليقونَ أكثر بالعفو الإلهي، لأن الذين حرموا من المحبة والرحمة ولم تصغ قلوبهم لإستغاثات «**لترحمونا**» فهم عابروا الحياة الحيارى المحزونون المهزومون.

ومن أجل ذلك يجب على القلوب أن تتوجه إلى الرب تعالى متمسكةً بجماليات السلوك كلها في جو من التوبة والبكاء، ومما لاشك فيه إن هذا التوجه يجب أن يحتوي كل لحظات العمر. ومع هذا فإن بعض الأزمنة الإستثنائية هي موسم ربح مختلف تمامًا بالنسبة للعباد. فمن بين مواسم الربيع الأخرى يوجد موسم ربيع معنوي يمنح العباد الجمال والقيمة.

وأعلى مواسم الربيع تلك هو شهر رمضان المبارك الذي فيه ليلة خير من ألف شهر وهى ليلة القدر التي نزل فيها القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ليغمر النور الدنيا والبشر جميعَهم. ومثل هذا الشهر المبارك، وتلك الليلة العظيمة هي بدر منير يضئ القلوب التي أظلمت بالنور والضياء، وهي نافذة تفتح من السماء على الأرض للعروج والوصول. ومن هذه الناحية يجب



على المؤمنين إيقاظ القلب وأن يملأوا أعمارهم كلها بالبركة والنور الذي يأخذونه من هذا الشهر الكريم، لأن القيامة بالنسبة للقلوب المزينة بحياة كتلك الحياة لن تكون يوم حسرة وندامة، بل هي تقريبًا صباح يوم عيد.

فيا ربنا اجعل لنا جميعًا صباح يوم عيد كهذا، واجعلنا ننال الرحمة والمغفرة الإلهية بالعشق والوجد ودموع العين الحقيقية . آمين...

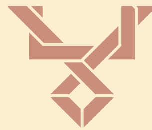




الدعاء



كلما يتكرر الدعاء يُنقش على روح المؤمن كمشاعر وأحاسيس داخلية، ويمتزج بالشخصية، ويتحول إلى خصوصية له، ولهذا السبب فإن الأرواح العالية تعيش دائمًا في حال الدعاء



الدعاء

إن أولياء الحق والأنبياء جميعهم الذين أُرسلوا رحمة للعالمين كانوا يتوجهون بقلوبهم دائمًا نحو الله تعالى في الضيق والسعة وفي السراء والضراء، وكانوا يعيشون في جو من الدعاء والرجاء والتوسل. وهؤلاء كانوا قدوة أبدية نتعلم من أحوالهم وتصرفاتهم، وسلوكهم وضرورة أن نكون في حال دعاء إلى الله تعالى في كل وقت وكل حال.

إن الدعاء والاِستغاثة بالله تعالى قانون فطري ومتطلب عبودي وكل شيء في السموات والأرض هو في حال إنقياد وطاعة للتقدير الإلهي، وذكر وتضرع ودعاء له ﷻ صاحب القدرة اللامحدودة. والتربية الدينية الحقيقية تهدف دائمًا إلى أن تغرس حال الدعاء في روح المؤمن، لأن الدعاء هو مفتاح أعظم باب يُفتح فيه القلب على الله تعالى.

فعندما يتكرر الدعاء يُنقش على روح المؤمن مشاعر وأحاسيس داخلية، ويمتزج بالشخصية، ويتحول إلى خصوصية له. ولهذا



السبب فإن الأرواح العالية تعيش دائمًا في حال الدعاء، لأن قلوبهم في حالة اندهاش وخوف من ذلك التنبيه الإلهي الذي جاءت به الآية الكريمة عن أهمية تواصل الدعاء في قوله تعالى:

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾(الفرقان، ٧٧)

وهكذا فإن تحول مشاعر التوسل بالدعاء إلى الرب تعالى في روح أي مؤمن إلى حال دائم يؤسس رابطة معنوية بين الله تعالى والعبد، أما الدعوات في حال الوجد فهي لحظات احتضان القلب بالرحمة الإلهية.

والمطلوب في الدعاء هو الرحمة والمرحمة الإلهية، وعلى هذا النحو فإن أول تعبيرات ترتفع في الدعاء من القلوب إلى العَتَبات الإلهية يجب أن تكون الأِعتراف بالعصيان والذنب والضعف والعجز. والدعاء هو التوجه إلى الحق ﷻ صاحب القدرة اللامحدودة بشكل يبين عجزنا وانحناء الرأس في سكون وتسليم في حضرته ﷻ.

حقيقةً فإن البداية هي الأِعتراف بالقصور، والعجز في الدعاء يُحْرز ويجعل تأثيراً كبيراً في طلب الرحمة الإلهية، وفى قبول الدعاء بالتبعية. فمثلاً آدم وحواء (عليهما السلام) قد توجها إلى الله تعالى بالدعاء كما أخبرتنا الآية الكريمة:

﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف، ٢٣)



وفي آية أخرى لجأ يونس عليه السلام إلى ربه تعالى ودعاه فقال:

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(الأنبياء، ٨٧)

وذلك الدعاء الذي دعا به السلطان العثماني مراد الأول -الذي حكم العالم- في بدايات معركة كوسوفا الأولى(منطقة في البلقان) هو نموذج من أعظم نماذج إستجلاب بركة الدعاء الذي يتم فيه الأعتراف بعجزه وضعفه حيث قال متضرعا الى العلي القدير عز وجل:

«إلهى المُلك لك وهذا العبد لك، أنا عبد ضعيف عاجز، وأنت أعلم العالمين بأسراري ونيتي، تعلم أن مقصدي ليس المال والملك، وإنما أرجو رضاك وحده ، يا إلهي لا تهزم جندك المؤمنين على يد الكافرين، وأنعم عليهم بنصر من عندك ليكون عيدًا للمسلمين جميعهم، ولو رغبت وطلبت وأردت فليكن عبدك مراد هذا قربانًا في يوم العيد هذا».

وعقب هذا الدعاء الحار سكنت العاصفة التي تتابعت حتى تلك اللحظة، وعقب حرب دامية استمرت ثماني ساعات ضد جيش يزيد بضعفين أو بثلاثة أضعاف جيش السلطان مراد تحقق النصر في النهاية لجيش السلطان.

وبينما كان السلطان مراد يتفقد أحوال الجرحى ويتأمل حالتهم طعنه جريح صربي بخنجر كان يخفيه، وذاق مراد طعم الشهادة، وهكذا قُبل دعاؤه كاملاً.



إن الدعوات الحارة الحقيقية التي هي أجمل كلمات الأرواح العالية تولد من النور والعشق، وتعطي الحياة الأمل، وتعزي وتواسى القلوب المكلومة. والأدعية التي تتم بالإخلاص والصدق ودمع العين هي دعوة وطلب للرحمة الإلهية، والذي يمنح الخشوع للقلب في الدعاء هو إخفاء سر التسليم إلى الرب تعالى.

وأجمل من علمنا الدعاء بحياته سيدنا رسول الله ﷺ، فكثيراً ما كان عليه السلام يدعو في صلاته التي يؤديها حتى تتورم قدماه، والدموع تبلل لحيته الشريفة، ويلتجئ إلى الله تعالى مُقرًّا بعجزه وضعفه فيقول:

"اللهم أعوذ برضاك من سخطك. وبمعافاتك من عقوبتك. وأعوذ بك منك. لا أحصي ثناء عليك. أنت كما أثنيت على نفسك" (مسلم، الصلاة، ٢٢٢)

وقد وصف الرسول ﷺ الدعاء في أحاديث أخرى فقال فيما معناه: **"الدعاء هو العبادة"** (ابو داود، الوتر، ٢٣/ ١٤٧٩)

وقال أيضًا: **"الدعاء مخ العبادة"** (الترمذي، الدعوات، ١/ ٣٣٧١)

وقال أيضًا: **"ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء"**(الترمذي، الدعوات، ١/ ٣٣٧٠)

وقال أيضًا: "من لا يدعو الله يغضب عليه" (الحاكم، المستدرك، ١، ٦٦٧/ ١٨٠٦)

وقال أيضًا: **"من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب فليكثر الدعاء في الرخاء"** (الترمذي، الدعوات، ٩/ ٣٣٨١)

وقال أيضًا: **"إن ربكم تبارك وتعالى حيٌّ كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرا"** (ابو داود، الوتر، ٢٣/ ١٤٨٨)

وقال أيضًا: **"من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة وما سئل الله شيئا يعطى أحب إليه من أن يسأل العافية وقال رسول الله ﷺ: إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء"**(الترمذي، الدعوات، ١٠١/ ٣٥٤٨)

وقال أيضًا: **"الدعاء سلاح المؤمن و عماد الدين و نور السماوات و الأرض"** (الحاكم، المستدرك، ١، ٦٦٩/ ١٨١٢)

والواقع أن الذين يضحكون في وجوه اليتامى المتألمين، ويمنحون السكينة للبشر التعساء يكون دعاؤهم مقبولاً أكثر من البشر الذين يظلمون الناس، ويحتقرون الضعفاء ويعيشون حياة الغفلة.

وفى الحقيقة فإن دعاء عاشقي الحق الذين يذرفون دموعهم من قلوبهم دون توقف طلبًا لمغفرة الذنوب يكون دعاؤهم أهلاً للقبول والاِستجابة، وليس دعاء المتكبرين الذين يرون أنفسهم بلا ذنب أو جريرة.

ويتحدث مولانا جلال الدين-قدس سره- عن قبول الدعاء فيقول: «ادع وتُب بقلب مملوء بنار الندامة وعيون دامعة، لأن الأزهار تتفتح في الأماكن المشمسة الرطبة»



وعلى هذا فإنه لا يكفي لقبول الدعاء أن تعبر عنه بلسانك فقط، بل يجب أن تسعى لأن يكون الدعاء بين "**الخوف والرجاء**" ويجب أن يرتعد القلب ويرتجف بالمعاني التي يحملها الدعاء، وفى نفس الوقت يجب أن يحمل الدعاء عزمًا وتصميمًا أكيدًا على عدم ارتكاب الذنب مرة أخرى إذا أُريد لهذا الذنب أن يُغفر.

ويُروى أن سيدنا موسى عليه السلام صادف رجلاً يدعو ربه في ذلةٍ وتواضع فخطر على قلبه أن دعاء هذا الرجل جدير بالقبول نظرًا لحالته الظاهرة، وفى تلك الأثناء أوحى الله سبحانه وتعالى إلى سيدنا موسى عليه السلام:

"أنا أرحم منك بعبدي ولكنه يدعوني بلسانه فقط، أما قلبه فعند قطيع الأغنام التي يملكها" (الترمذي، البر، ٥٠/ ١٩٨٠)

وعندما أخبر سيدنا موسى عليه السلام ذلك الرجل بهذا الأمر جمع الرجل شمله في الحال وتوجه إلى الله تعالى بقلب خالص.

ومن ناحية أخرى فإن الدعاء الذي يتم بظهر الغيب لأخيك في الدين يُستجاب بسرعة. وفى هذا يقول رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم:

"مَا دَعْوَةٌ أَسْرَعَ إِجَابَةً مِنْ دَعْوَةِ غَائِبٍ لِغَائِبٍ" (الترمذي، البر٥٠)

ويُطلب الدعاء من الأشخاص الذين يُظن أن دعاءهم سيُقبل. وهكذا فإن السبب الحقيقي الذي يضمن قبول الدعاء هو الإخلاص والصدق. ويمكن القول بأن دعاء صدر من قلب مذنب لأخيه المؤمن -لكن بشكل صادق- خير من دعاء بلا روح ولا قلب صدر

عن فرد يظن أن مكانه عند الله تعالى أعلى من الآخرين. ولعل تلك الأِستغاثة والدعاء التي صدرت عن قلب مولانا جلال الدين الرومي -الذي كان قلبه بحرًا للشفقة والرحمة- هي استغاثة مانعة جامعة إذ يقول:

«يا ربّ لو كان يأمل في رحمتك الصالحون فقط، فلمن يلجأ المجرمون العصاة؟ يا إلهي العظيم لو قبلت عبادك الخواص فقط، فلمن يذهب المجرمون ويتضرعون؟»

حقيقةً فإن أي عبد -حتى ولو كان مذنبًا- لا يجب عليه أن يترك حال الدعاء أبدًا إلى الله ﷻ، لأن الله تعالى وحده هو الذي يعلم بدعاء من سيصل الإنسان إلى مراده.

ولهذا السبب يجب على الإنسان -مهما كان- أن يدرك قيمة أن يستطيع أن ينال دعوات قلبية من واحد من عباد الله تعالى الصالحين.

فذات يوم صادف معروف الكرخي سقاءً في السوق، وكان السقاء ينادى قائلاً: "اشربوا من مائي لتنالوا رضاء الله سبحانه وتعالى". فأخذ الشيخ معروف الكرخي الماء من هذا الرجل وشرب مع أنه كان صائمًا صيام نَفْل وذلك لينال حظًّا من دعاء هذا السقاء، وبعد أن توفي معروف الكرخى رآه أحد أولاده في المنام في مكان جميل، فسأله: بأي عمل أعطاك الله تعالى تلك المكانة الجميلة وأكرمك ؟ فقال: "بدعاء السقاء الذي أدرك رضاء الله تعالى".



وهناك مسألة على غاية من الأهمية وهي أنه مثلما نطلب الدعاء من المظلومين ومن المؤمنين منكسري القلوب فلابد أن تحذر من سوء دعائهم علينا بنفس القدر.

فمثلاً عندما أتم السلطان السلجوقي علاء الدين كيكوباد بناء قلعة المدينة طلب من بهاء الدين ولد –والد مولانا جلال الدين– ورجاه أن يرى القلعة وأن يوضح رأيه فيها تبركًا بذلك. فذهب بهاء الدين ولد ورأى ما صنعوه وقال للسلطان:

"قلعتكم تبدو قوية وجميلة فوق العادة لتمنع مصائب السيل وهجمات العدو، ولكن ما الذي اتخذته من تدابير لمواجهة سهام دعوات المظلومين والمنكسرين تحت حكمك؟ فسهام تلك الدعوات لن تثقب أو تدمر قلعة مثل قلعتك فقط، بل تثقب وتدمر آلاف القلاع، وتحيل الدنيا إلى خراب. فأفضل شيء لك هو أن تسعى لأن تصنع أبراج تلك القلعة من العدالة والطيبة، وتبنيها من الصالحين فتأتيك الدعوات الحسنة. وهذا سيكون أكثر أمنًا لك من تلك الأسوار، لأن هدوء الدنيا والناس وأمنهما مضمون بجنود الدعاء تلك".

وفى الحقيقة فإن كل أنواع النجاحات والأنتصارات والمكاسب التي يحققها المؤمنون –إلى جانب سعيهم وجهودهم– تتم ببركة الدعوات الصالحة المخلصة. والقرآن الكريم الذي هو مرشد السعادة الأبدي لنا في تلك الحياة يحتوى على أكبر تعاليم الدعاء.



وقد تحدث ربنا ﷻ عن الدعاء في عدة آيات فقال:

﴿**قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ**﴾ (الأنعام، ٤٠-٤١)

وقال تعالى:

﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ (الأعراف، ٥٥)

وطلب حُسن الخاتمة هو واحد من أهم الدعوات التي هي رأس مالنا الوحيد الذي ينجينا في الآخرة، والذي يجب ألا ننساه في تلك الحياة الفانية. يقول ربنا ﷻ في كتابه العزيز:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾(آل عمران، ١٠٢) الأنفاس الأخيرة

والجهود التي يبذلها كل مؤمن طوال عمره تكون من أجل الوصول إلى السعادة عند الأنفاس الأخيرة، لأنه لا أحد يأمن على نفسه سوى الأنبياء والرُسل عليهم السلام، حتى أولياء الله كانوا دائمًا يحملون هم الأنفاس الأخيرة.

وعلى الرغم من أن الحال التي سيموت عليه الإنسان يظل مجهولاً غير معلوم إلا أن هناك حقيقة هي أن الإنسان سيموت على الحال الذي عاش عليه، ولهذا السبب يجب أن نعيش دائمًا في حال إستغفار ودعاء إلى الله تعالى، لكي يثبتنا على الصراط المستقيم



لنخرج نَفَسنا الأخير ونحن على الإيمان. وكان سيدنا يوسف عليه السلام يدعو كما ذكرت الآية الكريمة فيقول:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف،١٠١)

وكان دعاء الصالحين -الذين مدحهم الله تعالى بوصفه لهم بأولى الألباب- كما ورد في القرآن الكريم يقول:

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ (آل عمران، ١٩٣)

وموقف سحرة فرعون فيه العبرة والعظة الكبيرة لنا، فعندما عرفوا الإيمان عند مواجهة معجزة سيدنا موسى عليه السلام لم يهابوا أو يخشوا عذاب فرعون، أو تهديده لهم بالقتل، بل دعوا الله تعالى أن يسلموا أرواحهم وهم مسلمون دون أن يُصاب إيمانهم بالضعف.

ومن ناحية أخرى فإن الوصول إلى اللطف الإلهي في الدعوات لا يكون بالجمل البراقة، التي لا تمتزج بالقلب والتي تُقال رياءً بصوت عالٍ جهوري فقط، ولا بالتأوهات والصيحات التي تصدع الأكباد، ولا بالكلمات المُنمقة، لأنه لو كان الأمر كذلك لما قُبل دعاء المريض المسكين المضطر الذي احترق بالدمع السّاخِنِ، ووهن صوته حتى لا يكاد يُسمع، ولما قُبل دعاء البؤساء الضعفاء

الذين حُبست كلماتهم في أنفاسهم. وهكذا لو كان الدعاء لصاحب الإبانة فقط، لما عُرف لسان القلب والحال.

والواقع أن وجود مثل هذا التنميق في الدعاء يضعف أساسًا جوهر الدعاء وروحانيته وقدسيته، فعَن ابْن سَعْدٍ أَنَّهُ قَالَ سَمِعَنِي أَبِي وَأَنَا أَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَنَعِيمَهَا وَبَهْجَتَهَا وَكَذَا وَكَذَا وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَسَلاَسِلِهَا وَأَغْلاَلِهَا وَكَذَا وَكَذَا فَقَالَ: يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

"سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ" فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ إِنْ أُعْطِيتَ الْجَنَّةَ أُعْطِيتَهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ، وَإِنْ أُعِذْتَ مِنَ النَّارِ أُعِذْتَ مِنْهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الشَّرِ» (أبوداود، الوتر، ٢٣/ ١٤٨٠)

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ في حديث آخر:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ" (البخاري، الجهاد، ١٣١)

فالله تعالى لا يرد الدعوات الخالصة الصادقة. ولكن رغم تلك الدعوات الصادقة كلها، فإنه قد لا تُستجاب بعض الدعوات، لأنها لم توافق القدر. ولهذا السبب يجب على الداعي أن يدعو دائمًا ولا يظهر الملل أو القنوط في أي وقت أبدًا، لأنه يُقال إن عوض الدعاء في أحوال كتلك يُدخر إلى عالم الآخرة.



والقلب المغموس في وجد الدعاء لابد أن يدرك أنه قد لجأ إلى أعظم باب، والقلوب التي تنتظر عند باب الدعاء على أمل انفتاحه رحمة لا تمل أو تسأم من الاِنتظار دهرًا على عتبة تلك الرحمة لأن الدعاء والبكاء بسبب أنه نشأ في عالم من الرحمة الإلهية فهو يشبه إكسير سعادة يمنح العزاء والسلوى للقلوب المحزونة، وكوثرًا عذبًا يفرح القلوب المحترقة بعشق الحق ﷻ كلما شربت منه.

ويجب ألا ننسى أننا يمكننا أن نصل إلى شرف وعزة وحيثية أن نكون بشرًا حقًّا عندما يعفو الله تعالى عن ذنوبنا. ويجب على كل الذين يطلبون الوصول إلى سر العفو الأبدي عند الموت، والذين يريدون تذوق الألطاف الإلهية والمنح الربانية اللامحدودة أن يسعوا في البداية إلى إخراج عطر العفو من الورد الموجود في حدائق القلب بالدعاء والرجاء في حال الوجد. ونحن أيضًا ندعو ونتوسل إلى الله تعالى صاحب القدرة والرحمة المطلقة أن يرحمنا ويمُن علينا بعطايا العفو.

يا ربِّ بكرمك ولطفك اجعل لنا نصيبًا من الرحمة والمغفرة الإلهية بالعشق والوجد ودموع العين الصادقة، واجعل قلوبنا خزائن رحمة لا تنفد على مخلوقاتك على أمل أن ننال الرضاء الإلهي، وبحرمة الدعوات النورانية لعبادك المخلصين أنعم على وطننا المبارك بالسعادة والرَّفَاهِ، وعلى أمتنا الاِسلامية بالحق والخير. آمين...



الدعوة إلى الحق والخير
(١)



يجب ألا ننسى الجهد الذي بذله رسولنا الكريم ﷺ والذي أسعدنا القدر وشرَّفنا بأن نكون من أمته، وتحمله الأذى لكي يوصل ويُسمع دعوة الخلاص الأبدي لكل الإنسانية. ويجب أن نحاسب أنفسنا بشدة ونسألها: إلى أي مدى نستطيع أن نُحيي سنته كأمة؟ وإلى أي مدى نليق بهذا الوصف "شهداء الله على الأرض"؟



الدعوة إلى الحق والخير
(١)

إن أي إنسان يستثمر رأس ماله الفطري مثل **العقل والإدراك والإذعان** عندما ينظر بعين القلب إلى الكائنات والحياة التي يعيش فيها لا يَحْتاج لأن يبذل جهدًا لكي يدرك أن كل هذه الأشياء لم تُخلق عبثًا أو بلا حكمة أو غاية. و الإنسان الذي خُلق بهذه الحكمة العميقة والغايات الجادة، لم يكن لُيترك سدى في هذه الدنيا الفانية، وفى ذلك تقول الآية الكريمة:

﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة، ٣٦)

وفي آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون، ١١٥)

وكل إنسان يجد نفسه مضطرًّا لإدراك تيار الحياة المُدرك بالحس والمُسمى بـ «**العمر**»، وأن يدرك الرابطة بين الإنسان والكائنات، والعلاقة بين المهد واللحد.

إن فيوض القدرة والنظام الإلهي اللذين يحكمان الكائنات يرفعان أصحاب العقول والأفئدة إلى القبول بخالق واحد صاحب



الحكمة وهذا يدفعهم إلى الإيمان، ولكي يتحقق هذا الإيمان بمعناه الكامل فقد تفضل الله تعالى وأنعم على الإنسانية بإرسال الرُسل مُرشدين للهداية.

وبلا شك فإن الرحمة هي واحدة من أهم الخصال التي تُكسب الإنسان نعمة الإيمان الذي تُنال بلطف من الله تعالى، والرحمة هي نار لا تنطفئ أبدًا في قلب المؤمن، فهي جوهر إلهي يقربنا إلى ربنا ﷻ، وهي لطف إيماني يدفع الإنسان من الغرور إلى التواضع والعبادة ، لأن نعمة الإيمان كلما وصلت إلى الكمال في القلب تزيد من شعور التألم والرحمة من المؤمنين إلى المحرومين وتزدادْ المساعي المبذولة من أجلهم. ومن أجل ذلك فإن روح أي مؤمن كامل عندما تجد حولها بشرًا يحتاجون لدعوة الهداية لا تستطيع أن تجد راحتها في إيمانها الفردي وحدها.

وبلا شك فإن الإنسان هو كائن مسافر في رحلة الآخرة. وإنكار ذلك هو وضع ضد العقل والمنطق والوجدان كإنكار الشمس بسبب عمى العيون. وفى تلك الحال فإن تنظيم الحياة على منهج تلك الحقيقة هو ضرورة عقلية ومنطقية ووجدانية.

ومن أهم الوظائف الدينية والوجدانية للمؤمن في رحلة الحياة بذل الجهد لإرشاد وهداية من لم تدرك نفوسهم النعم التي يملكها المؤمن ويحتاجون لأن يعرفوها، لأن دعوة الناس إلى الحق والخير والفضيلة والإيمان وصالح الأعمال التي توجب السعادة الأبدية،



وبذل الجهد من أجل إبعاد تفكيرهم عن مساوئ الأخلاق وأماكن الرذيلة، وظلمات الكفر ، فهذه الدعوة هي واحدة من أهم الأعمال الخيرة في الدنيا والآخرة، لأن رسول الله ﷺ يقول في حديثه الشريف:

"من دعا إلى هُدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً. ومن دعا إلى ضَلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً" (مسلم، العلم، ١٦؛ أبو داود، السنة، ٦؛ الترمذي، العلم، ١٥)

كما رأينا في الحديث الشريف فما أكبر البشارة النبوية الخاصة بفضل وبركة وظيفة ومهمة تبليغ الحق والخير. ومن ناحية أخرى فإن الذين يدعوا إلى الشر وإستمرارهم في الذنب والإثم كمثل قطعة الثلج الصغيرة تتدحرج حتى تتحول إلى كرة ثلجية ضخمة. وبهذه الكيفية فإنه ليكفي أن نعبر بالدعوة إلى الحق والخير عن أهمية هذه المهمة والتكليف لنجنب الناس السيئات.

ومن ناحية أخرى فإن كل مؤمن يتواجد في وظيفة التبليغ يجب عليه أولاً أن يُكمل شخصيته المعنوية ، لأن أكثر الوسائل تأثيرًا في إرشاد الناس للحق والخير هي تحول الداعية إلى مثال حي مجسد للحق والخير والفضيلة والصدق.

ومن أجل ذلك فإن الشرط الواجب توفره هو أن يكون الداعية أولاً: على صراط مستقيم، أما لكي يكون التبليغ مؤثرًا بالمعنى



الكامل فهذا يتحقق فقط بقلب وصل إلى الأِطمئنان. لأن الأشخاص الذين وصلوا إلى هذا القوام المعنوي عندما عاشوا في داخل هذا الوجد الذي لا نهاية له قد سقطت في نظرهم كل الحظوظ واللذات الفانية وفقدت بريقها. ولهذا السبب فإنهم يتولون مهمة التبليغ ابتغاء مرضاة الله تعالى بإخلاص وتجرد دون انتظار أية منفعة من الزائلين الفانين، وقد أخرجوا حظ نفوسهم من هذا الأمر. وهذه الكيفية في نفس الوقت هي خاصية وخصلة من أخلاق الرُسل والأنبياء.

وكم هي كثيرة تلك التوضيحات الإلهية التي تشير إلى هذه الأخلاق النبوية مثل تلك الآية الكريمة المتعلقة بالدعوة والتبليغ والتي تقول:

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ﴾

(الشعراء، ١٨٠)

وفى لغتنا فإن وظيفة الدعوة إلى الخير والتحذير من السيئات تُسمى «**الأمر بالمعروف والنهى عن المُنكر**»، وقد تأكد هذا الأمر الإلهي في تلك الآية الكريمة:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران، ١٠٤)

والحق أن صوت الدين أي أوامر الله تعالى ورسوله ﷺ ونصائحهما هي القسطاس الوحيد الذي يمكن أن نميز به ونفصل الحق عن الباطل والخير عن الشر والفضيلة عن الرذيلة والنضج

عن السفه وانعدام الخبرة. ومن وظائف المؤمنين الأساسية والأولية إعلاء هذا الصوت. وقد وصف الحق ﷻ تلك الوظيفة ألا وهى وظيفة الدعوة والتبليغ بأنها **"جهاد كبير"** حيث يقول ﷻ:

﴿فَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ (الفرقان، ٥٢)

ومع أن هذه المجاهدة الكبيرة في الحقيقة قد جاءت في الفترة المَكية التي لم يكن للمؤمنين فيها أية قوة للصراع مع المشركين، أي في فترة انتشرت فيها الجهالة وانتشر فيها الضلال واستشاط غضبه وبُعث الفساد والهرج والمرج من رقدته، وتمكن سلطان الكفر والإلحاد، فإن هذه الآية الكريمة السابقة تقدم واحدة من أهم معاني الجهاد، ألا وهى تبليغ القرآن الكريم والدعوة به، لأن المؤمنين في ذلك العهد لم يكن لديهم القدرة على مواجهة الظالمين والأعداء، ولم يكن في أيديهم تجهيزات عسكرية، ولم يكن في أيديهم أي شيء سوى كلمة الحق كلمة الله تعالى، وفى تلك الحال كان تبليغ القرآن الكريم كما أخبرت الآية الكريمة هو الطريق والوسيلة الوحيدة لهذا الجهاد والسعي الكبيرين.

يقول رسول الله ﷺ في حديثه الشريف:

"لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها" (البخاري، العلم، ١٥)

وأفضل شكل للعيش بالقرآن الكريم هو تعلمه وتعليمه والتخلق بأخلاقه، والسير على هدى أوامره ونواهيه والجد في تبليغه بلسان

رقيق، والتحلي بالإيمان به، والدعوة بالقرآن يمكن أن تترك تأثيرًا جميلاً بالدرجة المطلوبة عندما يكون شغل المؤمن هو الوصول إلى عمق هذا الشعور والإحساس في الأِنشغال بالقرآن الكريم.

فمثلاً سيدنا عمر بن الخطاب ﵁ عندما خرج بنية سيئة وهي قتل الرسول ﷺ تحول إلى الإسلام -ببركة دعاء الرسول ﷺ له- ولإستماعه إلى آية قرآنية قُرِئَتْ بعمق قلبي في منزل أخته.

وقد بذل رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ﵃ جهدهم كله في سبيل تبليغ القرآن الكريم ودين الله تعالى. فبذلوا في هذا السبيل قوتهم وإمكانياتهم كلها من أموال وأرواح. والصحابي الجليل الذي كان يُسلم رسالة رسول الله ﷺ إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام في حضور جلاديهم ويقرأها عليهم بلا خوف أو وجل ولم يكن ليتأخر أو يتوانى عن بذل روحه في سبيل تلك المهمة.

وقد حضر خطبة الوداع مع رسول الله ﷺ ما يقرب من المائة وعشرين ألف صحابي، ولكن من دُفن منهم في مكة والمدينة المنورة عددهم لم يتجاوز العشرين ألف صحابي تقريبًا، وقد أدرك الآخرون جيدًا أن شرارة دعوة التبليغ لابد أن تظل مشتعلة وقد حملها الصحابة الكرام وعبروا بها الحدود.

فمثلاً سافر الصحابة الكرام أِلى إسطنبول والصين، و إفريقيا والقوقاز. وفى كل مكان ذهبوا إليه كانوا ينشرون فيه الهداية والرحمة ونجحوا في كتساب موقع مشرف في سجل التاريخ



الإسلامي، وهكذا أوصلوا دعوة الهداية التي بدأت من مكة إلى الأمكنة كلها في كل الأزمنة.

وخاصة إن رسول الله ﷺ قد بذل جهدًا يفوق الطاقة البشرية في سبيل تبليغ الرسالة الإلهية التي تدعو الإنسانية إلى الهداية، وهذا السعي يبين من ناحية أهمية وعظمة مهمة ومسئولية التبليغ، ومن ناحية أخرى كان يلهم المؤمنين أيضًا ضرورة أن يعيشوا حياتهم لهذا الأمر في سعي إيماني دائم.

وقد نذر رسول الله ﷺ -الذي أرسله الحق ﷻ نموذجًا كاملاً لعباده- حياته في سبيل أداء مهمة التبليغ، ولم يمنعه من السعي في سبيل دعوته تعرضه للظلم والشتم والتحقير والسخرية والإيذاء التي زادت كثيرًا عندما رفض الرسول الكريم عروض المشركين الدنيوية والشهوانية الجذابة إلى أقصى درجة.

وكان رسول الله ﷺ يعيش في جو إيماني كبير مستحكم لا يقبل أدنى إنحرافٍ عن هذا الطريق، وذلك الجواب التاريخي الذي رد به على عروض المشركين المغرية لكي يصرفوه عن دعوته حتى في أضعف أوقات الدعوة -في بدايتها- ما زال يتردد في أسماع الزمن إذ قال لهم:

"يا عم لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك في طلبه"(البيهقي، دلائل النبوة، ٢، ٦٣/ ٤٩٥)

حقيقةً رغم أن رسول الله ﷺ قد تعرض لضرر وأذى لا يمكن لطاقة بشرية أن تتحمله، إلا أنه اغتنم الفرص كلها من أجل تبليغ الإسلام، وكان بحق أعظم نموذج لأمته في تطبيق الطرق كلها لغرس بذور الهداية في قلوب الناس.

فمثلاً في الأعوام الأولى للدعوة كان رسول الله ﷺ يدور على القبائل كلها خاصةً عندما كانوا يأتون للحج، وكان يشرح ويحكي لهم كثيرًا عن الإسلام، وكان رسول الله ﷺ يتردد على الأماكن التي يتجمع فيها الناس ويدور على مجالسهم ومنتدياتهم بلا توقف، وكان يدعو كل من يقابله إلى وحدانية الله تعالى أولاً دون تمييز بين حر وعبد أو ضعيف وقوي أو غني وفقير.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ فِى الْمَوْقِفِ فَقَالَ:

"أَلاَ رَجُلٌ يَحْمِلُنِى إِلَى قَوْمِهِ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِى أَنْ أُبَلِّغَ كَلاَمَ رَبِّى" (أبو داود، السنة، ١٩-٢٠)

فضلاً عن ذلك كان رسول الله ﷺ يذهب إلى أماكن تجمع القبائل في الأسواق التي تُقام في مكة مثل: عكاظ و مُجنة وذو المجاز ويعرفهم بنفسه، ويدعوهم إلى الإقرار بوحدانية الله تعالى وعبادته وحده.

ورغم أنه تعرض للتحقير والإيذاء وخاصةً في الطائف، إلا أنه كان يدعو الله تعالى من جديد أن يخلصهم وينجيهم. وعندما



اهتدى على يديه عبدٌ يُسمى عداس بمفرده من الطائف كلها كان ذلك كافيًا ليدخل الفرح والسعادة على قلبه الحزين. ورغم الظلم والتحقير الذي رآه إلا أنه لم يغضب وظل يدعو من أجل هدايتهم، وذلك بسبب غلبة العفو والرحمة في قلبه.

ومع أن رسول الله ﷺ قد حزن قلبه من ظلم أهل الطائف له، إلا أنه لم يفكر لحظة في أن يتخلى عن مهمته ومسئوليته في تبليغ دعوة الله تعالى إلى الناس، وفى تلك الظروف القاسية لجأ إلى الله تعالى بهذا الدعاء الرقيق يطلب منه العون والصفح حيث قال ﷺ:

"اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سُخْطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ" (ابن هشام، جـ٢، ٣٠)

إن إمكانية تذوق الصفاء الأبدي لتلك الحياة الفانية يكون ممكنًا لو استطعنا أن نبعث أريج رائحة العفو والرحمة من حدائق القلب كما فعل رسول الله ﷺ، ومن الضروري أن نرفع الرحمة فوق المحبوبات كلها، لأن من يرحم يليق ويستحق الرحمة الإلهية، فليكن لنا نصيب من تجلي صفة اسم "**الرحمة**" علينا.

فرحمة الحق ﷻ هي كالبحر أو المحيط الذي تكفي قطرة واحدة منه لتملأ قلوبنا، وبتلك القطرة التي تسقط على القلب، وفى اللحظة التي يذوق فيها القلب لذة ذلك البحر من الرحمة يكون ذلك القلب قد اتصل بذلك البحر. أيضًا فإن القلوب التي تحولت إلى بحر الرحمة تصل إلى قوامها وصلاحها الحقيقي بالألتِجاء والدعاء والتبليغ.

فضلاً عن ذلك فإن هذه القلوب التي تتوسل بلسان الحال قائلةً "**لترحمنا**" تتحول إلى قلوب سامعة لنداءات واستغاثات الغافلين الصامتة عن غاية الخلق. وتوجد بجوارها لتواسيها وتحزن لأجلها. وهكذا فإن الطائف هي أفضل نموذج محسوس مُشخص لتلك الحال. فلو تصور أحد أن الشمس لا يمكن أن تنير أو تنشر الدفء لأمكن تصور أن تبقى الأرواح الكاملة عاريةً من التأسي والرحمة وبالتبعية بعيدة عن تبليغ الحق والخير.

بالتأكيد إن رسول الله ﷺ قد أُرسل رحمةً للعالمين، وعلى كل حال فكم من أناس لم يعرفوا قيمته وكذبوه وأنكروا دعوته. وعلى الرغم من أنهم كانوا يلقون بكل أنواع التحقير والذم، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يمنعوا انتصار الرحمة على الغضب في رسول الله ﷺ رغم قسوتهم وغلظتهم وتجاوزهم كل الحدود. بالعكس كان رسول الله ﷺ يتأسى لهم أكثر ويرحمهم أكثر. وهكذا فإن كثيراً من الأرواح المضطربة المُعذبة –التي تظن أن السعادة في السفالة التي سقطوا



فيها- كانت تنال شرف الإيمان بسبب القلب النبوي الذي كان يشبه بحرًا واسعًا من الشفقة والتسامح والعفو والرحمة.

فمثلاً رسول الله ﷺ قد طرح في حديثه الشريف الحالة الروحانية التي يكون عليها عند تبليغ الدعوة فقال:

" إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تقحَّمون فيها) (البخاري، الرقائق، ٢٦)

وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران، ١١٠)

وهكذا ولكي نستطيع أن تشملنا عبارة «خير أمة» التي وردت في الآية الكريمة فلابد أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر كما فعل رسول الله ﷺ.

ويوضح الحق ﷻ في آية أخرى في كتابه الكريم قيمة هذه الوظيفة العلوية عنده فيقول:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت، ٣٣)



ويجب ألا ننسى الجهد الذي بذله رسولنا الكريم ﷺ -الذي أسعدنا القدر وشرفنا بأن نكون من أمته- وتَحَمُله الأذى لكي يوصل ويُسمع دعوة الخلاص الأبدي لكل الإنسانية. ويجب أن نحاسب أنفسنا بشدة ونسألها: إلى أي مدى نستطيع أن نُحيى سنته كأمة؟ وإلى أي مدى نليق بهذا الوصف "شهداء الله على الأرض"؟ لأن رسول الله ﷺ أراد أن تستمر أمته في أداء تلك الوظيفة في كل حالها وعملها كما تولاها طوال عمره، وكان ﷺ في كل مناسبة يذكر أمته بوظيفة التبليغ ومسئوليتها ويحثهم على ذلك ، فقد قال في حديثه الشريف:

"**بلغوا عني ولو آية**"(البخاري، الأنبياء، ، ٥٠)

وقال ﷺ في حديث آخر:

"**نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**" (الترمذي، العلم، ٧)، ليحث أمته على القيام بوظيفة الدعوة والتبليغ.

فضلاً عن ذلك فإن ذلك البيان النبوي المُعبر للغاية والذي إختاره رسول الله ﷺ ليكون بمثابة حجر الميزان لإيماننا، ولوظائف التبليغ والتنبيه والإرشاد كلها التي تدعو الإنسانية للخير والجمال وتبعدها عن الشر والسوء، يقول فيه رسول الله ﷺ:

"**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده. فإن لم يستطع فبلسانه. ومن لم يستطع فبقلبه. وذلك أضعف الإيمان**" (مسلم، الإيمان، ٧٨)

أما حديثه الآخر فيقول فيه ﷺ:

"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ"

(الترمذي، الفتن، ٩)

فيا رب نعوذ بك من سوء العاقبة التي تأتي من إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويا رب اجعلنا ممن يؤدون وظيفة الدعوة إلى الحق والخير على الوجه الأكمل متحلين بنصيب من أخلاق رسولك الكريم ﷺ الذي كان أجمل هدية وأكمل نموذج للبشرية كلها، واجعلنا ننال شفاعته العظمى يوم القيامة. آمين...





الدعوة إلى الحق والخير
(٢)



إن أسعد البشر هم الَّذِينَ جعلوا قلوبهم مركزًا معنويًا في رحاب القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فاحتوت في داخلها المخلوقات كلها. لأن القيمة والخاصية الأساسية للإنسان أن يعيش وقد ملأ قلبه بالنور، وأن يوجد في الدعوة بذلك القوام القلبي. فالنهوض والقيام بالتبليغ والدعوة بينما القلب مملوء بالأشواك من الناحية المعنوية هو ضعف كبير وجهد ضائع



الدعوة إلى الحق والخير
(٢)

لكي نتمكن من تطبيق كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ على حياتنا فلابد من تحويل وظيفة تبليغ الحق وخدمة الناس إلى عشق في قلوبنا، لأن حياة أي مؤمن يجب أن تكون حياة تبليغ وخدمة.

ومما لاشك فيه أن من أهم الأوصاف التي تميز المؤمن الحقيقي عن سائر البشر الآخرين هو رحمته بالناس. والدعوة والتبليغ هما أيضًا في نفس الوقت أحد نواتج الرحمة. والدعوة إلى الحق والحث على الخير اللذان يشكلا مظهرًا للرحمة يُشترط أن يتحققا في نفس المؤمن أولاً.

وفى البداية من أجل أن ندعو إلى الحق ونسعى إلى الخير فلابد من الوقوف والتعرف بشكل سليم على ماهية الحق والخير. لأن دعوة الجاهل لا يمكن أن تبرأ من الأخطار ليس من ناحية الأسلوب فقط، بل ربما من ناحية المحتوى أيضًا. وفى تلك الحال فإن أول لوازم هذا الطريق هي رأس المال العلمي والقلبي، لأن الإنسان يحتاج لهذين الأمرين لكي يستطيع أن يعيش حياة الإيمان والعبودية في توازن بين العقل والقلب.



ومن ناحية أخرى فإن معرفة المسائل الدينية باعتبارها "**ضرورة دينية**" هي فرض على كل مسلم، فيجب على كل مؤمن من باب أولى على الأقل معرفة هذه الأركان الأساسية، والذين لا يعلمون يجب عليهم السعي لإزالة نواقصهم القلبية والعلمية خشية أن يفسدوا الأمر بينما هم يسعون للإصلاح.

ويجب عليهم أن يطبقوا ما تعلموه في حياتهم وأن يحولوا العلم إلى حالة عرفانية صوفية لأن تأثير الدعوة إلى الحق والخير يرتبط بعمق أفقنا القلبي لأن ذلك يتحقق بملء دنيانا الداخلية بالنور والروحانية كما قال مولانا جلال الدين الرومي -قدس سره- «بينما تسعى لأن تملأ وعاءً فيجب ألا تفرغه من الثقب في أسفله».

والواقع أن دعوةً تتم بأسلوب فَجْ خَشِن وبعبارات من قبيل: غليظ، ومحروم من العشق والشوق، وعديم الخبرة، وغير دقيق تكون سببًا في الخسران وفى نفس الوقت فإنها تكون مقدمة لبلاء عظيم مع أنه كان ينتظر أن تحقق فائدة ونفع.

ولهذا السبب يجب على كل مؤمن أن يزين عالم القلب بجمال الإسلام ورقته وسماحته، ويجب أن يشكل بأحواله وأقواله وتصرفاته نموذجًا مثاليًا في الحرص على تبليغ الحق والخير، لأن حقيقة وظيفة الدعوة إلى الحق تكمن في التوجه إلى الرب بالعشق والحب، فمثلاً هذا العشق العلوي الذي عند رسول الله ﷺ الذي قابل الوحي لأول مرة في غار حراء قد ملأ روح الرسول ﷺ بنور



التبليغ ورفعه في المعراج للحضرة الإلهية. يقول الحق ﷻ في آياته الكريمة:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة، ٧١-٧٢)

إن أسعد البشر هم الذين جعلوا قلوبهم مركزًا معنويًا في رحاب القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فاحتوت في داخلها المخلوقات كلها، لأن القيمة والخاصية الأساسية للإنسان أن يعيش وقد ملأ قلبه بالنور وأن يوجد في الدعوة بذلك القوام القلبي. فالنهوض والقيام بالتبليغ والدعوة بينما القلب مملوء بالأشواك من الناحية المعنوية هو ضعف كبير وجهد ضائع، وفى ديننا فإن الذين يرفضون الإدعاء والإتهام الذي هو سرطان روح الإنسان يبذرون التواضع والمحبة والرحمة في القلوب. فعالم قلب أي مؤمن لابد وأن يكون مثل حديقة مزهرة تجد الوجوه العابسة والقلوب المكتئبة والحزينة فيها الراحة والسكينة والفرحة. ولهذا السبب فمن الضروري تطهير القلب والجسم من المشاعر والأفكار والتصرفات التي تشبه الشوك لجعلها تقوم بالتبليغ.



فعلى الرغم من أن الحجاج الظالم الذي اشتهر في التاريخ كحاكم ظالم جبار، إلا أنه كان إنسانًا حكيمًا. فذات يوم عندما رآه الخطيب في صلاة الجمعة أَخَذ يُعرّض به في الخطبة قائلاً:

«إن أحب شيء إلى الله تعالى أن تصرخ في وجه الحاكم الظالم». وبعد أن انتهى الخطيب من خطبته استدعاه الحجاج وسأله:

لماذا قلت ما قلت في الخطبة؟ فكرر الخطيب ما قاله في الخطبة للحجاج بنفس الأسلوب القاسي دون أن يتراجع خطوة عن أسلوب تحقير الحجاج وسبه، فقال الحجاج:

«شيء عجيب أنت تشبه رجلاً عالماً لكن ليس لديه خبر عن مناهج الدعوة الإسلامية ألم تقرأ القرآن أبدًا؟! لقد أرسل الله من هو أفضل منك وهو سيدنا موسى عليه السلام إلى من أهو أشر مني وهو فرعون، ولكن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يقول له قولاً لينًا. وهنا فهم الخطيب خطأه واعتذر للحجاج فعفا عنه الحجاج وسامحه ولم يقطع رأسه.

وليس حال موسى عليه السلام مع فرعون:

﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾ (طه، ٤٣-٤٤)

هو البيان الإلهي الوحيد الذي يعلمنا المنهج في الدعوة، بل إن كثيراً من الآيات الكريمة تخبرنا وتعلمنا ضرورة أن نخاطب الناس

في الدعوة بكلمات رقيقة وحكيمة دون أن نؤذى أحدًا. فنجد الله تعالى في آيات أخرى يقول:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل، ١٢٥)

ليبين لنا آداب الدعوة. ولهذا السبب لابد أن نتمثل حال رسول الله ﷺ الذي كانت حياته قرآنًا حيًّا، وأن نراعي الأصول والآداب التي وضعها.

لذلك فعلى كل مؤمن أولاً أن يزين عالمه الداخلي والخارجي بجماليات الإسلام، وأن يكون صاحب شخصية مؤثرة تتآلف مع من حولها بالأخلاق والتصرفات الجميلة.

ولما نزلت ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾. صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش

فقال:**"أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي"**

قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً

قال: **"فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"** .



فقال أبو لهب تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنزلت ﴿**تبت يدا أبي لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب**﴾ (البخاري، تفسير القرآن، ٢٦)

وهكذا كان تصديق رسول الله ﷺ يدور حول أنه أمين صادق لم يكذب أبدًا عليهم حتى قبل الدعوة.

أي أن رسول الله ﷺ سجل على من حوله إعترافهم بأنه صادق أمين، حتى أبى جهل أحد صناديد الكفر في قريش لم يستطع أن يتهم رسول الله ﷺ بالكذب، ولكنه فقط كان يعارض دعوة الرسول الكريم ﷺ بهذه الكلمات فيقول: (إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به) فأنزل الله ﷻ ﴿**فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**﴾ (الترمذي، تفسير القرآن، ٦/ ٣٠٦٤)

ومثلما رأينا فإنه حتى أبى جهل -أكبر عدو لرسول الله ﷺ - كان يصدق بأن رسول الله ﷺ إنسان استثنائي فريد، حتى إن الذين تشرفوا بالأِيمان كانوا بمجرد أن يروا رسول الله ﷺ يقعون تحت تأثير لسان حاله ويقولون: "**هذا الوجه لا يكذب أبدًا**"، وهكذا لا يمكن إنكار هذه الحاجة الماسة لهذا الأمر عند فتح القلوب.

وأيضًا فأنّ السلطان محمد الفاتح الذي كان من الشخصيات الأِستثنائية في تاريخنا قد فتح البوسنة بعد عشر سنوات من فتح إستانبول، ولكن الفتح الحقيقي أي فتح القلوب كان قد تحقق بعد إغماد السيوف التي فتحت الأقفال ظاهريًّا. لأن الفاتح أسكن هناك في البوسنة العائلات المؤمنة الطاهرة التي تشكلت من جنود



القلب الذين تربوا في حضن الأناضول وبدؤا في الأِستعداد للتبليغ والدعوة بالأخلاق والأحوال الجميلة، وكان من نتيجة هذا أن تشرف كثير من البوشناق – أي أهل البوسنة – بالتحول إلى الإسلام.

في الحقيقة إن السلاح يُستعمل من أجل تحييد الظلم، ولكن الفتح الحقيقي اللازم أن يتحقق هو فتح القلوب. وهذا يتحقق بأن يعيش كل منا بأخلاق الإسلام وسماحته، وبأن نتحول إلى شخصية نموذجية، لأن تأثير التبليغ والدعوة مرتبط إلى أقصى درجة بمعيشة الداعية وحياته القلبية. وتبعًا لهذا فإن أي داعية حقيقي لا يستطيع أن يدرك حكمة النظام الإلهي في الكائنات ولا يستطيع أن يفهم عن لسان حال المخلوقات، فهو يعانى من نقصان قوام القلب وصلاحه. أما الجبة الجافة التي لا يوجد بها قلب حساس فهي لا تستطيع أن تنشر الهدوء والسرور والجماليات على من حولها بأي شكل.

ولهذا السبب فإن الحرب الواجب أن نحقق فيها النصر في البداية هي الحرب التي في العالم الداخلي للإنسان. وفي معرض إيضاح هذه الحرب فقد بيّن الحق ﷻ صراع "**الفجور والتقوى**" في عالم الإنسان الداخلي. فرأسمال الخلاص الأبدي والسعادة الحقيقية للإنسان هو استطاعته أن يتخلص من الفجور ويزين قلبه بالتقوى. وهكذا فإن الذين يستطيعون أن يؤثروا في القلوب ويطعموها بالخلاص الأبدي، هم فقط الذين ينقادون إلى التسليم الكامل للحق منتصرين في صراعهم داخل نفوسهم.



ومن ناحية أخرى هناك أمر آخر لابد أن نراعيه في الدعوة وهو إعطاء قيمة للمُخاطب، لأنه يجب ألا ننسى أن المُخاطب في الدعوة هو إنسان وهو كائن شريف خلقه الله تعالى بيده.

ولو كان يلزم أن نبدأ في الدعوة من الإيمان فيجب أن ننتبه إلى القيمة الحقيقية التي في فطرة المخاطب رغم أنه محروم من الإيمان. ومعنى ذلك أن نعامله بالأمل والمسامحة والرحمة بدلاً من الشدة والغضب، لأن التصرف بهذا الشكل أساسًا يكون مناسبًا أكثر لتلك الرؤية والفكرة الأساسية في النظر إلى الإنسان.

وقد ذكر الشاعر التركي نامق كمال ذلك البيت ليعبر عن ذلك المعنى الدقيق فقال:

"إن سقوط اللؤلؤ على الأرض لا يقلل من قدره وقيمته"

وفي آيات القرآن الكريم كلها التي تكرم الإنسان نجدها تعطي القيمة والأِعتبار لهذه الماهية الحقيقية للإنسان. فمثلاً تقول الآية الكريمة:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء، ٧٠)

وفي الحقيقة نجد أن القرآن الكريم يُشَرِّف الإنسان من حيث كونه إنسانًا، ويقدمه على أنه خليفة الله في أرضه.



والإيمان والأعمال الصالحة التي تأتي بعده تتم بمقتضى هذا الشرف الأصيل، أما الحرمان من الإيمان والأعمال الصالحة فهو هبوط وحرمان - مثير للدهشة والعجب- في ماهية عدم تحقيق ما يوجب هذا الشرف الأصيل والحقيقي للإنسان. فالمقصرون من ناحية الأعمال أيضًا حتى ولو كانوا محرومين من الإيمان فإنهم يليقون بالرحمة والعطف.

فالبشر البسطاء يمكن أن يغضبوا لما يتعرضون له من حرمان كهذا، ولكن الذين نالوا لذة الإيمان وكماله فلابد أن يتأملوا ويرحموا هؤلاء الذين تعرضوا للحرمان، لأن هذا هو المنتظر منهم. وشعور التراحم والمواساة هذا يوجب المساعدة، وأكبر مساعدة أيضًا تتحقق بالتبليغ الذي هو دعوة السعادة الأبدية.

إن الداعية الحقيقي هو شخصية المرشد الذي يستطيع أن يُطْعِم الأرواح بالنظام والحياة. والذي يستطيع أن يمزج دعوته في كل مجال بالعشق والمحبة والرحمة هو إنسان القلب الذي هو منبع الإيمان، والأشخاص الأَدِلَّاء المرشدين الذين يوضحون للإنسانية طريق السعادة والسكينة بكلماتهم وكتاباتهم وسلوكياتهم الرقيقة النموذجية هم دائمًا بجانب كل حزين، وفى عون كل وحيد لا معين له، يغيثون كل ملهوف مضطرب. وبسبب أنهم يشعرون في صدورهم بالمسئولية في هذا الشأن، وبألم من حولهم لذا فهم يهرعون لمد يد العون لمن يحتاج إليهم وينتظرون نور الهداية.



وهم مرة أخرى يتلقون البشر على أنهم أمانة الله تعالى، فهم يكتسبون روحًا تمتزج بالعشق والرحمة على المخلوقات كلها، وتشعر بالمسئولية التي تنمو من بذرة الرحمة فتخرجهم بهذا الشكل من أن يكونوا من عامة الناس لتجعلهم هداة طريق الوصول الأبدي. والذين نذروا أنفسهم للخدمة والإرشاد متحملين العذابات في سعيهم للوصول للهداية والطريق السليم، والذين يحملون قلوبهم ملتحقين هكذا بقافلة الحقيقة تلك فهم بمثابة أخوة حقيقيون عاشقون للحق ﷻ أمثال: عزيز محمود هدائي ويونس وأمثالهم.

إن الحق ﷻ سيتم نوره حتى يوم القيامة، أي أن الإسلام سيستمر حتى يوم القيامة لأنه عهد إلهي رباني، لكن لا يجب أن يغيب عن الذاكرة أن وظيفة الدعوة والتبليغ هي الوسيلة والسبب لاستمرار الدين. فذلك الدِين هو أن نعرف الله تعالى بالعبودية المناسبة الحقيقية وأن نكرم أنفسنا بعبادته، لأن ذلك هو سبب وجود الخلق.

فإذا ما ظهر ضعف في الحياة الدينية في أي زمان ومكان، وشوهد انزلاق البشر إلى الخطأ، فإن وظيفة الدعوة عندئذ تصبح أول وأهم وظيفة ومهمة بعد الإيمان بالله تعالى، وكلما لم يتحقق نجاح في أمر تبليغ الحق والخير تفقد الكثير من الأعمال حتى المشروعة مشروعيتها. فمثلاً إرضاع الأم لطفلها في سن الرضاعة هو عمل مبارك وعظيم للغاية، لكن الأم التي تشاهد بيتها وهو



يحترق وتستمر في إرضاع الطفل تكون آثمة، لأن الأشياء التي تقوم بها لمقاومة الحريق في تلك اللحظة تكون أكثر أهمية من إرضاع طفلها. وهكذا فإنه ما لم تكن هناك طائفة تدعو إلى الحق والخير وتبلغه في زمن ضياع الدِين والاِنشغال بالأعمال الأخرى يكون هذا سببًا لوبال عظيم في سائر الأوقات الأخرى.

ويجب ألا ننسى أن نعمة الله وهي الإسلام تلك النعمة قد وصلت إلينا منذ ألف وأربعمائة عام بالآلاف من التضحيات والمعاناة والمشقات. وهذه الأمانة التي وصلت إلينا لابد أن ننقلها بنفس خواصها وشكلها وجوهرها إلى الأجيال التي تأتي من بعدنا.

وفي هذا الشأن فإن عصرنا هو العصر الذي يتوجب فيه السعي لتحقيق هذه الغاية والتضحية من أجلها بالغالي والثمين من أجل انتصار الحق والخير.

وهذه حقيقة منطقية أساسًا، لأن الجهد الذي نبذله لدفع العربة عندما تنغرس عجلاتها في الطين لا يمكن مقارنته بالجهد الذي نبذله لدفعها فوق طريق مستو ومستقيم. وهنا توجد أكثر من لفتة تربوية، ذلك أن أي جهد يبذله كتف صغيرة في تلك اللحظة التي يستشعر فيها بالحاجة إلى مجهود حتى مساعدةُ طفل صغير من أجل إخراج عجلات العربة من الطين يكون ذو أهمية كبيرة للغاية. ومقابل ذلك فإن الذين يشاهدون ويقفون مكتوفي الأيدي في تلك اللحظة الدقيقة ولا يقومون بوظيفتهم يتضاعف جرمهم وذنبهم.



وفى يومنا هذا الذي ضعف فيه الإيمان وتمسك فيه الشباب بكثير من التيارات السلبية، وعاشت أكثر الإنسانية تحت سلطة النفس مُنْقادين للقوة فإنه يجب أن نتحرك تبعًا لدقة وقتنا وعصرنا مؤمنين أن السعي القليل يترتب عليه ثواب عظيم وأن الإهمال القليل يجلب الوبال الكبير.

ومما لاشك فيه فإن أكبر سعادة للإنسان أن ينجح في خدمة الدين والإيمان والوطن والأمة. لكن المسألة الأصلية في وظيفة التبليغ ليست هي النجاح أو الأنتصار، ولكن المهم هو أن نبذل الجهد على قدر ما نستطيع في هذا الطريق على أمل أن ننال رضى الله ﷻ.

وليس من الصواب أن ينتظر الفرد تحقق نتيجة إيجابية للدعوة والتبليغ الذي قام بهما قائلاً إنه استعان بكل الأسباب اللازمة، وأن يغرق نفسه في الحزن واليأس ويحطمها إذا لم يتحقق ما كان يسعى إليه؛ لأن الله تعالى هو الهادي وحده. لذا فعلى العبد أن يستمر في الدعوة من دون سؤْم أو ملل أو يأس أو تراخ، وأن يتوكل على الله تعالى، ويترك له النتيجة وحده.

فالله تعالى قد أنزل تلك التنبيهات الإلهية على رسول الله ﷺ المبعوث رحمةً للعالمين عندما كادت نفسه أن تذهب حسرات على أناس أراد الله لهم أن تحصدهم النار فقال في كتابه العزيز:

﴿**إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ (القصص، ٥٦)



ولهذا السبب يجب ألا ننسى أن الدعوة حتى لو لم تجد قبولاً فإنها على الأقل تقلل من سرعة الشر، وربما تكون وسيلة للإصلاح وتعطي النتيجة على المدى الطويل. فضلاً عن ذلك فإن الداعية يكون قد تخلص من مسئولية هذا التكليف حتى لو لم يحصل على نتيجة؛ لأنه من المُحقق والمؤكد أن الفرد يكون مسئولاً عن الجهاد الذي لم يلتحق به ولم يبذل جهدًا في سبيله، أكثر من الجهاد الذي التحق وبذل فيه الجهد وإن لم يتحقق فيه نجاحًا. ونحن سنقيم في ميزان الحق الإلهي بما قمنا به، وما لم نقم به في سبيل الدعوة، وليس بالنتائج التي تحققت.

فمثلاً كان يُبعث بنبيٍّ أحيانًا فيسلم على يديه الجمع الغفير، وأحيانًا أخرى كان يُبعث نبي فيسلم على يديه النفر القليل. أي أن الهداية هي من عند الله وحده، ولكن الأمة وعلى رأسها الأنبياء كانوا مجبرين على الدعوة إلى الإسلام وتبليغه.

والحاصل أنه من الضروري أن تتحول الدعوة إلى خصلة أصيلة في فطرة كل مسلم بداية من الأولاد والعائلة. وكل مؤمن مسئول عن البحث عن طريق الدعوة التي يتحقق في كل قول وعمل، وهو أيضًا مسئول عن عمل ما يلزم لتحقيق وظيفة الدعوة على قدر القوة التي يمتلكها والمعرفة، والمستوى الثقافي الذي وصل إليه والمسئولية والمكانة القلبية الإيمانية التي حصلها، وهو مسئول عن السعي وتفهيم وتوصيل تلك الأحاسيس للناس، لأنه



مثلما يتضح في القرآن الكريم فإن الحق تعالى لم يكلف العبيد فوق طاقتهم، ولكنهم مسؤلون عن بذل الجهد والسعي لتحقيق وظائفهم وتكاليفهم وواجباتهم.

ومما لاشك فيه أن رسولنا الكريم ﷺ هو أعلى وأفضل مثال في الدعوة إلى الحق والخير ، ومن بعده أهل الله وورثته في ذلك الميراث العظيم.

ذلك لأن أحوالهم تحتوي على جمال ورقة وعمق وعظمة متميزة. فمثلاً كان موسى أفندي -قدس سره- من هؤلاء الخواص الذين تولوا الإرشاد والدعوة، وكان عمره مملوءً بالخصال النموذجية، وكانت إشاراته وإرشاداته توجهنا إلى الحق والخير بكل وسيلة.

كان موسى أفندي -قدس سره- يصيح بشوق وحسرة وهو في مرضه الذي توفي فيه قائلاً:

«آه لو كان عندي فضل قوة لزرت المدن مدينة مدينة،، ولزرت القرى قرية قرية، ولبذلت وسعيت لكي أكون بلسمًا لأزمات إخواني المادية والمعنوية».

ذلك لأنه جعل حياته وبدنه وماله وقلبه يعيش بشعور العبودية، وكان هذا أكبر دستور لنفسه. وكان على قدر قوته يحتضن كل قلب جريح مكلوم استطاع أن يصل إليه أحيانًا بيده وأحيانًا بقلبه، بل حتى كان يحتضن المخلوقات كلها. وعندما فتحت الأبواب لآسيا



الوسطى ذهب إليها بحيوية ونشاط وحماسة غير متوقعة في سنه المتقدم، ومن ناحية أخرى ذهب إلى أوربا وجنوب إفريقيا، وبذل الجهد لكي يحمل لهم الجماليات المعنوية والاِجتماعية والقلبية.

وبإختصار عاش حياته كلها بحماسة وسعي لكي يكون عبدًا صاحب خصال جميلة مستحقًا للمدح والثناء الذي ورد على لسان الحق ﷻ في القرآن الكريم في قوله: ﴿**نعم العبد**﴾ (ص، ٣٠، ٤٤)

وهكذا لقد ترك لنا هذا الشخص العظيم صدى طيباً يستمر إلى الأبد تحت هذه السماء الفانية. وستظل حياته حياة نموذجية بكاملها مملوءة بوفاء طيب، وسخاء طيب، وقلب طيب، ومناجاة طيبة، وأخلاق طيبة، وبكل جماليات حسنة.

فيا رب أنعم علينا بفيوض من الأنوار العلوية التي في قلبه، ويا رب ارزقنا النجاة يوم العرض عليك في الحضرة الإلهية، والوفاء بما فرضته علينا في الدعوة إلى الحق والخير لإصلاح زماننا.

أِلهي اجعلنا عابري سبيل في هذه الدنيا الفانية، واحفظ قلوبنا من الغفلة والركون إليها. وبينما نطأ الأرض التي تحتنا أنعم على قلوبنا بالحكمة والعرفان العميق لنكون أرضًا تُطأ ذات يوم. واجعل نور الإسلام غذاء أرواحنا ورحاب الروحانيات المحمدية هي رحابنا وهَوَاؤنا. واجعل محبتك ورضاك هي جنة سعادتنا. آمين...



الإِيثار



إن الرحمة هي نار لا تنطفئ أبدًا في قلب أي
مسلم، والرحمة هي أقيم وأثمن جوهر إنسانيتنا
في هذا العالم لأنها تجعلنا نستقيم بطريق القلب
للوصول إلى الحق ﷺ، والمؤمن الرحيم هو كريم
ومتواضع وأهل للخدمة، وفى نفس الوقت هو
طبيب قلبي يقوم بتطعيم الأرواح بالنظام والحياة



الإِيثار

مرَّ عبد الله بن جعفر ﵁ أثناء سياحة له على حائط نخيل، وكان القائم على أمر هذا الحائط عبدًا أسود. وقد أحضر العبد ثلاثة أرغفة ليأكلها، وأثناء ذلك جاء كلب، فألقى له العبد واحداً من الأرغفة الثلاثة فأكله الكلب، فرمى له الآخر فأكله، ثم رمى له الثالث فأكله أيضًا. وعندئذ دار هذا الحوار بين عبد الله بن جعفر ﵁ وذلك العبد الأسود فسأله جعفر: ما أجرك كل يوم؟

فأجابه العبد: هذه الثلاثة أرغفة التي رأيتها.

فسأله جعفر: ولماذا أعطيتها كلها للكلب؟

فأجابه العبد: لا يوجد كلب هنا في هذه النواحي، وهذا الكلب جاء من بعيد فلم يرض قلبي أن أتركه جائعًا.

فسأله جعفر: حسنًا! وماذا ستأكل اليـوم؟

فأجابه العبد: سأصبر، فقد حولت حقي اليوم إلى هذا المخلوق الجائع من مخلوقات الله ﷻ.

فقال له جعفر: سبحان الله يقولون عني أني كريم للغاية، ولكن هذا العبد هو أكرم مني!!.

وعقب ذلك اشترى جعفر هذا العبد والحائط من صاحبهما وأعتقه لوجه الله ووهب له الحائط (الغزالي، كيمياء السعادة، ص ٤٤٠)



وهكذا فإن الإسلام الذي ربى أشخاصًا رحماء ذوي إحساس عميق بالشفقة قد فرض الزكاة ليؤمّن المحبة، ويزيل الخصومة والحسد بين الفقير والغني في النظام الأِجتماعي.

وقد حث الإسلام على الإنفاق الذي كان ضرورة وجدانية وذلك من أجل تحقيق مستوى أخوة أكثر علوًّا، ولكي يجعل كل مؤمن «صاحب قلب غني»، ويرتفع به إلى القمة في الإيثار، لأن الغاية الحقيقية للدين بعد تصديق وحدانية الله ﷻ هي تحقيق السكينة للمجتمع عن طريق تربية وتنشئة الإنسان الجميل، الإنسان الرحيم، الإنسان عميق الإحساس.

وهذا النضج هو أن تستطيع أن تقتسم ليس شعور الشفقة والرحمة التي تظهر في القلب فقط، بل أن تقتسم نفس الإمكانيات كأجمل مظهر من مظاهره، حتى نستطيع أن نصل إلى فضيلة ومستوى يفوق هذا بأن نستغني عن النعيم الذي في أيدينا رغم حاجتنا إليه، وأن ننفقه هو الأخر رغم تلك الحاجة وهذا ما نسميه بـ«**الإيثـار**».

فالرحمة نار لا تنطفئ أبدًا في قلب أي مسلم، والرحمة هي أقيم وأثمن جوهر إنسانيتنا في هذا العالم، لأنها تجعلنا نستقيم بطريق القلب للوصول إلى الحق ﷻ. والمؤمن الرحيم كريم ومتواضع وأهل للخدمة، وفى نفس الوقت هو طبيب قلبي يقوم بتطعيم الأرواح بالنظام والحياة.



مرة أخرى فإن المؤمن الرحيم هو في الحقيقة منبع الأمل والإيمان الذي يعرف أن يؤدي خدمته في كل مكان بالحب والشفقة، وهو يوجد في الصف الأمامي لكل سعي يهب السكينة للأرواح. وهو مرة أخرى يأخذ مكانه بجوار كل شدة ومصيبة وأزمة بقوله وحاله وكتابته. وهو يقف بجانب المتألم والمضطرب واليائس ومن لا ناصر له، لأن أول ثمار الإيمان لدى أي مؤمن هي الرحمة والمرحمة. فأخلاق الإنسانية تكتمل بالقرآن، وأول صفة إلهية تُطَالعنا عندما نفتح المصحف الشريف هي صفة «**الرحمن**» «**الرحيم**».

فربنا ﷻ قد وصف ذاته العلية بأنه «**أرحم الراحمين**»، وأمر عباده أن يتخلقوا بأخلاقه، وعلى ذلك يجب على كل قلب مؤمن أن يكون مملوءً بمحبة الحق ﷻ، ويجب عليه أن يشمل كل مخلوقات الرب تعالى بالشفقة والرحمة. ونتيجة محبة الرب تعالى هي التوجه إلى مخلوقاته بالمحبة والرحمة، فمن يُحب أن يَرى تضحيته تجاه المحبوب على أنها واجب وحب، فالإنفاق على مخلوقات الله تعالى يُعَد محبة لله تعالى.

وفى الحقيقة كم هي كثيرة أنواع الإنفاق والصدقة التي هي إسم عام على العطاء في سبيل الله. أما ذروة تلك الأنواع فهو الإيثـار كما علمنا. وهو فضيلة أن تفضل حاجات الغير على حاجات نفسك. وكل مؤمن ناضج هو مظهر في أعلى نقطة لمساعدة الغير،



وحب الخير للغير الذي هو عمل وجداني. فمثلاً سُئل محمد حكيم الترمذي -قدس سره- ذات مرة: «ما العطاء؟»، فكان جوابه: «العطاء هو أن تجد الراحة والسكينة مع فرحة الآخرين».

والدخول إلى رحاب الإيثار النوراني هو عمل القلوب الرقيقة، والأرواح اللطيفة فقط. وهذه الحال قد قُدمت في أجمل صورة وأروعها في حياة الأنبياء وأهل الله.

وبالقطع ليس إنفاق كل شخص يمكن أن يصعد به إلى القمة أو يوصله إلى النجوم العالية، ولكن أن نخطو أصغر خطوة في شأن الإيثار تجعلنا نقترب بأي قدر إلى تلك الآفاق أو نحصل على قدر ضئيل مما وصلوا إليه سيكون ذلك بالنسبة لنا عملاً أبدياً خالد لا يمكن أن نصرف أنظارنا عنه.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلاً، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَقُلْنَ مَا مَعَنَا إِلاَّ الْمَاءُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

"مَنْ يَضُمُّ، أَوْ يُضِيفُ هَذَا"

فَقَالَ: رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ أَنَا. فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ،

فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلاَّ قُوتُ صِبْيَانِي.

فَقَالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً. فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا،



ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ، فَجَعَلاَ يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلاَنِ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبحَ، غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:

"**ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ ـ أَوْ عَجِبَ ـ مِنْ فَعَالِكُمَا**" فَأَنْزَلَ اللَّهُ:

﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (البخاري، مناقب الأنصار، ١٠؛ مسلم، الأشربة، ١٧٢)

ومثالٌ آخر أيضًا أن السيد محمود سامي -قدس سره- أحد أولياء وأحبّاء الحق رغم أنه درس الحقوق والقانون، إلا أنه لم يشتغل بتلك المهنة خشية وخوفا من أن يجير على حق أحد العباد، وفضّل أن يتولى الحسابات في احدى المؤسسات التجارية في «تحطه قلعة» في أِسطنبول. وكان السيد سامي يعبر بالباخرة إلى حي «قره كوي» للذهاب إلى العمل. وبدلاً من أن يركب الحافلة من «قره كوي» حتى تحطه قلعه، كان يذهب سيرًا على الأقدام لينفق نقود الحافلة على المحتاجين، وكانت أخلاق الكبار وأحوالهم العالية هذه أجمل نموذج لنـا.

وفى الحقيقة يجب أن يسعى كل فرد ليأخذ قدرًا على قدر استطاعته من هذه الأخلاق العالية حتى بالتضحيات الصغيرة التي سيقدمها من راحته الشخصية ومن زينة المنازل، ومن المصروفات اليومية.

والإيثار أيضًا هو ذروة الكرم، لأن **الكرم** أن يعطي من يستحق من فضل ماله. أما **الإيثار** فهو إعطاء شيء أنت تحتاج إليه. والمكافأة



المعنوية للإيثار تكون على قدر تضحية العبد. فالله تعالى قد مدح الأنصار الكرام ﵃ لأنهم حولوا أماكنهم للمهاجرين المَكِيين، وفضلوا حاجات المَكِيين على حاجاتهم الشخصية.

وقد نزل قرآن في هذا الشأن يقول فيه ﷻ:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر، ٩)

وفى معركة اليرموك عندما سقط ثلاثة جرحى من المسلمين وطلبوا الماء في النزع الأخير، وعندما أُحْضِر الماء آثر كل واحد منهم أن يشرب أخوه قبله حتى استشهدوا جميعهم قبل أن يشرب أحدهم شربة ماء، وهم أشد ما يحتاجون إليه في نفسهم الأخير.

عن ابن عمر ﵄ قال: أهدي لرجل من أصحاب رسول ﷺ رأس شاة فقال: إن أخي فلانا و عياله أحوج إلى هذا منا قال: فبعث إليه فلم يزل يبعث به واحدٌ إلى آخر حتى تداولها سبعة بيوت حتى رجعت إلى الأول (الحاكم، المستدرك، ٢، ٥٢٦/ ٣٧٩٩)

ومرة أخرى عندما كان سيدنا عمر بن الخطاب ﵁ في طريقه إلى الشام جاءت النوبة على عبده ليركب الناقة رغم أنه كان على أبواب المدينة، وأصّر عمر ﵁ على أن يركب العبد وسار بجانبه ودخل العبد المدينة وهو راكب على الناقة وعمر بن الخطاب ﵁ يسير بجواره، وكان ذلك مظهرًا للإيثار والإنفاق لا يمكن تخيله.



وعلى هذا فإن الإنفاق لا يكون بالمال فقط في كل وقت، بل إنه يمكن القول بأن للإنفاق أنواعًا ووجوهًا عديدة.

والإيثار هو أعلى درجات الإنفاق وهو أن تقتطع من نفسك وتعطي لأخيك في الدين نصيبك أنت، وهو شكل من الإنفاق في مستوى عال يخص الأنبياء والصحابة وأولياء الله والعباد الصالحين.

وقد عبّرت أحوال سيدنا على بن أبى طالب والسيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنهما عن حقيقة الإيثار أجمل تعبير، فقد ذكر ابن عباس أن قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً﴾ (الإنسان، ٨-٩)

قد نزل في علي وفاطمة وأولادهما رضي الله عنهم. فقد نذر علي رضي الله عنه نذرًا وهو أنه سيصوم ثلاثة أيام لو شفاه الله تعالى ، فلما برأ صنع خبزًا من الشعير، وكان عنده ما يكفيه ثلاثة أيام فقط. فلما صنع ثلثه في اليوم الأول، وجاء وقت الإفطار طرق الباب مسكين جائع فأعطوه الطعام وأفطروا على الماء. ولما جاء اليوم الثاني صنع ثلثه، فلما جاء وقت الإفطار طرق الباب يتيم جائع يطلب الطعام فأعطوه ما معهم وأفطروا على الماء. ولما جاء اليوم الثالث صنعوا ثلث الشعير الأخير، ولما جاء وقت الإفطار طرق الباب أسير جائع يطلب الطعام فأعطوه ما معهم من الطعام. (أنظر: الألوسي، روح المعاني، سورة الإنسان، ٢١)



لقد ضَرَبَت تلك العائلة المباركة أروع الأمثلة في الصبر والإيثار وحب الغير والكرم والأخلاق العالية لذا استحقوا أن تنزل فيهم تلك الآيات الكريمة.

ولوحة أخرى للإيثار من عصر النبوة الكريم حيث يحكي أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير فيقول: «كنت في الأسرى يوم بدر فقال رسول اللهﷺ: **"استوصوا بالأسرى خيرًا"**

وكنت في نفر من الأنصار، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر، وأطعموني البُر لوصية رسول الله ﷺ» (ابن هشام، جـ. ٢، ٢٨٨؛ الهيثمي، جـ. ٦، ٨٦)

وأي من المخلوقات لا يمكن أن يُقاس برسول الله ﷺ في السخاء والإنفاق والإيثار. فقد كان ﷺ في أعلى مستوى في كل أنواع الكرم. فقد حوى في نفسه -في سبيل الله تعالى- أنواع الكرم كلها، كرم العلم، وكرم المال، وكرم النفس. فقد بيّن دين الله تعالى وأرشد عباد الله إلى الطريق المستقيم، وأطعم الجائعين، ونصح الجهلاء، وأعطى الحاجات لأصحابها، وتحمّل الأذى والصعاب، كل ذلك في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ.

وكان صَفْوَانُ بن أمية أحد كبار المشركين -ولم يكن قد أسلم بعد- قد شهد مع رَسُولُ اللّهِ ﷺ حُنَيْنًا، وَالطّائِفَ، ثُمّ رَجَعَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ إلى الجعرانة،فبينما رسول الله ِ ﷺ يَسِيرُ فِى الْغَنَائِمِ يَنْظُرُ



إِلَيْهَا، وَمَعَهُ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيّةَ، جَعَلَ صَفْوَانُ يَنْظُرُ إِلَى شِعْبِ مُلِئَ نَعَمًا وَشَاءً وَرِعَاءً فَأَدَامَ إِلَيْهِ النّظَرَ، وَرَسُولُ اللّهِ ﷺ يَرْمُقُهُ فَقَالَ: "**أَبَا وَهْبٍ يُعْجِبُكَ هَذَا الشّعْبُ**؟" قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: "**هُوَ لَكَ وَمَا فِيهِ**". فَقَالَ صَفْوَانُ عِنْدَ ذَلِكَ: «مَا طَابَتْ نَفْسُ أَحَدٍ بِمِثْلِ هَذَا إِلاّ نَفْسُ نَبِيّ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاّ اللّهُ، وَأَنّ مُحَمّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَسْلَمَ مَكَانَهُ».

فأتى قومه فقال: «أي قوم أسلموا فوالله أن محمداً ليعطي عطاء ما يخاف الفقر

فقال: أنس إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها» (مسلم، فضائل، ٥٧-٥٨؛ أحمد، جـ.٣، ١٠٧)

والإيثار في الحقيقة هو أعظم أنواع الكرم، ويجب أن نفكر في أن كثيرًا من المعاندين في الكفر قد تحولوا إلى الإنصاف، وانقلب كثير من الأعداء إلى أولياء دخلوا في الإسلام، وزادت محبة الكثير من المؤمنين لإخوانهم المؤمنين بسبب كرم كهذا من رسول الله ﷺ والصحابة والعباد الصالحين.

ولم يتوان رسول الله ﷺ عن تلبية أي أمر طُلب منه، وذات مرة أصاب تسعين ألف درهم فوضعها على حصير أمامه وظل ينفق منها على المحتاجين حتى فنيت تمامًا.



البِرُّ :

إن ما يُعبر عنه **بالبر** في القرآن الكريم هو فضيلة من فضائل الأنفاق على من تحب، وهو إنفاق في درجة عالية مثل الأِيثار تمامًا.

ومما لاشك فيه أن رسول الله ﷺ الذي كان نموذجًا مثاليًا في سائر الفضائل الأخلاقية، كانت شخصيته تبلغ الذروة التي لا يطاولها أحد في هذا الأمر وهو **البر**.

وتلك القصة أيضًا التي نذكرها آنفًا هي أجمل مثال على فضيلة الإنفاق والإيثار، فقد اجتمع الصحابة ذات يوم في المسجد النبوي الشريف يستمعون إلى كلمات رسول الله ﷺ النورانية، وأخذ رسول الله ﷺ يتلو تلك الآية الكريمة:

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران، ٩٢)

وكان الصحابة يستمعون إلى رسول الله ﷺ وهم في وجد عميق يستشعرون المعاني العميقة في تلك الآية الكريمة التي لمست شغاف قلوبهم، وأحسوا أن تلك دعوة نبوية للإنفاق في سبيل الله تعالى يجب عليهم المسارعة إلى تلبيتها والأِستجابة لها. فنهض صحابي فجأة والنور الإلهي يفيض على وجهه وكان هذا الصحابي هو أبو طلحة رضي الله عنه، وكان لأبى طلحة هذا بستان قريب



من المسجد النبوي فيه ستمائة نخلة وكان يحب هذا البستان كثيرًا، فجاءَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّه يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِه:﴿**لَن تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾

وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بِيرُحَاءَ - وكَانَتْ حَدِيقَةً كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَسْتَظِلُّ بِهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا - فَهِيَ إِلَى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى رَسُولِه ﷺ أَرْجُو بِرَّهُ وَذُخْرَهُ، فَضَعْهَا أَيْ رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

"بَخْ يَا أَبَا طَلْحَةَ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، قَبِلْنَاهُ مِنْكَ وَرَدَدْنَاهُ عَلَيْكَ، فَاجْعَلْهُ فِي الأَقْرَبِينَ"

فَتَصَدَّقَ بِهِ أَبُو طَلْحَةَ عَلَى ذَوِي رَحِمِهِ.(البخاري، الوصايا، ١٧)

وهكذا فإن وجود مثل هذه الأخلاق الحميدة في الأرواح وتأصُلها في أبى طلحة وأمثاله من الصحابة الكرام لا يجعلنا نستغرب كيف تكوّن جيل لم تعرفه الإنسانية مثل جيل الصحابة، وعصر لم يعرفه الزمن على وجه الأرض مثل عصر السعادة.

وكان رسول الله ﷺ يحث على الإنفاق حتى لمن لا يملك شيئًا، فمثلاً كان يدعو أبا ذر رضي الله عنه للإنفاق ويحثه على البذل ، وكان أبو ذر من أفقر الصحابة فكان يقول له:

"يا أبا ذر إذا طبخت مرقة، فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك" (مسلم، البر، ١٤٢)



فالمؤمن يجب أن يكون منيرًا كالقمر في الليلة الظلماء، حساسًا رقيقًا، مُحبًّا للغير، كريمًا، رحيمًا، شغوفًا، جياشًا بالحماسة للإنفـاق.

وفي عصرنا الحاضر فإن الحاجة شديدة للإنفاق والإيثار على قدر الأِستطاعة، ويجب ألا ننسى أنه كان من الممكن أن نكون مكان هؤلاء البشر المحتاجين المضطرين. ولهذا السبب فإن إنفاقنا وإيثارنا للمرضى والضعفاء والمُبتلين الجائعين والبؤساء هو دين شكر نؤديه لربنا ﷻ.

لذا يلزم علينا أن نقتسم النعم التي في أيدينا مع المحتاجين لأن القلوب التي أسعدناها وأدخلنا عليها السرور ستكون هي قوتنا المعنوية في الدنيا، ومددنا في الآخرة، وسعادتنا في الجنة.

فيا رب لتكن مظاهر الرحمة كلها خزائن حياتنا القلبية التي لا تنفد، ويا ربنا اجعل لنا نصيبًا من حياة سيد العالمين ﷺ المملوءة بالإيثـار ومن سار على نهجه من عظماء الإسلام. آمين. ..

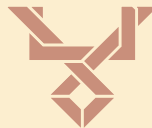




الأِستغناء



الأِستغناء هو وصف للقلب الصالح الصادق الذي يتخلص من غلظته ويصل إلى الكمال، وهو أن تقنع بما في اليد بغنى القلب ولا تطمع في ما ليس لك. فالقناعة كنز لا يفنى. وتبعًا للحديث الشريف فإن وصول القلب إلى السكينة والراحة يكون في أِثْرائهِ معنويًا عن طريق قرب القلب من الحق ﷻ



الأِستغناء

عندما هاجر المسلمون من مكة الى المدينة تركوا خلفهم كل ما يملكون من متاع الدنيا وفي هذا السياق فقد آخى الرسول ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع رضي الله عنهما فيقول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه:

«تركت خلفي في مكة كل مالي؛ فلما هاجرت إلى المدينة آخى رسول الله ﷺ بيني وبين سعد بن الربيع من الأنصار فقال لي سعد بن الربيع رضي الله عنه إني أكثر الأنصار مالاً، فاقْسِم مالي نصفين».

أما رد عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فكان فيه الأِستغناء كله، حتى قال:

«بارك الله لك في أهلك ومالك ولكن دلني على طريق السوقِ».

وذهب عبد الرحمن بن عوف إلى السوق، ولم تمض أيام طويلة حتى أصاب مالاً كثيرًا، ودخل عبد الرحمن بن عوف في زمرة «الأغنياء الشاكرين» (انظر: البخاري، البيوع، ١)

وبعد ذلك مرت أعوام وأدرك المؤمنون عهد قوة الإسلام وعظمته ومنعته، ويروى أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أتي بطعام



وكان صائماً فقال: قتل مصعب بن عمير وهو خير مني كفن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه وإن غطي رجلاه بدا رأسه . وأراه قال وقتل حمزة وهو خير مني ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط أو قال أعطينا من الدنيا ما أعطينا وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام.

هكذا ما أجمل حال الزهد والإستغناء عند كبار المسلمين الذين تعكس أخلاقهم تجاه الدنيا وعبوديتهم التي عرضوها في طريق الحق ﷻ، لأن **الزهد** في عالمهم هو فناء كل ما سوى الحق ﷻ في القلب بحبه تعالى وخشيته. أما **الإستغناء** فهو شعور قلبي أعلى من الزهد.

والإستغناء تبعًا لهذا هو وصف قلبي للصالحين والصادقين الذين تخلصوا من غلظتهم ووصلوا إلى الكمال، وقنعوا بما في أيديهم بغنى القلب ولم يطلبوا المزيد. وتبعًا للحديث الشريف القائل: «**القناعة كنز لا يفنى**» (الديلمي، المسند، ٤٦٩٩)

فإن وصول القلب إلى السكينة والراحة يكون في إِثْرائِهِ معنويًا عن طريق قرب القلب من الحق ﷻ، لأن أي قلب ممتلىء ثراءً بالقناعة يجد السلامة من الهموم والمخاوف الدنيوية. فالروح تدرك الخلود، ولكن جاذبية الخطوط الغائبة عند المؤمن تفني عمره وتستهلكه.وحياة أحبّاء الحق تعالى -الذين أثروا قلوبهم معنويًا وعاشوا هذه الحال على أكمل وجه- مليئة بالأمثلة على الإستغناء:



فهذا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد فتح الله عليه في خلافته بلاداً مثل سوريا، فلسطين ومصر، ودخلت أراضي إيران بكاملها ضمن حدود الدولة الإسلامية، وبدأت تتدفق على المدينة المنورة عاصمة الخلافة خزائن الروم والفرس الغنية، وزادت حال المؤمنين رفاهية وغنى. ولكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خليفة المؤمنين كان في ذروة قلبية مستغنيًا عن كل هذه المتع، ورغم عظمة الدولة وثراء بيت المال، إلا أنه كان يخطب في المسلمين في ثياب مرقعة، وكان يصر على أن يعيش حياة خشنة، لأنه كان يفضل أن يأخذ من خزينة بيت مال المسلمين على قدر ما يكفيه فقط كفاف العيش حتى وإن ضاقت به الحال مع ذلك.

عَنْ طَاوُس وَعِكْرِمَةَ بْنِ خَالِدٍ: أَنَّ حَفْصَةَ وَابْنَ مُطِيعٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ كَلَّمُوا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالُوا لَوْ أَكَلْتَ طَعَامًا طَيِّبًا كَانَ أَقْوَى لَكَ عَلَى الْحَقِّ قَالَ: أَكُلُّكُمْ عَلَى هَذَا الرَّأْىِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْكُمْ إِلاَّ نَاصِحٌ وَلَكِنْ تَرَكْتُ صَاحِبَىَّ عَلَى جَادَّةٍ فَإِنْ تَرَكْتُ جَادَّتَهُمَا لَمْ أُدْرِكْهُمَا فِى الْمَنْزِلِ. قَالَ : وَأَصَابَ النَّاسَ سَنَةٌ فَمَا أَكَلَ عَامَئِذٍ سَمْنًا وَلاَ سَمِينًا حَتَّى أَحْيَا النَّاسُ. (البيهقي، السنن الكبرى، ٩، ٤٢)

ومما لاشك أن سلوك سيدنا عمر رضي الله عنه هذا كان أثرًا ونتيجةً لشعور قلبي عالٍ، وقد كانت مناقب سيدنا عمر الفاضلة -الذي وزع العدالة على العالم كله وعاش بالفعل الحق والقانون- لا تعد ولا تحصى.



وكان ﷺ من أجمل النماذج وأميزها التي تُتخذ نبراسًا ونموذجًا في التربية المعنوية.

وفي الحقيقة فإن البشر يقدرون الفنانين والأذكياء النوابغ، ولكن لا يتوجهون لتقليد تصرفاتهم وسلوكياتهم الشخصية.

أما الأحق بالتقليد والاِتباع فهم الأشخاص أصحاب الوقار والإستغناء والفطر السوية. وبعد رحيل هؤلاء الكبار تنتقل حياتهم للأمة كمثال لتعليم الفضيلة وأخذ العبرة والعظة.وكان رسول الله يقول لأصحابه الذين اقتفوا أثره واتبعوا هداه:

"طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ إِلَى الإِسْلاَمِ وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وَقَنعَ"

(الترمذي، الزهد ٣٥)

لذا فقد أدرك الصحابة أنهم لا يستطيعون أن يلحقوا بتلك القافلة العلوية ما لم تكن لحياتهم نفس النظرة التي كانت لرسول الله ﷺ والخاصة بالدنيا.

وهم عندما تلقوا تلك التربية والتعليم النبوي أصبحوا هُداة للأمة يعرضون لها أنواع الفضائل المختلفة. وهم أيضًا قد علموا الإنسانية كلها فضيلة الإيثار وهي أن يتنازل المؤمن لأخيه المؤمن عن طيب خاطر عن النعمة التي يملكها لو وجد أخاه أكثر حاجة لها. قالت عائشة رضي الله عنها:«لو شئنا أن نشبع شبعنا و لكن محمداً ﷺ كان يؤثر على نفسه» (البيهقي، شعب الإيمان، ٢، ١٧٣)

ويحكي جابر ﷺ تلك القصة التي حدثت في وقت العُسرة والضيق عندما كان المسلمون يحفرون الخندق قبل غزوة الأحزاب فيقول: «بينما كنا يوم الخندق نحفر إذا عرضت لنا صخرة شديدة فجاء رسول الله ﷺ فقال: إني نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر ﷺ – ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق طعامًا–

فأخذ النبي ﷺ المِعْوَل فضرب فعاد كثيبًا مهيلاً. وعندما رأيت الحجر على بطن الرسول ﷺ انكفأت إلى امرأتي

فقلت لها: هل عندك شيء؟ فإني رأيت برسول الله ﷺ خمصًا شديدًا. فأخرجت لي جرابا فيه صاع من شعير. ولنا بهيمة داجن. قال: فذبحتها وطحنت. ففرغت إلى فراغي. فقطعتها في بُرْمتها.

ثم وليت إلى رسول الله ﷺ. فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ ومن معه. قال: فجئته فساررته. فقلت: يا رسول الله! إنا قد ذبحنا بهيمة لنا. وطحنت صاعًا من شعير كان عندنا. فتعال أنت في نفر معك. فصاح رسول الله ﷺ وقال:

"يا أهل الخندق! إن جابرًا قد صنع لكم سوراً. فحيهلا بكم".

وقال رسول الله ﷺ:

"لا تنزلن بُرمتكم ولا تخبزن عجينتكم، حتى أجيء"

فجئت وجاء رسول الله ﷺ يتقدم الناس. حتى جئت امرأتي. فقالت: بك... وبك. فقلت: قد فعلت الذي قلت لي. فأخرجت له



عجينتنا فبصق فيها وبارك. ثم عمد إلى بُرمتنا فبصق فيها وبارك. ثم قال:

"أُدعي خابزة فلتخبز معك. واقدحي من بُرمتكم ولا تنزلوها".

فأقسم بالله! لأكلوا حتى تركوه وهم ألف وانحرفوا. وإن بُرمتنا لتغط كما هي. وإن عجينتنا لتخبز كما هي. وخاطب أهلي فقال لهم: **"أكرموا به جيرانكم لأن الجوع قد شمل الناس"** (انظر: البخاري، المغازي، ٢٩؛ مسلم، الأشربة، ١٤١)

وهذه اللفتة النبوية الكريمة في هذا الحديث الشريف توجهنا إلى أن الرسول لم يرض أن يأكل وأصحابه جوعى أو أن يأكل بعض أصحابه ويظل الجوع يقرص بطون أصحابه الآخرين. ولأن قلبه ملئ بالرحمة والشفقة وحب الخير لأمته لذا فقد طلب من الصحابة أن يحضروا معه الطعام ولم يأكل حتى أكلوا وشبعوا. فضلاً عن ذلك كان يخدم أصحابه بنفسه وبعد أن شبع أصحابه كلهم طلب من أهل البيت أن يوزعوا ما بقي من الطعام. كل هذه كانت مظاهر للرحمة الواسعة والشفقة العظيمة التي كانت في قلبه .ولأنه كذلك لا ينسى أمته يوم القيامة قائلاً: " **أمتي أمتي**" لذا فنحن نلجأ إلى رحمته وشفقته تلك قائلين: «**الشفاعة يا رسول الله**».

وكان رسول الله ﷺ الرحمة المُهداة للعالمين لتقواه وزهده يقنع بالقليل في السرّاء والضراء، وفى السِعة والضيق وكان يتضرع إلى الله تعالى قائلاً: " **اللهم ارزق آل محمد قوتاً** " (البخاري، الرقاق، ١٧)



مرة أخرى تحكي عائشة أم المؤمنين ﵂ فتقول: «دخلت علي امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ قطيفة مثنية فانطلقت فبعثت إلي بفراش حشوه الصوف فدخل علي ﷺ فقال: **"ما هذا يا عائشة"** قالت : قلت يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلت علي فرأت فراشك فذهبت فبعثت إلي بهذا فقال:

"رديه يا عائشة فو الله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة" (البيهقي، شعب الإيمان، ٢، ١٧٣):

والزهد والتقوى التي هي شعار الذين يفضلون هذا الأسلوب النبوي في مواجهة الحياة والحوادث هذه المفاهيم تفهم خطأ أحيانًا.فيعتقد بعض الناس أن هذا يعنى التخلي بشكل كامل عن نعم الدنيا وعن الغنى والثراء.

والحال هكذا فإن العبادات الحالية التي تؤدى في الحياة لها قيمة كبيرة عند الحق ﷻ فالقرآن الكريم قد ذكر كلمة الإنفاق في مائتي موضع. كما أن إيتاء الزكاة والحج اللذين يشكلان الركن الثاني والخامس من أركان الإسلام يتحققان بأن يكون العبد صاحب قدر من الثراء والغنى لكي يستطيع الوفاء بهما.

فضلاً عن ذلك فإن القاعدة الإسلامية التي تقول: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**» هي السبب الآخر الذي يحث على أن يكون لك نصيب من تلك العبادات. والزهد في تلك الحال لا يمكن أن يكون مناقضًا لأمر يدعو ويحث عليه الدين.



إن سلوك الإستغناء تجاه نعم الدنيا خشية الوقوع في الذنب والغفلة هي حقيقة يوجبها الزهد والتقوى، لكن الإستغناء هو أمر قلبي وليس فعلاً ظاهريًّا.

أي أن الزهد والاِستغناء هما تمتع الإنسان بنعم الدنيا دون أن ينغرس حبها في القلب. وعلى هذا النحو فإن الزهد ليس هو الفقر، بل هو سلوك قلبي لازم لكل مؤمن غنيًّا كان أو فقيراً. وأي شخص يعيش في فقر وحاجة نتيجة المشيئة الإلهية لو انجر قلبيًا خلف الرغبات الدنيوية لا يمكن أن يعد من أهل الزهد والاِستغناء. لأن الزهد والإستغناء ليس هو القناعة بالقليل كرها نتيجة القدر، بل هو حفظ القلب بشكل إرادي عن أن يكون أسيرًا للدنيا.

وهذه القصة على سبيل المثال لَهِيَ أجمل إيضاح لهذا القانون.

فقد كان السيد محمد پارسا أحد الأولياء الكبار-الذين ربوا السيد شاه النقشبند- في طريقه للحج وفى مدينة بغداد قابل شابًّا يعمل صرافًا، وكان هذا الشاب في بيع وشراء دائمين مع كثير من المشترين دون توقف، وظن السيد محمد أن هذا الشاب يمضى وقته في المشاغل الدنيوية وحزن لهذا الشاب.

وقال من أجل ذلك:

«وآسفاه لقد غرق هذا الشاب في الاِنشغال بما سوى العبودية للحق عَزَّ وَجَلَّ».



ولكن عندما نظر إلى قلب ذلك الشاب أصابته الحيرة، لأن أعضاء هذا الشاب كانت مشغولة بالدنيا أما قلبه فكان مع ربه في ذكر دائم.وهذه المرة قدر الشاب وقال:

«ما شاء الله! السيد في العمل والقلب عند الحبيب».

وعندما وصل إلى الحجاز قابل شيخًا أبيض اللحية يبكى بحرقة وهو مُعلق بأستار الكعبة. وعندما نظر أولاً إلى مظهر الرجل الخارجي وتضرعه إلى الله ﷻ، أخذ يغبط الرجل على حاله:

«ليتني ألجأ إلى الحق ﷻ باكيًا مثل هذا الرجل».

ولكن بعد ذلك عندما نظر إلى قلبه وجد أن هذه الدعوات والدمعات كلها من أجل طلب دنيوي فانٍ، وعند ذلك حزن قلبه الرقيق على حال ذلك الرجل.

والواقع أن ما نفهمه من هذه القصة هو شيء مهم للغاية وهو أنه يمكن الاِستمرار والمداومة على المشاغل الدنيوية دون إهمال الآخرة.

وهذا مولانا جلال الدين الرومي -قدس سره- يشبه الاِنسان في الحياة الدنيا بسفينة تسبح في بحر الوجود فيقول:

«لو كان البحر تحت السفينة فإنه يكون سنداً وعوناً لها. ولكن لو بدأت موجات ذلك البحر تدخل إلى داخل السفينة لكان في ذلك هلاكها».



إن الخطر المعنوي المتمثل في إنشغال الفرد بمتع الدنيا وانقطاعه عن الله تعالى هو حقيقة لا يمكن إنكارها، وقد نبه القرآن الكريم إلى هذا الخطر معبرًا عنه بتعبير الفتنة المتمثلة في المال والبنون. وتبعًا لهذا فإنه يجب أن نحمى القلب من الغفلة عندما يكون مشغولاً بالدنيا، لأن القلب الذي لا يُمنع عن محبة الدنيا هو قلب ملعون مطرود من رحمة الله حتى لو بلغ ذروة الدنيا.

يقول رسولنا الكريم :

"حلوة الدنيا مرة الآخرة ومرة الدنيا حلوة الآخرة" (الحاكم، المستدرك، جـ.٤، ص٣٤٥)

ويقول في حديث آخر:

"إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا" (مسلم، الذكر، ٩٩)

ذات يوم بينما كنا خارجين من المنزل سمعت في الخارج صياحًا مزعجًا مؤذياً لقطين، فإنزعجت وعندما خرجت إلى الحديقة وانتهيت إليهما،رأيت أن القطين يتواجهان ويتحفز كل منهما للهجوم على الآخر مثل نمر صغير. وكانا يحدقان في بعضهما وكان الشرر يخرج من عينيهما دون أن يهتزا أو يصدرا صوتًا، وكانت مخالب القطين بارزة منتصبة. وكانا يتشاجران حتى يكاد كل منهما يمزق الآخر في هذه المعركة. وبينما كنت أفكر متعجباً ما سبب هذا الطمع البالغ الحد؟! فإذا بي أرى بينهما شيء تافه لقد كان بينهما



فأرة ميتة. ربما دخل القطان في هذا الصراع للحصول على جيفة هذه الفأرة. ربما كانت جيفة فأرة صغيرة بينهما هي سبب الضرر والخراب والتلف الذي سعى كل منهما ليلحقه بالآخر!

إن هذا المشهد يعرض عبرًا كبيرة، و يعكس النتائج الوخيمة التي يُبتلى بها من لا يستغني عن جيفة قذرة. ومن هذه الناحية فإن الذين يطلبون الدنيا يفضلون أن يخسروا الآخرة في سبيل أطماعهم التافهة، فكم من أصحاب الغفلة ضاقت أنفسهم وتعبوا وهم يسعون خلف دعوات الرئاسة، والمواقع الزائلة، والرغبات والأهواء الفانية والتي هي في الأساس جيفة قذرة. وكان هؤلاء يحسبون أن هذه الأشياء خالدة أبدًا لن تزول. والأساس في السعي لامتلاك هذا الفناء يكمن في توجيه استغناء العبد ورغبته إلى المكان الخطأ، وفى هـــــذا يقول الحق عَزَّ وَجَلَّ:

﴿**كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى. أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى. إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى**﴾

(العلق، ٦-٨)

إن أي إنسان بسيط معنويًا يضطرب قلبه ويخفق بالطمع والحرص في السعي خلف منافع الدنيا، وعندما يمتلك شيئًا ما يغرق في سكرة الغفلة، ولو لم يمتلك شيئًا لخنقه الهم والكدر هذه المرة.

إن الاِهتمام والتفكير أكثر من اللازم في المال، والمكانة والرزق يحول القلب إلى عبد للدنيا مطيعاً لها. وما أعظم البيان



النبوي! الذي يوضح هذا الأمر حيث يقول الرسول ﷺ :

"مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ الْمَعَادِ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِ أَوْدِيَتِهِ هَلَكَ" (ابن ماجه، الزهد،٢)

وهكذا الدنيا عندما تكُونُ حاجزًا بين العبد وربه فإنها تؤدي إلى هلاك العبد معنويًا. وكلما إستمرت هذه الغفلة تحول ذلك العبد إلى إنسان في الظاهر، وإن كان في حقيقته غير ذلك. وتؤدي به إلى أن يدخل في زمرة من قال فيهم رسول الله ﷺ:

"يأتي على الناس زمان همتهم بطونهم وشرفهم متاعهم وقبلتهم نساؤهم ودينهم دراهمهم ودنانيرهم أولئك شرار الخلق لا خلاق لهم عند الله" (علي المتقي، كنز الحديث، ٣١١٨٦) فاللهم احفظنا أجمعين.

وفى حديث آخر قال رسول الله ﷺ لأصحابه:

"فَوَ اللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ"(البخاري، الرقاق، ٧)

ولهذا السبب يجب الحذر من إعطاء أهمية أكثر مما يجب لهذه الدنيا الفانية وانشغال القلب بها فوق الحد. فالدنيا هي قطرة في ملك الله رب العالمين وقد عبر عن ذلك رسول الله ﷺ في حديثه



فقال: **"والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه** – وأشار بالسبابة– **في اليم فلينظر بما يرجع"** (مسلم، الجنة، ٥٥)

ويقول ربي ﷻ:

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت، ٦٤)

فالدنيا ليست شيئًا مذكورًا في قلب الذين يعرفون هذه الحقيقة، وغاية هؤلاء الوحيدة هي رضاء الله تعالى. وما أجمل تلك الأشعار ليونس أمره حين يقول:

لا الوجود يسعدني.
ولا الفناء يؤسفني.
بعشقك أستأنس وأتصبر.
أنا فقير إليك أنا محتاج إليك.

فالواقع أن شهوات الدنيا وأموالها وزخرفها -التي تضل كثيرًا من العباد والتي تخدع عيون الغافلين وتغرهم- لا تساوي أي قيمة عند أصحاب القلوب السليمة. فأولياء الله والمؤمنون الصالحون يضعون رضاء الله تعالى نصب أعينهم دائمًا، ولا يتخلفون مثقال ذرة عن طريقه، وهؤلاء في حال يقظة دائمة تجاه زخارف الدنيا وخداعها. يقول يحيى بن معاذ رضي الله عنهما:

«العارف يضع الآخرة في يمينه والدنيا في شماله، ويحول قلبه إلى الحق ﷻ، ولا ينشغل بأي شيء آخر سوى الحق ﷻ».



ويقول مولانا جلال الدين -قدس سره-: «الدنيا هي الغفلة عن الله تعالى، فليست الدنيا أن تكون صاحب مال ونساء وأولاد ومتاع، بل الدنيا هي أن تنخدع وتغفل عن الحق ﷻ».

أي أن الأِستغناء ليس ضد المال والملك والثروة، بل يجب الحذر قلبيًّا ومعنويًّا من الوجود والمشاغل كلها التي تجعل العبد يغفل عن ربه ﷻ.

وحب الرئاسة وطلب الملك هو واحد من أهم المؤثرات التي تجعل القلوب تغفل عن الحق ﷻ، وتاريخ الدنيا مملوء بالظالمين الذين ارتكبوا كثيرًا من المظالم لحرصهم وطمعهم في الحكم وسعيهم للرئاسة. ولكن في تاريخ الإسلام توجد شخصيات قدوة ربطوا قلوبهم بالحق ﷻ، ولم يأسرهم هوى السلطة.

وإذا ما تطلب الأمر كانوا يتنازلون عما في أيديهم من القوة والسلطة بمحض إرادتهم رغبة في الإصلاح. وقد شكل ثلاثة منهم خاصة نموذجًا فريدًا في التاريخ يستحيل تكراره في سبيل وحدة الإسلام، وتركوا خلفهم أكثر الذكريات فضيلة وخيرًا.

أولهم: هو سيدنا الحسن رضي الله عنه حفيد رسولنا الأكرم ﷺ وقد تنازل الحسن رضي الله عنه عن الخلافة بعد ستة أشهر حتى تتوحد الدولة الإسلامية، وترك هذا الأمر لمعاوية -برضى قلبي كبير- حتى يُجَنِب المسلمين أسباب الخلاف والشقاق السياسي، وليوقف أنهار الدماء النازفة بين المسلمين.



والثاني: هو إدريس بتليسي الذي ربط مستقبل الشرق بالعثمانيين بسيل كبير من الحب دون استخدام أي سيف.

أما **الثالث**: فهو بارباروس خير الدين باشا الذي كان حاكمًا عظيمًا على الجزائر وكثير من الأماكن المجاورة لها ولكنه رضي من أجل الأِتحاد والوحدة أن تتحول الدولة التي تحت امرته إلى آيالة (ولاية صغيرة) مرتبطة بالدولة العثمانية، وفضل أن يكون هو نفسه موظفًا في هذه الدولة العظيمة على أن يكون حاكمًا على دولته.

وأيضًا كان سيدنا سليمان عليه السلام يَعُدُّ نفسه من جملة الفقراء والمساكين لكي يخرج من قلبه حب المال والملك والسلطنة. وعندما كان ينهض في الصباح كان يذهب إلى الفقراء والمساكين ويجلس معهم في تواضع كبير، وكان يقول: «**فقير يليق بالفقراء**».

الخلاصة: إن السعي كي لا تحتاج إلى أي شخص في الدنيا، واكتساب المال والملك من حلال ليس قصورًا أو عيبًا، بل على العكس فإنه ميزة طبقًا لما ورد في الحديث الشريف القائل:

"لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوه" (البخاري، الزكاة، ٥٠-٥٣)



لأن المؤمن القوي والغني ينفق أكثر، ويكفل أناساً أكثر ويسارع أكثر في أعمال الخير؛ والنتيجة أن قال عنه رسولنا الكريمﷺ:

"خير الناس أنفعهم للناس" (السيوطي، الجامع الصغير، ٢، ٨)

والخطأ ليس من يبحث عن نصيبه من الدنيا، بل من يُملك قلبه لها، ويهمل واجباته الدينية والوجدانية، ويصبح أسيرًا للدنيا بحرصه وطمعه. ويجب ألا ننسى أن مجال المال هو الكيس والقصعة وليس القلب.

وفى هذه الحال يجب أن نراعي في ذلك الأمر المقياس النبوي الذي يقول:

" ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّوكَ " (ابن ماجه، الزهد، ١)

فاللهم يا ربنا اجعلنا ممن تحبهم وتُحبّب الناس فيهم وارزقنا استغناء نبويًّا تبعد به ما سواك عن قلوبنا، وخصص تلك القلوب لرضاك وعشقك وأمرك وطاعتك. آمين...

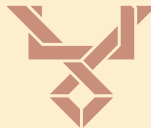




أخلاق التجارة

الكاسب حبيب الله

نحن مكلفون أن نكتسب المال من طرق حلال ونفقه في طرق حلال. والتاجر العارف الناصح هو الذي يداوم على تجارة الدنيا دون أن يهمل التجارة الأكبر منها وهى عمارة الآخرة لأنها تجارة لن تبور ولا ينفصل عن الطريق الإلهي الذي هو السعادة الأبدية



اخلاق التجارة

ذات يوم مر رسول الله ﷺ على صبرة طعام. فأدخل يده فيها. فنالت أصابعه بللاً.

فقال: "**ما هذا يا صاحب الطعام؟**"

قال: أصابته السماء. يا رسول الله!

قال: "**أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غش فليس مني**"

(مسلم، الإيمان، ١٦٤)

إن نظام الاِقتصاد الإسلامي الذي يوضحه هذا الحديث الشريف قد أقام أساس التجارة على مفهوم خدمة الفرد والمجتمع بالصدق والأمانة. فالنشاط التجاري الذي يمكن أن نسميه انتقال المال من المنتج إلى المستهلك، والذي يتطلب السعي لتنمية رأس المال، والذي يواجه -في الغالب- احتمالاً لأضرار تصيب العمل، هو نشاط حلال بالطريقة التي تزيد فائدة المال وربحه حتى إنه يحث عليه ويُشجع من يقوم به. ولو قارنا كيف عبر رسول الله ﷺ عن هذا الأمر بلسانه الشريف حتى قال: "**تسعة أعشار الرزق في التجارة**"(١) لفهمنا بسهولة درجة هذا التشجيع.

(١) انظر: السيوطي، الجامع الصغير، جـ١، ١١٣.



ومن ناحية أخرى فإن ركنين من أركان الإسلام الخمسة وهما: الحج والزكاة محصوران وخاصان بالمؤمنين الأغنياء، وهي إشارة في نفس الوقت لتشجيع المؤمن على أن يكون غنيًّا من طرق مشروعة. وذلك الحكم الذي ورد في الحديث الشريف القائل:

"اليد العليا خير من اليد السفلى" (البخاري، الزكاة، ١٨)

ومع ذلك يجب ألا ننسى في التجارة التي هي أهم وسيلة لإكتساب المال والثروة ذلك الحديث الشريف القائل:

«إن لكل أمة فتنة وإن فتنة أمتي المال» (ابن حنبل، جـ٤، ١٦٠)

لأن الحرص على اكتساب المال هو واحد من أخطر العوائق الرهيبة التي تضعف النفس، وأي شخص حريص طماع يشبه جرة أو إناء على الرغم من إمتلاء بطنها إلا أن فمها لا يغلق أبداً. والحال هكذا فلو نهضت لتفرغ ماء الأنهار في إحدى الأواني ما الذي تستطيع تلك الجرة أن تحمله أكثر من طاقتها على الاِستيعاب؟

مرة أخرى فإن الطَماع يشبه موقدًا أو مدفئة أو فرنًا كلما غذيته بالفحم والحطب لا يشبع ولا ينطفئ أبدًا، بل على العكس تزيد حرارته ولهيبه. وقد عبر عن ذلك رسول الله ﷺ فقال:

"لَوْ كَانَ لاِبْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لاَبْتَغَى ثَالِثًا، وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ" (البخاري، الرقاق، ١٠؛ مسلم: الزكاة ١١٦)



وبسبب هذا الحرص الشديد فإنه لا حد للحيل والألاعيب التي يقوم بها بنو آدم في التجارة، لهذا السبب فقد انهار كثير من الأقوام.

من جديد فإن هذه الدنيا ممتلئة بكثير من سالكي الغفلة الذين لا يعقلون. كما أن التاريخ لا يخلو من الغاصبين الذين يمتصون حقوق الفقراء، والبؤساء والأيتام والأرامل والمحتاجين -بشهوة مصاصي الدماء- بسبب ثرواتهم الفاحشة التي لا حد لها، بدل أن يراعوا حقوقهم بالإنفاق والزكاة ومختلف أنواع الخير والحسنات.

فالدين ليس هو الدعوة لجلب السعادة والراحة للبدن الذي هو بمثابة حمل وثقل على الروح، بل على العكس فإن الدين هو دعوة لأن تصير روح الإنسان متحكمة ومسيطرة على بدنه وشهوته.

والتجارة بعد مرحلة ما يجب أن تضع اللِجَام على أطماعنا وشهواتنا لكي لا نصاب بالخسران في الدنيا والآخرة إذا ما تجاوزت الحد. ويكون من الوهم والخيال البحث ببساطة عن التاجر في مجتمع مملوء بالمحتكرين والطماعين المتحكمين والمرتشين.

ومن أجل أن يعتبر الأقوام والبشر حتى يوم القيامة فقد أعلمنا الحق ﷻ في القرآن الكريم أن هلاك قوم مدين أصحاب الأيكة قوم سيدنا شعيب عليه السلام قد تحقق بسبب فساد أخلاق التجارة إلى أقصى حد. ومن أجل ذلك فإن أكل الحرام والغش في التجارة، وسحق



الضعفاء هو جُرم وذنب ثقيل للغاية حتى إنه يكون سبباً في هلاك أحد الأقوام، لذا فقد حذرنا رسول الله ﷺ في حديثه الشريف فقال:

"تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ" (البخاري، الرقاق، ١٠؛ ابن ماجه، الزهد ٨)

وعندما مدح أحد الأشخاص رجلاً أمام سيدنا عمر رضي الله عنه سأله عن ثلاثة أشياء فقال له:

هل جاورته؟ قال: لا

هل سافرت معه؟ قال: لا

هل تعاملت معه بالدينار والدرهم؟ قال: لا

قال عمر: أظنك انك رأيته يَهُزُّ رأسه وهو يقرأ القرآن

فأجاب الرجل: نعم يا عمر فهو كذلك

قال عمر: إذن لا تمدحه لأن الإخلاص ليس موجوداً على رقبة العبد.

إن المقياس الذي أعطاه هنا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقوم على عدم الأنخداع بالظاهر، بل يكون بالنظر إلى أفعال الشخص وعلاقاته البشرية. وهو إشارة إلى خطر التزكية التي لا تأخذ في الأعتبار التعرض لامتحان المنفعة.

ومثلما رأينا فإن التجارة تعكس العالم الباطني للفرد على الخارج يعني أيما كان العالم الداخلي للفرد فإن تجارته تكون على نفس الشاكلة.

وتبعًا للإسلام يجب على التاجر عندما يشتري شيئًا ألا يبخسه عن عمد، أيضًا عندما يبيع شيئًا يجب ألا يستعمل عبارات تظهر الشيء أعلى من قيمته. ويجب ألا يخرج عن مستوى الأسعار القياسي مستفيدًا من ضعف المشتري. ويجب ألا يدخل في الغبن الفاحش. ويجب ألا يغش في الميزان والمقياس، وألا يتعامل بالسوق السوداء والربا. ويجب تجنب الحلف والقسم ويجب ألا يبيع أو يشترى الأشياء الحرام التي تسبب الضرر للمجتمع.

وما أجمل قواعد التجارة التي وضعها رسول الله ﷺ في حديثه الشريف عندما قال:

" **يَا مَعْشَرَ التُّجَّار**". فَاسْتَجَابُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَفَعُوا أَعْنَاقَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ إِلَيْهِ فَقَالَ: "**إِنَّ التُّجَّارَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فُجَّارًا إِلاَّ مَنِ اتَّقَى اللَّهَ وَبَرَّ وَصَدَقَ**"(الترمذي، البيوع، ٤)

و"**الْحَلِفُ مُنَفِّقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مُمْحِقَةٌ لِلْبَرَكَةِ**" (البخاري، البيوع، ٢٦)

أي يجب إعلام البائع الذي لا يعرف قيمة ما يملكه بقيمة ما يملكه، فالغبن هو الاِستفادة من عدم معرفة وخبرة وسذاجة البائع أما الذين كانت غايتهم اكتساب رضا الحق تعالى وملأت الخشية منه قلوبهم فإنهم يكونون مدققين وحساسين إلى أقصى درجة في هذا الشأن. وقد سأل الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان المرأة عن ثمن لباس مصنوع من الحرير أراد أن يشتريه لنفسه. فقالت المرأة:



بمائة درهم يا إمام. فقال لها لا، بل هو أغلى من ذلك».فزادت المرأة مائة درهم أخرى وهى متعجبة. ومرة أخرى لم يقبل الإمام فزادت المرأة مائة درهم أخرى ثم مائة أخرى.

وعندما قال الإمام أبو حنيفة:"يا أمة الله لا؛ إنه يساوى أكثر من أربعمائة درهم" فلم تستطع تلك المرأة أن تمنع نفسها من أن تقول: «أتسخر مني يا إمام؟»

وعند ذلك نادى الإمام على واحد ممن يفهمون هذا العمل ليُعلم المرأة السعر الحقيقي لما تملكه. وجاء هذا الرجل وثمّن الثياب بخمسمائة درهم، وعندئذ اشترى الإمام بهذا السعر.

وذلك لأنه كان يعرف أن الأِبتعاد عن الصدق واخفاء عيوب ونواقص الأشياء وعدم مراعاة الدقة في المكيال والميزان تصيب الإنسان بعواقب وخيمة وحزينة للغاية.

وقد تربى المجتمع العثماني وامتزج بهذه الأخلاق، وهكذا استطاع أن يؤمن سعادة وسكينة البشر بدرجة ما جعلت أهل الكفر في دهشة وحيرة. وهذه الحادثة التي عاشها راهبان بعد فتح مدينة اسطنبول على يد السلطان الفاتح عندما كانا يدوران من أجل مراقبة التجار العثمانيين تعد أجمل نموذج يعكس تلك الحال. فقد نهض الراهبان في ساعات الصباح المبكرة وذهبا إلى بقال وطلبا أن يشتريا عدة أشياء. فقال لهما البقال: لقد استفتحت، خذا من جاري الذي لم يستفتح. وعند ذلك ذهبا إلى بقال آخر قال لهما نفس الشيء،



لقد استفتحت خذا من جاري الذي لم يستفتح. فذهب الراهبان إلى بقال آخر فحصلا على نفس الجواب السابق. وفى النهاية اشتريا من أول بقال ذهبا إليه.

وهكذا فإن أجدادنا العثمانيين قد تربوا ونشأوا في محضن أخلاقي يجعل الإنسان معطاءً ومُحبًّا للغير على هذا النحو. وفى هذا المحضن الأخلاقي الذي هو عبارة عن أخلاق الإسلام كان كل فرد يفكر في الآخر. ولذا فإن الغش هو جرم ثقيل للغاية عند أي مسلم، فالمسلم لا يكذب ولا يغش. أما الاِنخداع والسفه فهو علامة حمقٍ، وذلك لا يليق بأي مسلم. فالرسل مرشدو البشرية كانوا متصفين بالصدق والفطنة. والمسلم الذي يسير على هديهم يجب عليه أن يكون ذا عقل يقظ. لذا فقد نبه الحق ﷻ في هذا الشأن إلى عدم الاِنخداع بالمخادعين، فقال:

﴿**وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّٰهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفا**﴾ (النساء، ٥)

وبالنسبة للمخادعين فقد ذكرهم رسول الله ﷺ في حديثه الشريف مهدداً فقال:

"**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم** فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات. قال أبو ذر ؓ خابوا وخسروا. من هم يا رسول الله؟ قال:"**المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**"(مسلم، الإيمان ١٧١)



ومن ناحية أخرى فإن المحتكرين الذين يحتكرون السلع ويبيعونها في السوق السوداء بسعر غالٍ مذمومون في نظام الإسلام الاِقتصادي.

وهؤلاء قد دعا عليهم رسول الله ﷺ في حديثه الشريف فقَالَ:

"الْجَالِبُ مَرْزُوقٌ وَالْمُحْتَكِرُ مَلْعُونٌ" (ابن ماجه، التجارات، ٦)

فالإسلام يوضح القواعد المتعلقة بالتجارة في كيفية الربح وكيفية الإنفاق، لذا حرم الله تعالى المعاملات التي تتم بعيداً عن التراضي والموافقة بين الطرفين فقال في كتابه العزيز:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾

(النساء، ٢٩)

وقد احتوت عبارة ولا تقتلوا أنفسكم على معنى مهم ودقيق، وفيها تنبيه يحذرنا أن نمحو الحياة الروحية وأن نكون من أهل جهنم. ومن ناحية أخرى فهي تلفت الاِنتباه إلى أن قسماً من الدعاوى والجنايات يستند في حقيقته على الحرص على الكسب، وأكل المال بغير حق.

ومن أجل الوقاية من هذه المهلكات فيجب البقاء داخل قواعد التجارة التي وضعها الإسلام وعينها، وخاصة تجنب الربا، وهو أهم مسألة في هذا الأمر.



فالربا هو طرح استثماري يتجنب المخاطرة والتنافس في استعمال رأس المال، وهو ببساطة يكون سببًا لكي يصير الغني أكثر ثراء، ويصبح المحتاج أكثر احتياجًا.

ويوجد حديث مخُيف للغاية قاله رسول الله ﷺ في حق الربا حينما قال في خطبة الوداع ليحرم كل أنواع الربا:

"أَلاَ إِنَّ كُلَّ رِبًا مِنْ رِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ" (أبو داود، البيوع، ٥/ ٣٣٣٤)

كما أن الآيات الكريمة قد حملت تهديدًا إلهيًّا لمن يأكلون الربا حين قال الحق ﷻ في كتابه الكريم:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (البقرة، ٢٧٥-٢٧٦)

وما أقسى وأخوف ذلك التهديد في تلك الآية الكريمة التي توضح أن القهر الإلهي يتجلى ويظهر بسبب الربا حين يقول ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة، ٢٧٨-٢٧٩)

فَمَن مِنَ الكائنات يُحارب الخالق ﷻ ورسوله ﷺ أشرف الكائنات ويخرج منتصرًا؟

ولو تعامل أي مؤمن بالربا فإنه يخسر ماله ويُضعف إيمانه. أما الفاسق فإن ماله يزداد، لأنه عندما ذهب في طريق الخطأ استحق العقاب أكثر. أي أن هذا الطريق يجعله يكسب أكثر في الدنيا. ومثل هؤلاء ينالون مهلة حتى تأتي لحظة العقاب التي لا مفر منها، وذلك لأن الحق ﷻ يمهل ولا يهمل. ويجب أن ننتبه كثيرًا لذلك التهديد الإلهي في الآية الكريمة، لأن عكس ذلك الاِنتباه يكون وهماً وخيالاً كبيرًا.

يقول جابر رضي الله عنه: لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومُوكله وكاتبه وشاهديه وقال: **"هم سواء"** (مسلم، المساقاة، ١٠٦)

وما أجمل حال أبى حنيفة النعمان ذلك الإمام الكبير الذي لم يستفد حتى من ظل شجرة الدائن قائلاً أن هذا وضع يشبه الربا والفائدة.

وتوجد حِكَم وأسباب كثيرة مؤكدة لمنع الربا، ويأتي على رأسها أمور مثل أنه زيادة بلا عمل، ويفتح الطريق لزيادة السعر التقليدي، ويضعف المميزات الإنسانية والأخلاقية مثل التعاون والمساندة والحب والرحمة والشفقة ويشعل الأنانية، ويلهب الحرص والطمع في اكتساب المال والنفوذ.

والإسلام الذي حرم الربا في مواجهة كل هذه الأسباب قد حث في مقابل ذلك على القرض الحسن في سبيل الله تعالى، وعدّ ذلك القرض الذي يُعطى لشخص أكثر فضلاً من الصدقة حتى وإن قل. ورغم هذه الأحوال كلها فإن أصحاب العمل الشرفاء والتجار الصادقين والأمناء ظلوا قلة من ناحية العدد، وربما من أجل ذلك فقد أخبر رسول الله ﷺ التجار الأمناء الصادقين عن المكافأة الكبيرة التي تنتظرهم فقال في حديثه الشريف:

"التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء"

(الترمذي، البيوع، ٤؛ ابن ماجه، التجارة، ١)

وكان الإمام أبو حنيفة رجلاً غنيًا صاحب ثروة ضخمة وكان يشتغل بالتجارة. ولكنه بسبب انشغاله بالعلم كان يسير أعماله التجارية عن طريق وكيل له، وكان يفتش بنفسه على التجارة التي يقوم بها هذا الوكيل لتكون دائمًا في دائرة الحلال، وكان حساسًا لدرجة كبيرة في هذا الشأن، حتى إنه في إحدى المرات أرسل حفص بن عبد الرحمن ليبيع قماشاً له، وقال له: «يا حفص! إن في هذا القماش عيوب كذا وكذا. فأخبر المشترى بهذه العيوب وبع القماش بسعر رخيص».

فباع حفص القماش بالسعر الذي طلبه الإمام، ولكنه نسي أن يوضح العيوب التي فيه للمشتري كما قال له الإمام. وعندما علم الإمام أبو حنيفة بهذا الأمر قال لحفص: «هل تعرف من اشترى



منك ذلك القماش؟ فلما أخبره حفص أنه لا يعرف من اشتراه. وزع الإمام المال كله صدقة على الفقراء، لأنه كان يعيش ويتحرك ضمن مقاييس التقوى في شأن الحلال والحرام، تلك المقاييس التي بينّها رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص عندما قال له: **"نعم المال الصالح للرجل الصالح"** (أحمد، المسند، ٤، ١٩٧)

لأن مراعاة الحلال والحرام هي من ألزم الضرورات من ناحية تطهير المال الذي هو أمانة للدنيا والحساب عليه في الآخرة.

وقد حكى المرحوم والدي موسى أفندي-قدس سره- عن أهمية اللقمة الحلال وبركة هذا الأمر في مواجهة الحرام في التجارة فقال:

«كان لي جار أرميني وقد أصبح مسلمًا بفضل الله تعالى. وذات يوم عندما سألته عن سبب إسلامه قال: أصبحت مسلمًا بسبب أخلاق التجارة الجميلة للأستاذ ربيع جاري في الحقل في آجي بادم. وكان الأستاذ ربيع يبيع اللبن ليؤمن معيشته، وذات مساء جاء لي وقال: تفضل هذا اللبن لك. فقلت: كيف ذلك؟ أنا لم أطلب اللبن! فقال ذلك الإنسان الضعيف الحساس: لقد رأيت واحدة من الأبقار تدخل إلى حديقتك، وأخذَتْ ترعى هناك، فهذا اللبن هو ملك لك. فضلاً عن ذلك فسوف أظل أحضر لك اللبن حتى ينتهي العشب الذي أكلته تلك البقرة من حديقتك.ورغم أنني قلت -يضيف الرجل الأرميني-: يا جاري هل تهذي؟، لقد سامحتك



في العشب الذي أكلته البقرة، إلا أن الأستاذ ربيع الجار المسلم قال: لا، ذلك لا يكون أبدًا، ذلك اللبن هو حق لك. وظل يحضر لي اللبن حتى انتهى العشب الذي أكلته البقرة من جسمها. وهكذا فإن هذا السلوك لذلك الإنسان المبارك قد أثر فيّ للغاية. ورفع أستار الغفلة عن عيني، وسطعت شمس الهداية في داخلي، وقلت لنفسي:إن دين إنسان ذا أخلاق عالية كتلك الأخلاق لهو بالتأكيد أفضل دين وأعلاه. ولاشك البتة في صدق الدين الذي يربي بشرًا طاهرين وأتقياء حافظين للحقوق كهذا الرجل. وعندها نطقت كلمة الشهادة وأصبحت مسلمًا».فما أتعس حياة الغافلين الذين وصفهم رسول الله ﷺ في حديثه الشريف عندما قال:

" يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لاَ يُبَالِي الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ أَمِنَ الْحَلاَلِ أَمْ مِنَ الْحَرَامِ" (البخاري، البيوع، ٧)

والواقع أن العقوبات التي تنشأ من الإخلال بالقواعد التي وضعها الدين في تجنب أكل المال الحرام لا تكون قاصرة على من ارتكب هذا الذنب في الآخرة فقط، بل إن البلاء الذي ينشأ من هذا الأمر يشمل الأجيال والأحفاد الذين لم يكن لديهم دخل في اكتساب هذا المال الحرام في الدنيا أيضًا.

وغالبا فإن مرارة هذا الفعل لا تكون في الآخرة فقط، بل تظهر في الدنيا أيضاً. وهناك مثل يجري على ألسنة العامة يقول: «الجد يأكل الحصرم والحفيد يُضَّرس».



وهناك حقيقة أن أكثر الذين ورثوا ثرواتهم من مال حرام لم يستطيعوا أن يسلكوا طريق الصواب، لأن هناك سر في المال هو أنه يذهب من نفس الطريق الذي جاء منه، فلو أن المال جاء من طريق حرام لأنفقه الورثة بعد ذلك في طُرق سيئة.

وهكذا فإن أي مال يشبه الحية فكما أن الحية تدخل في نفس الثقب الذي خرجت منه، فإن محل إنفاق المال يكون مرتبطاً بصفة تحصيله واكتسابه.

وما أعظم الدعاء الذي جاء على لسان سيدنا موسى عليه السلام ذلك الدعاء الذي جلبه مال لم يستعمل في طريق الإيمان والتقوى على الفسق والكفار، إذ يقول الحق على لسان موسى:

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ﴾ (يونس، ٨٨)

فما أعجب الأشخاص الذين يرفضون التجارة الصادقة بحجة أنهم لن يستطيعوا أن يحصلوا مكسبًا وربحًا، فهؤلاء يهذون بالغفلة وتعمى أبصارهم عن الحقيقة وينكرون نظام الأرزاق الإلهي. ويدُلُّ على التفكير الخاطئ لهؤلاء ما جَرَى.

أن أبا بكر رضي الله عنه الذي بذل ماله عدة مرات في سبيل الله تعالى ورسوله، والذي أنفق ماله كله، ولم يتخل عن التجارة الصادقة



طرفة عين ،كان لابد أن يتخذ مكانه بين أفقر فقراء الصحابة ﵃، ولكن هذا لم يحدث. فمن الثابت أن أبا بكر ﵁ ظل على الدوام من أغنى الصحابة وأكثرهم ثراء. ورغم أنه أنفق كل شيء في سبيل الله تعالى ورسوله ﷺ عدة مرات، إلا أنه كان يعود مرة أخرى صاحب مال وثروة بسبب حصوله على البركات الإلهية.

وعلى هذا النحو فنحن مأمورون أن نكتسب المال من طرق حلال وننفقه في طرق حلال. والتاجر العارف الناصح هو الذي يداوم على تجارة الدنيا دون أن يهمل التجارة الأكبر منها وهي عمارة الآخرة، لأنها تجارة لن تبور ولا ينفصل عن الطريق الإلهي الذي هو السعادة الأبدية. وتلك الآية الكريمة تعكس في أجمل صورة الحياة لمثل هؤلاء فيقول ربنا ﷻ عنهم:

﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ (النور، ٣٧)

إن أصحاب وأهل التجارة بهذا الشكل هم الذين يعيشون سر (تِجَارَةً لَّن تَبُورَ) الذي ذكر في آية كريمة أخرى، أي الذين يأخذون نصيبهم من التجارة الحقيقية. وقد وصفهم الحق ﷻ في كتابه الكريم فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ. لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (فاطر، ٢٩-٣٠)



فيا حق اجعلنا نعيشُ في سر هذه الآية الكريمة، واجعل لنا نصيبًا يمكننا من قراءة الكتاب الإلهي بعين القلب، ومن السجود بخشوع يرفعنا إلى المعراج، واجعل كسبنا من الحلال واجعلنا ننفق ما أنعمت به علينا في حلال دون إسراف يا رب العالمين.

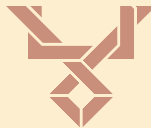
ويا ربِّ اجعل إخواننا -أهل التجارة- أفرادًا صالحين لأوطاننا وأمتنا ويسلم المؤمنون من ألسنتهم وأيديهم ويستفيدون منهم، ويسر لهم الأعمال الصالحة التي تكون وسيلة للرحمة والبركة في الدارين. آمين...



القرض الحسن والإِنفاق في سبيل الله



إنَ هذه الأشياء كالمال والروح والبدن التي أعطيت لنا كأمانة ليست باقية للأبد في أيدينا. فمن المؤكد أننا ذات يوم سنودعها كلها. وسوف يعود كل شيء إلى صاحب الملك الحقيقي وهو الله عز وجل. وبالتبعية فإن هذه الأمانات من نعم الدنيا التي أنعم الله بها علينا يجب أن توضع في أماكنها في سبيل الله تعالى حتى نستطيع أن ننال المكافأة الأبدية.



القرض الحسن والإِنفاق في سبيل الله

إنَ هذه الكائنات بشكل عام التي خُلِقت بيد القدرة وزُينت بآلاف الزينات هي مكان فانٍ. والأيام التي تمر بها في تلك الدنيا -التي هي دار إمتحان- تتطلب التفكير بجدية وروح شفافة وإدراك عميق، لأن النعم التي هي الحصاد الحقيقي بالنسبة لنا هي دار الإقامة الباقية أي هي الجماليات التي يمكن أن تنقلنا إلى الحياة الأبدية. وهكذا فإن الله ﷻ الذي أراد أن يتجمل عباده بالسكينة والجماليات الأبدية قد وضح مرارًا وتكرارًا في القرآن الكريم القيمة المعُطاة للأعمال الصالحة التي تتحقق في سبيل إرضاء الحق ﷻ والمكافأة العظيمة التي لديه.

فالله تعالى قد حث بإصرار على الصدقة والإنفاق التي هي مظهر للصفات العلوية مثل اللطف والكرم والإحسان بشكلٍ خاصٍّ. وفى هذا الميدان قد أمر الحق ﷻ أصحاب الثروة في كل حال ووقت -بشكل قاطع- بالعبادات المالية مثل الزكاة والعشر والأضاحي. وإلى جانب هذه المساعدات المفروضة والواجبة، فإنه كانت توجد فضائل ترتبط بالمروءة وشعور الإيمان، والقرض الحسن هو واحدة من تلك الفضائل.



إن الله ﷻ يقبل كل أنواع الصدقة والإنفاق -التي تبذل من أجل رضاه العظيم- ويعدها قرضًا حسنًا أعطي لذاته العلية. ومقابل هذا القرض فإن الله تعالى قد وعد أن يرده أضعافًا كثيرة. لذا قال الحق في كتابه الكريم:

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾(الحديد، ١١)

وتبعًا لهذا يجب علينا أن نسعى في هذا الشأن لبذل الصدقات، وإسعاد المحتاج ليصبح هذا ضمانًا وتأمينًا لنا عند النفس الأخير لمواجهة الموت الذي سيقضي علينا فجأة ذات يوم.

ويجب أن نعلم أن السعادة أو التعاسة في هذه الدنيا ترتبط بقدر الله تعالى. والمؤمنون الحقيقيون كلما أعطاهم الحق تعالى نعمة من النعم لم يتكبروا أو يطغوا في الأرض، ولم يكونوا من الغافلين الذين لا ينفقون النعم التي أنعم الله بها عليهم في مرضاته ﷻ. وهؤلاء المؤمنون قد فهموا القرض الحسن وطبقوه في معنيين هما:

١- أنهم يعطون القرض للعباد أصحاب الحاجات.

٢- أنهم أيضًا يقرضون الله تعالى عن طريق الإنفاق.

نعم إن أحد معاني القرض الحسن هو إقراض الله تعالى بالشكل الذي ذكره القرآن الكريم، وهذا أيضًا يتم عن طريق الإنفاق



على أصحاب الحاجات وبذل الخدمة والعمل عليهم في سبيل الله تعالى، لأن الحق ﷻ قد أوضح أن هذا القرض - في سبيل الترويج له والحث عليه وبيان مكافأته- كأنه قرض له ﷻ، أي أن الله تعالى قد طلب بنفسه القرض من عباده. وقد قال الحق ﷻ في كتابه:

﴿...وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المزمل، ٢٠)

وقد تلطف الحق ﷻ على بني آدم بإحسان لا مثيل له إذ جعل الإنفاق على عباده رغبة وطمعًا في رضاه العظيم كأنه قرض حسن. وطبيعي أن يكون إعطاء هذا القرض من قبيل الإنفاق في سبيل الله دون سواه بنية خالصة دون انتظار أية منفعة شخصية في هذه الدنيا ودون رياء أو سمعة ودون انتظار لشكر من أحد.

وقد بين الحق ﷻ في كتابه الكريم ما قام به سيدنا علي والسيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنهما من الإنفاق في سبيله فقال:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً. إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً. فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ (الإنسان، ٨ -١١)



وهذه هي النقاط المتعلقة بالإنفاق والتي وردت في الآيات الكريمة:

١- الإيثار أي يفضل المؤمن أخاه على نفسه.

٢- الإنفاق يجب أن يكون في سبيل الله تعالى وليس لغايات دنيوية فانية.

٣- الوقاية بالإنفاق من هول القيامة وشدتها.

٤- الذين أنفقوا في سبيل الله تعالى بنية خالصة سيقبلهم الله تعالى وتبيض وُجوهَهُمْ يوم القيامة.

٥- المطلوب من المؤمنين أن يعملوا هذا النوع من الأعمال الصالحة.

وهكذا فإن الحق ﷻ سيمنحهم مقابل هذا الدَّين الذي أقرضوه إياه أضعافًا كثيرة. ومرة أخرى يبين الحق ﷻ فضائل القرض الذي يُعطى له ﷻ فيقول:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (المائدة، ١٢)



وعن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَه﴾

قال أبو الدحداح الأنصاري: وإن الله ليريد منا القرض

قال: **"نعم يا أبا الدحداح"**

قال: أرني يدك يا رسول الله قال: فناوله رسول الله ﷺيده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي. وكان حائطه له فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها.قال: فجاء أبو الدحداح فنادى يا أم الدحداح

قالت: لبيك!

قال: اُخرجي من الحائط فقد أقرضته ربي .عَزَّوَجَلَّ

فقالت: زوجته ربح البيع أبا الدحداح! وبعد ذلك عمدت إلى صبيانها تخرج ما في أفواههم وتنفض ما في أكمامهم .(انظر: القرطبي، التفسير، البقرة، ٢٤٥؛ الطبري، التفسير جـ.٢، ٨٠٣؛ الحاكم المستدرك، جـ.٢، ٢٤)

وهكذا عاش مجتمع المؤمنين في سعادة وهدوء وسكينة دائمة، وحافظوا على دنياهم وآخرتهم في عصر بلغ فيه هذا الشعور والفضيلة الذروة. وتلك الحادثة هي تجل وصورة لافتة للنظر وموجبة للدهشة وتوضح تلك الحقيقة:

يَحكي إيليا قدوري في نهاية كتابه حول سياسة إنجلترا في الشرق الأوسط في نهاية العهد العثماني أن شرق الأناضول في نهاية القرن التاسع عشر قد أصابه قحط شديد مخيف. وعند ذلك أرسل



الإنجليز جاسوسًا إلى هناك لإثارة التمرد والعصيان تجاه العثمانيين في المنطقة التي أصابها القحط. والحقيقة التي أدهشت الجاسوس نتيجة الدراسة التي أجراها -وكانت واضحة إلى أقصى درجة- حتى أنه أوردها في تقريره بقوله:

« نعم يوجد قحط هنا، ولكن ليست هناك مجاعة. فكل فَرْد يرعى الآخر ويهتم به ويساعده، ولهذا السبب فإن القحط لم يتحول إلى مجاعة. ونتيجة لهذا الأمر فإنه لا يمكن إثارة أي عصيان بسبب القحط في بنية اجتماعية كهذه».

ومما لا شك فيه فإن هذا المستوى العالي هو مكافأة دنيوية وبركة للذين استطاعوا أن يعيشوا داخل مضمون هذه الآية الكريمة مراعين الآخرين بالإنفاق عليهم في أزمنة الشدة والضيق وفى اللحظات التي وصلت فيها الحاجة والفاقة إلى مستوى حاد وشديد.

والله تعالى بهذه الآية الكريمة ينبه ويوقظ عباده ألا يظهروا الغفلة والضعف والرخاوة في هذا الشأن قائلا لهم:

﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (الحديد، ١٠)



أي أن الحق ﷻ يطلب التضحية والفداء من عباده في أوقات الضيق التي يتعرض له الإسلام والمسلمين. وقد سمى الحق تضحيات عباده تلك بـ «**القرض الحسن**» بحسب التعبير القرآني.

فمثلاً عندما تجلت التضحيات في حربي جناق قلعة والاِستقلال من عباده، وصارت «**قرضًا حسنًا**»، أنعم الله تعالى عليهم مقابل ذلك بالنصر والغلبة.

ويجب ألا ننسى هذه الأشياء كالمال والروح والبدن -والتي أعطيت لنا كأمانة- ليست باقية للأبد في أيدينا. فمن المؤكد أننا ذات يوم سنودعها كلها، وسوف يعود كل شيء إلى صاحب الملك الحقيقي وهو الله ﷻ. وبالتبعية وحتى لو لم نسلم تلك الأمانات فإن الحق ﷻ صاحبها الحقيقي سيتسلم كل شيء منا بالتأكيد في اللحظة التي نودّع فيها الدنيا ونعود إليه، ولكن هناك فرق كبير بين الحالين.

ففي الحال الأول عندما ننفق فإن الحق ﷻ -الذي له خزائن السموات والأرض- يقبل هذا الإنفاق ويعده كأنه قرضًا له ﷻ، ويعوضنا عنه أضعافًا كثيرة.

وفى الحال الثانية عندما لا ننفق مما أعطانا الله تعالى، فإننا لا نفقد أي شيء مما في أيدينا ولكننا سنتحمل وزر هذا المال. ولهذا فإن رسول الله ﷺ ينبه الذين يقضون عمرهم وهم بعيدون عن



الإنفاق في سبيل الله في حديثه الشريف الذي رواه مطرف عن أبيه قال:أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ألهاكم التكاثر. قال:

"يقول ابن آدم: مالي، مالي. قال: وهل لك، يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟" (مسلم، الزهد،٣)

وما أجمل قول مولانا جلال الدين -قدس سره- في هذا إذ يقول: «عندما يقبض ملك الموت روح الغني الغافل ويوقظه من حلم الحياة، يضحك هذا الغني حتى من نفسه ندامة لأنه ضيع حياته من أجل مال لم يكن يملكه في الحقيقة».

عن عائشة رضي الله عنها : أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ:

"مَا بَقِيَ مِنْهَا؟" قالت: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُها. قَالَ:**"بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرُ كَتِفِهَا"** (الترمذي، القيامة، ٣٣)

ومعناه: تَصَدَّقُوا بِهَا إِلاَّ كَتِفَها. فَقَالَ: بَقِيَتْ لَنَا في الآخِرَةِ إِلاَّ كَتِفَهَا.

وفى الحقيقة فإن رأس مال الإنسان في الأساس هو الأِدخار من حسنات الخير من أجل الحياة الأبدية.

والواقع أن القدرة على البقاء بعيدًا عن العوالق الفانية والشهوانية التي تخرب توازن القلب والتي يسببها تعلقه بمتاع الدنيا تكون ممكنة فقط بنور الكرم وحب الآخرين.

وقد ذكر الحق عز وجل الصدقة بخاصة بين العبادات التي يتحسر عليها الإنسان في لحظة فراقه الدنيا، والحالة الروحية التي سيعيشها



من أهمل في أداء تلك العبادة عندما يحين موته فقال في كتابه الكريم:

﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (المنافقون، ١٠)

ولهذا السبب فإن الإنسان بسبب الطمع وحب الدنيا يبتعد عن الإنفاق في سبيل الله، ولا يفكر أنه ذات يوم سيترك كل ما يملكه لمن يخلفه. وسوف يكون مفلسًا في الآخرة عليه وزر وعذاب كل ذلك؛ لأن أول الأسئلة يوم الحساب الكبير في الآخرة هي عن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه؟ لذلك قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

"لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلاَهُ" (الترمذي، صفة القيامة، ١)

وهكذا فإن أجدادنا الذين أدركوا هذه الحقيقة كلها في أجمل صورة، قد أسهموا بحماسة أكبر من أن توصف في شأن الإنفاق وأتحفوا التاريخ «**بحضارة الوقف**» العظيمة.

فهم كانوا يتسابقون دائمًا في فعل الخير، وكانت المؤسسات التي تلبي كل أنواع الحاجات المختلفة في هذا السباق هي مؤسسات الأوقاف. وإلى جانب هذه المؤسسات كانت تشتهر جدًّا «**أحجار الصدقة**» التي توضع عند بعض أحياء ومدخل مساجد



إستانبول القديمة حتى لا يترك سكان هذه الأحياء والمصلين في هذه المساجد في ضيق وحاجة وعوز، وحتى لا تتأذى مشاعر هؤلاء السكان الذين لا يطلبون أي شيء من أحد بسبب عفتهم وخجلهم.

وكان يوجد واحد من أحجار الصدقة هذه عند مفترق الطرق عند شارع دوغانجيلر في أسكدار بجانب الرصيف المواجه لدائرة النكاح، وكان هذا الحجر بعرض ثلاثين سنتيمتر وارتفاع متر واحد، ولكنه لم يعد موجودًا الآن.

وكانت هذه الأحجار شاهدة على التسابق في الخير، وعلى أكبر خدمة في كل الأوقات. وكان الناس في وقتها يتركون أكياس نقودهم في الحفرة التي قمتها ذلك الحجر، وذلك في ظلمة الليل حتى يكون لهم في الإنفاق تلك الفضيلة وهي: «**لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**».

وبعد ذلك كان يأتي فقراء الحي الفضلاء ويأخذون على قدر حاجتهم، ولا يتعرضون لما زاد عن حاجتهم. ويأتي أيضًا الذين لا يسألون الناس رغم خصاصتهم ليأخذوا النقود في ساعات الليل المتأخرة، ولا يأخذون إلا على قدر حاجاتهم.

وقد كتب أحد السياح الفرنسيين عن إسطنبول في القرن السابع عشر فقال: «راقبت طوال أسبوع أحد الأحجار التي توضع بها النقود، ولكني لم أر أحدًا يأتي ليأخذ الصدقة منها».



وبحسب الرواية كانت توجد أحجار الصدقة في أربعة أماكن في إسطنبول. في فناء مسجد كُولفَمْ خاتون في اسكدار، وفي دوغانجيلر في أسكدار أيضًا، وفى قره جه أحمد، وفى قوجه مصطفى باشا.

ولكن لماذا كان الأجداد العظام يعملون خدمة كهذه؟ لأنهم يعلمون أن المحتاجين والفقراء سيوجدون دائمًا في كل مجتمع وفى كل عصر.

لذا يجب أن يوضع أمام أعيننا هذا الدستور القرآني الخالد:

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (المعارج،٢٤-٢٥)

﴿وَفِى أموالهم حَقٌّ لَّلسَّائِلِ والمحروم﴾ (الذاريات، ١٩)

ويجب أن نتسابق دائمًا لفعل الخير الذي يمتد من أحجار الصدقة حتى الأوقاف؛ لأننا يجب أن نحمي شعور المحتاجين المتعففين. ويجب أن نحافظ على الإخلاص والتجرد الذي كان في الأيدي التي كانت تمتد إلى حجر الصدقة لتعطى أحيانا، ولتأخذ أحيان أخرى كما كان الحال في الأمس.

ويجب أن تتحول قلوبنا إلى حجر صدقة حجر خير، فالمحتاج يجب أن نقربه إلينا ليشعر كأنه في حضن أم دافئ، ويجب علينا أن نسجد سجدة شكر لربنا ﷻ الرزاق إحسانا منه وكرماً. ويجب أن يكون مقياسنا الدنيوي والأخروي هو قول رسولنا الكريم ﷺ :

"خير الناس أنفعهم للناس" (السيوطي، الجامع الصغير، جـ٢، ٨)



موقنون بتلك الحقيقة الخالدة التي عبرت عنها الآية الكريمة في قوله سبحانه: ﴿**قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾ (سبأ، ٣٩)

وكنتيجة لذلك فسواء الإنفاق أو العبادات أوالسلوكيات الجميلة -التي هي في شكل القرض الحسن- فإنها يمكن أن تتم في ظل النعم التي أنعم الله تعالى بها علينا.

أي أن الحق ﷻ قد تفضل بأن جعل الخير والحسنات التي سنقابلها بالنعم التي أحسن بها إلينا كأنها قرض اقترضه منا لنفسه. وهذا التجلي هو من ناحية أخرى تتويج لنعم الله ﷻ بنعم الله ﷻ.

أي أن الله تعالى هو الذي أعطى نعمًا لا تُحصى ولا تُعد في الحقيقة، ولكن الذين يأخذونها هم العباد، والذين يستفدون منها هم العباد، وتبعًا لذلك فإن الإنسان هو المدين الحقيقي والحق ﷻ هو الدائن.

يقول مولانا جلال الدين الرومي: «كل الذين في السموات والأرض يطلبون كل شيء منه، لأن الجميع يدين بوجوده له».

والإنسان بخاصة في هذا الميدان هو مدين للحق ﷻ في مواجهة هذا الكرم والعطاء الجزيل الذي لا يعد ولا يُحصى، لأنه نال صفة أن يكون أشرف المخلوقات، وأيضًا نال إحسانًا وعطفًا بأن يكون مظهرًا للإسلام والإيمان بعد ذلك، وأن يكون أمة سيدنا



محمد ﷺ . فضلاً عن ذلك فإن كل قلب مدين لسيدنا محمد ﷺ الذي هو وسيلة النجاة ومرشد الهداية الوحيد في طرق الأبدية. وهو مدين أيضًا للصحابة الكرام وعظماء الإسلام الكبار الذين عكسوا عباداته ﷺ ومعاملاته، وكمال تصرفاته، وسلوكياته الظاهرة والباطنة على الإنسانية كلها مثل الأقمار التي تعكس أشعة الشمس. وهو مدين لوالديه، مدين لعائلته.

أما أداء هذه الديون فيمكن أن يتحقق بأن نعيش كأننا قرآنً حي، وذلك عن طريق التخلق بصفات الله ﷻ، وبأخلاق رسوله ﷺ، وأن نخطو خطوة نحو عالم الوصول كوردة تخضر في أجواء السنة المطهرة. فضلاً عن ذلك فإن شكر الله تعالى وحمده هو دين في رقبة كل عبد من العباد.

ويجب أن نعلم أن القلوب لو ظلت بعيدة عن رضا الحق ﷻ، وضاعت في الشهوة الفانية مقابل هذا القدر من النعم والعطايا -التي أحسن الله تعالى بها والتي لا تعد ولا تحُصى- تكون قد بدأت في فقد شرفها وخاصيتها الإنسانية. وعلى هذا النحو فإن الذين يعيشون خارج المقاييس الإلهية، وتعظم في عيونهم تلك الجماليات المؤقتة فإنهم ينقادون دائمًا للدناءة والأنحطاط والصغائر. ومن ناحية فإن الذين ينسون سر «**أحسن تقويم**» ينحطون إلى مكانة الأذلاء الذين يقبلون القرض والعطاء من مخلوقات أقل كثيرًا منهم وأفقر منهم وأكثر احتياجًا وعجزًا.



والنتيجة أن الذين لم يستطيعوا أن يدركوا الفرق يفنون جوهرهم الحقيقي الأصيل. وقد تحير مولانا جلال الدين الرومي - قدس سره - من حال أشخاص كهؤلاء فقال: «ما هذا الشيء المُحير؟ هل تطلب الشمس قرضا من ذرة، وهل يطلب نجم الزهرة الصهباء من كوب صغير؟ وا أسفاه عليك لأن روحك لم تعرف ما قيمتك. ولأن روحك لا تعرف الأوصاف بمعناها الكامل. لقد سُجنت في عالم السببيات والصفات، أنت شمس ولكنك ظللت مربوطًا مغلول الأيدي».

إن مولانا في هذه الأبيات يشبه الإنسان بشمس معنوية، والعالم أيضًا مثل ذرات مرتعشة تضيْ وتتلألأ بنور تلك الشمس. ومع هذا فإن الإنسان يهرع خلف المتع الفانية ويبحث عن السعادة في الدنيا دون أن يفكر أن يأخذ النور والفيض من الله تعالى مثل الشمس التي تطلب القرض من الذرة. فكيف تكون الشمس شمسًا وتكون محتاجة إلى الذرة؟

إن روح الإنسان أيضًا هي نور رباني تحمل سر:

﴿**ونفخت فيه من روحي**﴾ (ص، ٧٢)

ولكن أكثر الناس يعيشون غافلين عن تلك الحقيقة لا يعلمون سمو تلك الروح وقيمتها، وهؤلاء يضحون بتلك النعمة الغالية والمقدسة والأمانة الإلهية التي وُهبت لهم مقابل متع مادية فانية، ويعشقون الحياة في هيكل البدن فقط. ويسقطون في دهاليز الغضب



والشهوة والشهرة والمتع الجسدية. وقد فني هؤلاء بمتع النفس وتلبية رغباتها، وكأن شمس المعنى قد انكدرت وانكسفت «بعقدة الذنب» نتيجة حادثة سماوية، ولم تعد تستطيع أن تنشر ضوءها.

وكل عبد في هذا الموقف عليه أن يعلم قدر نفسه، وأن يعرف نعم الله عليه التي لا تحصى وبخاصة سر «**أحسن تقويم**»!

وعليه ألا يسقط أسيرًا في قبضة المتعة الدنيوية المؤقتة التي لا أمان لأي منها! وألا يبحث عن السعادة في الرغبات الشهوانية، والمحبات الفانية. ولكن عليه أن يبحث عن كل شيء في نفسه وفي قلبه هو. والحاصل أننا علينا أن نكون على استعداد دائم لتأدية أمانة الإيمان والخروج إلى رحلة الآخرة بإرادتنا بإذن ربنا قبل أن نخرج من هذه الدنيا رغم أنوفنا مجبرين.

فيا ربّ! اجعل لقلوبنا نصيبًا من بحر كرمك الذي لا ساحل له. ومُنّ علينا بفضيلة القرض الحسن وعبادة الإنفاق التي طلبتها من عبادك لنفسك وذاتك العلية. ويسر لنا جميعا أداء مسئولياتنا وديوننا كلها المادية والمعنوية التي علينا.

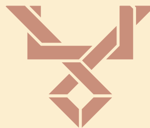
وأنعم علينا بآذان تستطيع أن تسمع آهات الأيتام والمحتاجين والبؤساء المكتومة وأنّاتهم وقلبًا يستطيع أن يشعر ويحس بهم. آمين...



الدين والإستدانة
في العلاقات الإجتماعية



نحن مُلزمون ومجبورون في أن نحيي عبادة الإقراض مثل الفضائل الإسلامية الأخرى. وعندما ننتقل غدًا إلى دار البقاء فلن تبقى فرصة كهذه في يد الغنى ولن تبقى حاجة كهذه في يد المحتاج أيضًا. ومن يصادفهم ويوافقهم هذا الموقف يجب عليهم ألا يتركوا عبادة الإقراض بمجموعة من الأعذار، ومقابل ذلك على الذين يقترضون ألا يهملوا أداء الدين متعللين بالأزمات المتنوعة ويجب ألا يسببوا الضرر ويفسدوا هذه العبادة الأِجتماعية الفاضلة



الدين والإستدانة
في العلاقات الإجتماعية

مهما كان العمل جميلاً فإن الجمال الحقيقي يظهر عند تطبيقه نتيجة الإخلاص والتكامل والنضج. ومن أجل ذلك قالت تلك الآية الكريمة:

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة، ١٩٥)

على ذلك فإن كل فضل أو تصرف أو قول أو عبادة ...إلخ تُطرح يجب أن تعكس الجمال الذي بها على الحياة من مقاييس عالية وكاملة، ويجب أن تصدر كلها عن القلب فقط. وعلى ذلك الحال فإن كل السلوكيات والعبادات التي نظن أنها أجمل ما يمكن سوف تتمزق وتتوه في دهاليز النفس ويمكن أن ينتج عنها الضرر والخسران.

ومما لا شك فيه أن المقاييس الدقيقة في شأن القرض والاستدانة هي واحدة من أهم الأمور والمسائل التي يجب فيها مراعاة تلك الحقيقة إلى أقصى درجة، لأن استمرار عبادة الإقراض يرتبط



بمراعاة قواعد إجبارية تخص كلا الطرفين معطي القرض وآخذه، لأن هذا يثير منابع الفضيلة التي في الأرواح ويجمع كثيرًا من القلوب الجافة في بحار المحبة والكرم وحب الخير أكثر للآخرين. وهكذا نصل إلى منظومة السلوكيات التي ستكون وسيلة لاكتساب رضاء الخالق ﷻ، أو على أقل تقدير إلى أخلاق عالية رفيعة تسعد حتى الملائكة. وذلك الحديث الذي نقله سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه عن سيدنا رسول الله ﷺ يعكس تلك الحقيقة بشكل معبر للغاية.

فقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ :

"أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلاً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ.

فَقَالَ: ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ.

فَقَالَ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا.

قَالَ: فَأْتِنِي بِالْكَفِيلِ.

قَال: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلاً.

قَالَ: صَدَقْتَ. فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى.

فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ، فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا، يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً، فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ، وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ.

فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلاَنًا أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلاً، فَقُلْتُ:

كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلاً، فَرَضِيَ بِكَ، وَسَأَلَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ:

كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَأَنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا، أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا. فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ، وَهْوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا، يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ.

فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ، فَأَخَذَهَا لأَهْلِه حَطَبًا، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، فَأَتَى بِالأَلْفِ دِينَارٍ، فَقَالَ:

وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لآتِيَكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ. قَالَ:

هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بشيء قَالَ أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ. قَالَ:

فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ فَانْصَرِفْ بِالأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا". (البخاري، الكفالة، ١، البيوع، ١٠)

هذا الحديث الشريف يعرض حقيقة كيف أن الحق ﷻ قد قبل الكلمة التي أعطيت باسمه، وحافظ على وعد الرجل وأتمه. وهذا



يظهر أيضًا أن في مسألة الأخذ والعطاء بحيث يجب أن يتم بين طرفين لديهم إخلاص وعدل وتفاهم. وأن الله تعالى قد عامل كِلا الطرفين بالرحمة عندما لم يُدخِلا سوء القصد والنية في عملهما. وتلك القصة التي نعرضها عليكم تعكس في شكل معبر للغاية تلك الحقيقة: كان قد اقترب وقت الإفطار وجاء رجل عليه سيماء الأصالة ويبدو أنه كان عزيزاً ذات يوم إلى باب أحد الأفران واقترب إليه. وبعد أن انفض الزحام قال للخبّاز:

«يا ولدي لم يعد عندي اليوم ما أنفقه، وليس عندي ما أتقوى به. فهلا أعطيتني ربع رغيف أدفع ثمنه غدا إذا لم يحن الأجل؟! وقال: الرجل تلك الكلمات وقد ارتعش صوته واحمر وجهه. فقال له الخباز:

ماذا تقول يا والدي سأعطيك رغيفًا كاملاً وليس ربع رغيف. وهذا حلال لك لا أريد ثمنه. ولكن ذلك الرجل الغريب رفض هذا الأمر وقال:

لا يا ولدي، يكفي ربع رغيف! ربما يأتي بعد ذلك ثلاثة فقراء يحتاجونه. ولقد تحملت أن يحمر وجهي في ربع رغيف فقط. لكني لا أستطيع أن أتحمل أكثر. شرطي أن آخذ ربع رغيف وأدفع لك ثمنه غدًا.

فتحير الخبّاز من هذا الأمر وأعطاه ما طلب، وعندما أخذ ذلك الرجل الخبزَ قبله وتركَنا بخطوات وئيدة لا صوت لها. وعندما تقدم



الرجل ظهر أمامه كلب خرج من إحدى الزوايا. ونظر إلى ذلك الرجل الشيخ الذي حكينا قصته بعيون متوسلة يملؤها الجوع. وعند ذلك أعطى الرجل المبارك ذو الوجه المنير ذلك الكلب نصف ما معه من الخبز قائلا: ليكن نصفه لك! وعقب ذلك سار الرجل نحو المسجد، وأفطر الرجل على لقمة الخبز التي بقيت معه وعلى جرعات من الماء، وشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه.

وفى اليوم التالي جاء صاحب دكان وقال:

يا عمي املأ لنا هذه القربة من عين الماء التي أمامك. واحمل تلك الأشياء التي جاءت حديثا إلينا إلى الداخل! وفى مقابل هذا العمل أعطاه ليرة.

وعلى الفور هرع صاحبنا إلى الفرن وقدم للخبّاز ثمن الخبز الذي أخذه بالأمس. وعلى الرغم من أن صاحب الفرن لم يُرد أن يأخذ تلك النقود، إلا أنه لم يستطع إلا أن يرضخ أمام رجاء وإصرار الرجل ذي الوجه النوراني، واضطر أن يقبل ثمن الخبز وقد امتلأت عيناه بالدموع».

وكما رأينا في هذا المثال النموذج فإن الله تعالى ييسر الأداء والعطاء لمن أخذ قرضاً بنية خالصة للسداد. وعلى قدر سعي المدين لأداء دينه بإخلاص دون تفكير في تأخيره أو تسويف أو سوء استعمال، يكون عطاء الله تعالى له وإحسانه عليه بالتيسير في الأداء.



ومن كان عنده شيء في عهدته يملكه يكون مسئولاً إذا لم يبعه ويؤدِ ما عليه من دين. أي أن المدين عندما لا يجد أي وسيلة أخرى عليه أن يبيع ما يملكه ولا يدخره ويسعى لأداء ما عليه من دين. وأيما رجل عليه دين واستمر يعيش حياته في رفاهية وإسراف ولم يستطع أن يؤدى ما عليه من دين فهو في تلك الحال آثم ومسئول.

فالمدين يجب عليه أن يقلل في نفقاته وعليه أن يتجنب النفقات الكبيرة الضخمة، ويجب عليه أن يرعى حق الدائن عند أداء الدين أكثر من رعايته لنفسه. وإذا لم يكن هكذا ودخلت حسابات النفس والشهوة في العمل تُرفع الرحمة الإلهية من بينهم، لأن إهمال حق العباد هو أمر لا يعفو الله تعالى عنه أيضًا.

أي أن الله تعالى الذي يقبل التوبة ويعفو عن السيئات صاحب الرحمة الواسعة لا يقبل أن يعفو عن حق العباد. ومن ناحية أخرى فإن الطعام الذي يؤخر أداء الدين يكون في حكم الحرام.

والآن نأتي إلى من يأخذ دينا وفى نيته عدم السداد، وهذه مصيبة كبيرة وهلاك في الآخرة. والذين يرتكبون هذا الجرم فعليهم أن يفكروا أنهم داخلون في هذا الهلاك الذي وضحه رسولنا الكريم ﷺ في حديثه الشريف عندما قال:

"أيما رجل يَدين دينا وهو مجمع أن لا يوفيه إياه لقي الله سارقاً" (ابن ماجه، الصدقات، ١١)



أيضًا حديث آخر يوضح في شكل بارز جدًّا أهمية هذا الأمر عند الحق ﷻ قال النَّبيِّ ﷺ:

"مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلاَفَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ" (البخاري، الاستقراض، ٢)

وما أجمل هذا النموذج الذي أوصى به وطبعه رسول الله ﷺ في شأن الدين! فعَنْ جَابِرٍ ﵁ عَنْهُ قَالَ أُصِيبَ عَبْدُ اللَّهِ وَتَرَكَ عِيَالًا وَدَيْنًا فَطَلَبْتُ إِلَى أَصْحَابِ الدَّيْنِ أَنْ يَضَعُوا بَعْضًا مِنْ دَيْنِهِ فَأَبَوْا فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَاسْتَشْفَعْتُ بِهِ عَلَيْهِمْ فَأَبَوْا فَقَالَ: صَنِّفْ تَمْرَكَ كُلَّ شَيْءٍ مِنْهُ عَلَى حِدَتِهِ عِذْقَ ابْنِ زَيْدٍ عَلَى حِدَةٍ وَاللِّينَ عَلَى حِدَةٍ وَالْعَجْوَةَ عَلَى حِدَةٍ ثُمَّ أَحْضِرْهُمْ حَتَّى آتِيَكَ. فَفَعَلْتُ ثُمَّ جَاءَ ﷺ فَقَعَدَ عَلَيْهِ وَكَالَ لِكُلِّ رَجُلٍ حَتَّى اسْتَوْفَى وَبَقِيَ التَّمْرُ كَمَا هُوَ كَأَنَّهُ لَمْ يُمَسَّ وَغَزَوْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى نَاضِحٍ لَنَا فَأَزْحَفَ الْجَمَلُ فَتَخَلَّفَ عَلَيَّ فَوَكَزَهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ خَلْفِهِ قَالَ بِعْنِيهِ وَلَكَ ظَهْرُهُ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلَمَّا دَنَوْنَا اسْتَأْذَنْتُ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي حَدِيثُ عَهْدٍ بِعُرْسٍ قَالَ ﷺ فَمَا تَزَوَّجْتَ بِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا قُلْتُ ثَيِّبًا أُصِيبَ عَبْدُ اللَّهِ وَتَرَكَ جَوَارِيَ صِغَارًا فَتَزَوَّجْتُ ثَيِّبًا تُعَلِّمُهُنَّ وَتُؤَدِّبُهُنَّ ثُمَّ قَالَ ائْتِ أَهْلَكَ فَقَدِمْتُ فَأَخْبَرْتُ خَالِي بِبَيْعِ الْجَمَلِ فَلَامَنِي فَأَخْبَرْتُهُ بِإِعْيَاءِ الْجَمَلِ وَبِالَّذِي كَانَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَوَكْزِهِ إِيَّاهُ فَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ غَدَوْتُ إِلَيْهِ بِالْجَمَلِ فَأَعْطَانِي ثَمَنَ الْجَمَلِ وَالْجَمَلَ وَسَهْمِي مَعَ الْقَوْمِ (البخاري، الإستقراض، ١٨)

ومن عظمة وجمال وسمو تلك الحادثة سميت تلك الليلة التي وقعت فيها تلك الحادثة بـ «**ليلة البعير**». وقد قال جابر ﷺ عن تلك الليلة «استغفر لي رسول الله ﷺ ليلة البعير خمسا وعشرين مرة».

وقد قال جابر أيضًا: «فمررت برجل من اليهود فأخبرته قال فجعل يعجب قال فقال اشترى منك البعير ودفع إليك الثمن ووهبه لك قال قلت نعم» (أحمد، ٣، ٣٠٣)

والحاصل أنه في إطار هذه الأخلاق الجميلة والعالية يلزم:

-على المدين أن يبيع ما يملك من أشياء في يده ليؤدى دينه.

-يجب مساعدة المدين الذي يقابل هذا الموقف.

-يجب الإِستغفار والدعاء للمدين.

وقد ذكر في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال:

"**ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ثم جعل من حوائج الناس إليه فتبرم فقد عرض تلك النعمة للزوال**" (المنذري، الترغيب، ٤/ ١٧٠)

وقد سأل رسول الله ﷺ أصحابه ذات يوم

فقال لهم:

"**أتدرون ما المفلس؟**".

قالوا:

المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.

فقال: "**إن المفلس من أمتي، يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم**



هذا، وضرب هذا. فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته. فإن فنيت حسناته، قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه. ثم طرح في النار"(مسلم، البر، ٥٩)

وفى حديث آخر قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

"مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ دِينَارٌ أَوْ دِرْهَمٌ قُضِيَ مِنْ حَسَنَاتِهِ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ"(ابن ماجه، صدقات،١٢)

ومن أجل ذلك فإِنَّ النبي ﷺ أمر الأشخاص الذين لديهم حقوق للعباد وعلى رأسها الدين أن يقضوا ما عليهم ويتحللوا من هذه الديون وهم في الدنيا فقال:

"مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَحَدٍ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ"(البخاري، المظالم، ١٠)

ومن الطبيعي أن هذا الإبراء في جوهره هو مراعاة حقوق الدائن وتأديتها في الدنيا، وعدم ترك هذا الدين للآخرة. وقد طبق رسول الله ﷺ هذا الأمر بنفسه، فعندما جاءت إليه أحد الجنازات وكان الميت عليه دين رفض أن يصلي عليه، ولم يتقدم ليصلى عليه إلا عندما تعهد أحد الصحابة بأن يؤدى ما على الميت من ديون. فعن أبى قتادة رضي الله عنه قال: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُتِيَ بِرَجُلٍ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :" **صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ فَإِنَّ عَلَيْهِ دَيْنًا** ".

قَالَ أَبُو قَتَادَةَ هُوَ عَلَيَّ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :" **بِالْوَفَاءِ ؟**".

قَالَ: بِالْوَفَاءِ. فَصَلَّى عَلَيْهِ» (الترمذي، الجنائز، ٦٩؛ النسائي، الجنائز، ٦٧)

وقد بين رسول الله ﷺ المقاييس الدقيقة لهذا الأمر وهو أمر الدين فقَالَ:

"**إِنَّ أَعْظَمَ الذُّنُوبِ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ يَلْقَاهُ بِهَا عَبْدٌ - بَعْدَ الْكَبَائِرِ الَّتِي نَهَى اللَّهُ عَنْهَا - أَنْ يَمُوتَ رَجُلٌ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ لاَ يَدَعُ لَهُ قَضَاءً**" (أبو داود، البيوع، ٩)

لو أردنا أن نلخص بإختصار الأمور التي يجب مراعاتها عند أخذ الدين وإعطائه يمكن أن نضعها في مجموعتين. وتبعا لهذا فالذي يُعْطِي يجب عليه:

١-أن تكون غايته رفع كربة أخيه المؤمن رغبة في رضاء الله تعالى وحده. وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ في حديثه الشريف:

"**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"(البخاري، المظالم، ٣؛ مسلم، البر، ٥٨)

٢-ألا يمزج الدين ويفسده بأية منفعة.

٣-أن يظهر سماحةً وليناً عند المطالبة بالدين ولو لم يستطع المدين أن يؤدى دينه رغم سعيه لتأديته فعلى الدائن أن يعطيه مهلة من الوقت ليستطيع أن يدفع دينه. وفى ذلك قال رسول الله ﷺ في حديثه الشريف:

"مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا كَانَ لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ وَمَنْ أَنْظَرَهُ بَعْدَ حِلِّهِ كَانَ لَهُ مِثْلُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ" (ابن ماجه، الصدقات، ٢١/٢٤١٨)

وقال ﷺ في حديث آخر:

"تَلَقَّتِ الْمَلاَئِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَالُوا أَعَمِلْتَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا قَالَ كُنْتُ أُيَسِّرُ عَلَى الْمُوسِرِ وَأُنْظِرُ الْمُعْسِرَ فَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُ" (البخاري، البيوع، ١٧-١٨؛ مسلم، مساقات، ٢٦-٣١)

٤-لو لم يتغير حال المدين مع الوقت وإذا ما كان المخاطب بهذا فقيرًا جدًّا وبائسًا للغاية فيجب اعتبار هذا الدين كأنه صدقة.

٥-يجب عدم إيذاء المدين وفى هذا يقول الرَسُولَ اللَّهِ ﷺ:

"مَنْ طَلَبَ حَقًّا فَلْيَطْلُبْهُ فِي عَفَافٍ وَافٍ أَوْ غَيْرِ وَافٍ" (ابن ماجه، الصدقات، ١٥)

وعلينا أن نتمثل هذا السلوك الجميل الذي يعرضه هذا الحديث. وقد قال رسول الله ﷺ في حديث شريف آخر:

"غَفَرَ اللَّهُ لِرَجُلٍ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ سَهْلاً إِذَا بَاعَ سَهْلاً إِذَا اشْتَرَى سَهْلاً إِذَا اقْتَضَى" (الترمذي، البيوع، ٧٦)



ومقابل كل هذا يجب على المدين أن:

١-ألا يقترض ما لم تكن هناك ضرورة قصوى.

٢-يكون الأِقتراض بمقدار بسيط يكفي لمواجهة ضروريات الحياة فقط.

٣-عدم الإنفاق في إسراف ورفاهية.

٤-أن تكون لديه النية والعزيمة والسعي الأكيد لأداء هذا الدين.

٥-على المدين ألا يسيئ استعمال واستثمار النية الطيبة والسلوك الحسن للدائن. لأن تصرفات كهذه تسبب الضرر للآخرين وتمنع أصحاب الحاجة الحقيقيين من الحصول على قرض لهم.

٦-عدم الأِقتراض بشكل يفتح الطريق ليفقد القرض الذي تم الحصول عليه قيمته. وخاصة في القروض طويلة الأجل يجب الإقراض بشكل لا يفقد تلك القروض قيمتها، إلا إذا كان الدائن قد أعطى سماحاً خاصًا للمدين.

٧- عدم تأخير وقت السداد والأداء. فإذا ما توفرت للشخص المدين الظروف والإمكانيات التي تساعده على السداد يجب عليه أن يقوم بالسداد في الوقت تمامًا. أما إذا لم تساعده الظروف فيجب عليه الأعتذار وطلب مهلة. وفى هذا يقول الحديث الشريف: عن رَسُولَ اَللَّه ﷺ قَالَ:

"مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ".(البخاري، الأِستقراض، ١٢؛ مسلم، مساقات، ٣٣)

٨-عدم ترك الدين للآخرة أبدًا أبدًا.

وإذا ما روعيت هذه الأمور كلها فإن الحق ﷻ قد تكفل في مواضع ثلاثة بأداء الدين عن صاحبه الذي انتقل إلى رحاب ربه، ولم يستطع أن يؤدي ما عليه من ديون. وفى هذا يقول الحديث الشريف :

"إِنَّ الدَّيْنَ يُقْضَى مِنْ صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا مَاتَ إِلاَّ مَنْ يدِّين فِي ثَلاَثِ خِلاَلِ الرَّجُلُ تَضْعُفُ قُوَّتُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَسْتَدِينُ يَتَقَوَّى بِهِ لِعَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّهِ وَرَجُلٌ يَمُوتُ عِنْدَهُ مُسْلِمٌ لاَ يَجِدُ مَا يُكَفِّنُهُ وَيُوَارِيهِ إِلاَّ بِدَيْنٍ وَرَجُلٌ خَافَ اللَّهَ عَلَى نَفْسِهِ الْعُزْبَةَ فَيَنْكِحُ خَشْيَةً عَلَى دِينِهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَقْضِي عَنْ هَؤُلاَءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (ابن ماجه، الصدقات، ٢١)

ومما لاشك فيه أن أداء الحق ﷻ لهذا الدين يوم القيامة يكون بمضاعفة الثواب للدائن أضعافًا كثيرة. وهذا بكرم الله في الآخرة يكون مكافأة قيمة للدائن من خزائن الله التي لا تنفد مكافأة أبدية وأجر لن يضيع.

ومن المؤكد أن دخول المدين أو عدم دخوله في هذه الأصناف التي عدّها الحديث الشريف هو أهم عامل في هذا الشأن. فلو تكون أي استثمار في الدين، ولو أنفق المدين هذا الدين في سبيل الله تعالى، أو من أجل مسلم آخر، أو من أجل الزواج بنية ألا يسبب ضرراً لدينه، فإنه يكون مسئولاً وربما يوم القيامة سيدفع دينه بالتأكيد.



ولهذا السبب مهما كانت الأسباب والأعذار فعلى المقترض أن يأخذ بمقدار الكفاية ويكتفي بذلك، ويسعى جاهداً لأداء هذا الدين بشكل مؤكد. وعلى الدائن أن يضيف إلى نفسه فضيلة جديدة وهى فضيلة المسامحة والإمهال في طلب الدين.

وفى أمر الدين يجب التفكير بشكل يُيَسر وضع الشخص سواء الدائن أو المدين، لأن حماية حق الدائن معطي الدين هي أهم مؤثر يدعم استمرار هذا السلوك الجميل وهو سلوك الإقراض، وعكس ذلك الأمر لا يمكن أن يساعد على استمرار فضيلة الإقراض.

وهذا الحديث بشأن حماية وضع الدائن هو حديث معبر للغاية: فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَجُلاً، تَقَاضَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَغْلَظَ لَهُ، فَهَمَّ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ:

" **دَعُوهُ، فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالاً**" (البخاري، الأستقراض، ٧)

وفى رواية أخرى عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ:

«جاءَ أَعْرَابيٌّ إلَى النَّبيِّ ﷺ يَتَقَاضَاهُ دَيْنًا كَانَ عَلَيْهِ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ حَتَّى قالَ لَهُ أُحَرِّجُ عَلَيْكَ إلاَّ قَضَيْتَني. فَانْتَهَرَهُ أَصْحَابُهُ وَقَالُوا وَيْحَكَ تَدْرِي مَنْ تُكَلِّمُ قالَ: إنِّي أَطْلُبُ حَقِّي. فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ:

"**هَلاَّ مَعَ صَاحِبِ الْحَقِّ كُنْتُمْ**".

ثُمَّ أَرْسَلَ إلَى خَوْلَةَ بنْتِ قَيْس فَقَالَ لَهَا:

"**إنْ كَانَ عِنْدَكِ تَمْرٌ فَأَقْرِضِينَا حَتَّى يَأْتِيَنَا تَمْرٌ فَنَقْضِيَكِ**".



فَقَالَتْ نَعَمْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّه . قَالَ فَأَقْرَضَتْهُ فَقَضَى الأَعْرَابِيَّ وَأَطْعَمَهُ فَقَالَ أَوْفَيْتَ أَوْفَى اللَّهُ لَكَ. فَقَالَ:

"أُولَئِكَ خِيَارُ النَّاسِ إِنَّهُ لاَ قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لاَ يَأْخُذُ الضَّعِيفُ فِيهَا حَقَّهُ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ "(ابن ماجه، الصدقات،١٧)

فرسول الله ﷺ كان يلتمس العذر لمن يطلب دينه حتى لو طلبه قبل موعده. وربما لن نستطيع أن نجد أي قائد في تاريخ البشرية يعرض لنا فضيلة أداء الحق والحقوق مثل رسول الله ﷺ. فرسول الله ﷺ قد أعطى درساً لأصحابه الذين أرادوا أن ينصروه قائلا لهم: **"هَلاَّ مَعَ صَاحِبِ الْحَقِّ كُنْتُمْ"**. وهو درسٌ في حقوق الإنسان يفتح عيونهم على الحقيقة، ويخضّر أغصان العدالة الكثيرة في قلوبهم. وكثيرة هي الأمثلة التي يعرضها رسول الله ﷺ لتشكل نموذجاً لأمته، ربما لأن هذا الأمر سيكون واحد من أكبر العقبات والعوائق التي ستظهر وتأتى من بعده.

فمثلاً يَحكي الصحابي الجليل عبد الله بن سلام رضي الله عنه فيقول:

«إن الله تبارك وتعالى لما أراد هدي زيد بن سعنة وهو من علماء اليهود يقول: بحثت عن علامات في التوراة تطابق رسول الله ﷺ فما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا شيئين لم أخبرهما منه هل يسبق حلمه جهله ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً؟! فكنت ألطف به لأن أخالطه فأعرف حلمه قال زيد بن سعنة: فخرج رسول الله ﷺ يومًا



من الحجرات ومعه علي بن أبي طالب ﵁ فأتاه رجل على راحلته كالبدوي، فقال:

يا رسول الله إن بُصرى قرية بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام، وكنت حدثتهم أن أسلموا أتاهم الرزق رغداً. وقد أصابتهم سنة وشدة وقحوط من الغيث فأنا أخشى يا رسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعاً كما دخلوا فيه طمعاً، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيء تعينهم به فعلت. فنظر إلي رجل إلى جانبه أراه علياً ﵁ فقال :

يا رسول ما بقي منه شيء قال زيد بن سعنة: فدنوت إليه فقلت:

يا محمد هل لك أن تبيعني تمراً معلومًا من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا. فقال:

لا يا يهودي ولكن أبيعك تمراً معلومًا إلى أجل كذا وكذا ولا أسمي حائط بني فلان، فقلت:

نعم فبايعني. فأطلقت همياني فأعطيته ثمانين مثقالاً من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا فأعطاها الرجل، فقال:

اعدل عليهم وأعنهم بها فقال زيد بن سعنة:

فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجه غليظ فقلت له:



ألا تقضيني يا محمد حقي فو الله ما علمتم يا بني عبد المطلب سيء القضاء مطل، ولقد كان لي بمخالطتكم علم، ونظرت إلى عمر فإذا عيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير ثم رماني ببصره فقال:

يا عدو الله أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع وتصنع به ما أرى؟ فو الله الذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم ثم قال:

يا عمر أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التباعة. اذهب به يا عمر فأعطه حقه وزده عشرين صاعًا من تمر فقلت: ما هذه الزيادة يا عمر؟

قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما نقمتك قلت : أتعرفني يا عمر؟ قال: لا؛ من أنت؟ قلت: زيد بن سعنة قال: الحبر؟ قلت: الحبر.

قال: فما دعاك أن فعلت برسول الله ﷺ ما فعلت وقلت له ما قلت له؟ قال: يا عمر لم يكن له من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه ما عدا اثنتين لم أخبرهما منه:

هل يسبق حلمه جهله؟ ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً؟! وقد أختبرتهما فأشهدك يا عمر أني قد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ ﷺ نبيًّا وأشهدك أن شطر مالي فإني أكثرهم مالاً صدقة



على أمة محمد ﷺ فقال عمر رضي الله عنه: أو على بعضهم فإنك لا تسعهم قلت: أو على بعضهم فرجع زيد إلى رسول الله ﷺ فقال زيد: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وآمن به وصدقه وبايعه، وشهد معه مشاهد كثيرة، ثم توفي زيد في غزوة تبوك مقبلاً غير مدبر ورحم الله زيداً. (الحاكم، المستدرك، جـ. ٣، ٧٠٠/ ٦٥٤٧)

وهذه الأحاديث الشريفة هي أمثلة نبوية على الجماليات والبركة الإلهية التي تظهر نتيجة حساسية القلب التي يبديها الشخص المدين من أجل الله تعالى، والمراقبة الدقيقة لحق الدائن.

والحكمة من أن رسول الله ﷺ كان يقترض أحياناً حتى يكون نموذجاً في هذا الشأن لأمته، ويعرض جمال السلوك تجاه الدائن الذي يعطي القرض.

وبناءً على ما فهمنا من هذه الأمثلة كلها فإن مسألة الإقراض والاِستدانة هي مسألة حساسة، ومن أجل ذلك فعلى الأشخاص الذين يتعاملون فيما بينهم أن يراعوا تلك المجموعة من المقاييس لكي لا يحرموا من النور والبركة التي في هذه العبادة.

ومع الأسف فإن عبادة فاضلة مثل الإقراض قد بدأت تقل بالتدريج، وتبدو تقريباً بالنسبة للدائن كأنها ضرر ولم يعد كثيرٌ من الناس يقتربون من هذه العبادة الخيرية، وكل ما سبق ينبع من عدم رعاية ومراعاة تلك المقاييس والأصول التي عددناها.



أي أن إلغاء الأمانة في البيع والشراء وانتشار الكذب وعدم الوفاء بالعهد وتحول عدم أداء الدين في وقته إلى أمر طبيعي جعل هذه العبادة الجميلة تتحول تقريباً إلى عبادة منسية.

ويجب تجاوز هذه المعوقات والعقبات عندما ننظر إلى أصول وقواعد المسألة فقط. أي أن الذين يواجهون هذا الموقف يجب عليهم ألا يتركوا عبادة الإقراض متعللين بمجموعة من الأعذار، ومقابل ذلك على من يقترضون ألا يهملوا في أداء دينهم متعللين هم أيضًا بالأزمات والضائقات المتنوعة، وألا يتسببوا نتيجة هذا في إلحاق الضرر والفساد بتلك العبادة الاِجتماعية الفاضلة.

وعلى النقيض من ذلك فإن الغني عندما لا يفِي بشكر النعم التي أعطاها له الحق ﷻ كأمانة، فإن المحتاج لا يستطيع أن يجد من يقرضه بسبب المقاييس والأصول التي لم تراع، حتى إنه يضطر من شدة الحاجة إلى اللجوء إلى الربا ولا يستطيع الخلاص من السقوط في حمّة هذا المستنفع.

وكون إعطاء القرض هو فضيلة -أي فضيلة- هو أمر ثابت في كثير جدًّا من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة. وعلى الذين يمتنعون عن الاِقتراب والمشاركة بهذه الفضيلة الكبيرة بسبب السلوكيات الخاطئة وعدم مراعاة أصولها أن يحملوا وبالاً كبيرًا فوق أكتافهم؛ لأن القروض التي تمنح مراعاة للأصول والآداب تكون رأس مال أخروي بالنسبة للمؤمن.



فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

"رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ مَكْتُوبًا الصَّدَقَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا وَالْقَرْضُ بِثَمَانِيَةَ عَشَرَ فَقُلْتُ يَا جِبْرِيلُ مَا بَالُ الْقَرْضِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّدَقَةِ . قَالَ لأَنَّ السَّائِلَ يَسْأَلُ وَعِنْدَهُ وَالْمُسْتَقْرِضُ لاَ يَسْتَقْرِضُ إِلاَّ مِنْ حَاجَةٍ " (ابن ماجه، الصدقات، ١٩/ ٢٤٣١)

ومما لاشك فيه أن إعطاء الصدقة هي عبادة يحث عليها الإسلام، ولكن يعد القرض الذي يعطى للمحتاج بدلاً من الصدقة مقبولاً أكثر؛ لأنه لا يجرح حياء وعزة نفس ذلك المحتاج.

وفى هذا الشأن كان بعض المؤمنين الصالحين بمقتضى هذه الدعوات الإلهية والنبوية عندما يستردون القروض التي أعطوها لا يمسونها مطلقاً، ويجعلونها عندهم ليعطوها مرة أخرى لمن يحتاجها من الناس، ويفعلون هذا الأمر مرارًا وتكرارًا. أي أنهم كانوا يخصصون عندهم صندوقاً «للقرض الحسن».

فمثلاً يحكي قَيْسِ بْنِ رُومِيٍّ (رحمة الله عليه) قَالَ:

«كَانَ سُلَيْمَانُ بْنُ أُذُنَانٍ يُقْرِضُ عَلْقَمَةَ أَلْفَ دِرْهَمٍ إِلَى عَطَائِهِ فَلَمَّا خَرَجَ عَطَاؤُهُ تَقَاضَاهَا مِنْهُ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ فَقَضَاهُ فَكَأَنَّ عَلْقَمَةَ غَضِبَ فَمَكَثَ أَشْهُرًا ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ: أَقْرِضْنِي أَلْفَ دِرْهَمٍ إِلَى عَطَائِي، قَالَ:نَعَمْ وَكَرَامَةً يَا أُمَّ عُتْبَةَ هَلُمِّي تِلْكَ الْخَرِيطَةَ الْمَخْتُومَةَ الَّتِي عِنْدَكِ. فَجَاءَتْ بِهَا فَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ إِنَّهَا لَدَرَاهِمُكَ الَّتِي قَضَيْتَنِي مَا حَرَّكْتُ مِنْهَا دِرْهَمًا

وَاحِدًا. قَالَ: فَلِلَّه أَبُوكَ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ بِي. قَالَ: مَا سَمِعْتُ مِنْكَ. قَالَ: مَا سَمِعْتَ مِنِّي؟ قَالَ: سَمِعْتُكَ تَذْكُرُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

"مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُقْرِضُ مُسْلِمًا قَرْضًا مَرَّتَيْنِ إِلاَّ كَانَ كَصَدَقَتِهَا مَرَّةً " قَالَ: كَذَلِكَ أَنْبَأَنِي ابْنُ مَسْعُودٍ» (ابن ماجه، الصدقات، ١٩/ ٢٤٣٠)

وقد طبق والدي المحترم موسى أفندي- قدس سره- الذي تخلق بأخلاق عظماء الإسلام هذه الأخلاق الجميلة على أفضل شكل وأتمه. فقد كانت عنده ميزانية خاصة «**للقرض الحسن**»، وكان يقدم منها لمن يحتاج.

وكان يعد هذا القرض صدقة لمن لم يستطع أن يؤديه. وكان لا ينفق هذا المبلغ من المال عند إعادته، بل يستعمله لنفس الغرض والغاية. وكان هذا القرض الحسن الذي وهبه لله ﷻ يدور هكذا دائمًا ولا يتوقف. وهذا النوع من الأعمال الصالحة هو من مظاهر جماليات السلوك الأستثنائية الخاصة بأخلاق الإسلام.

والقرض كما هو فضيلة ذات قيمة عظيمة لمن يعطي، فهو أمر يحث عليه بالنسبة لمن يأخذ. وعكس هذا الحال أي إذا لم يستطع المحتاج أن يقترض لو تعرض لأزمة شديدة للغاية فإن احتمال أن يلجأ إلى طرق خاطئة ويرتكب إثماً أكبر للحصول على المال.

وأصحاب الحاجات الذين يسقطون في مستنقعات مثل الربا بسبب أنهم لم يجدوا من يساعدهم عندما تعرضوا لضيق شديد



ليسوا بالعدد القليل. وهكذا فإن رسول الله ﷺ في حديثه الشريف في معرض تحفيز الناس على الاِقتراض بدلاً من التوجه إلى الخطأ وارتكاب الإثم قال:

"كَانَ اللَّهُ مَعَ الدَّائِنِ حَتَّى يَقْضِيَ دَيْنَهُ مَا لَمْ يَكُنْ فِيمَا يَكْرَهُ اللَّهُ"

.(ابن ماجه، الصدقات،١٠)

والحاصل أننا مجبورون على إحياء عبادة الإقراض هذه -مع مراعاة الحساسيات كلها- في يومنا كما هو الحال في الفضائل الإسلامية الأخرى. ومن أجل استمرار تلك الجمالية الإسلامية بشكل حي يشترط إدراك مقاييسها، وأحوالها، والتعمق فيها وتطبيقها.

ويجب علينا ألا ننسى أن هذه الفضيلة الجميلة عندما ننتقل غدًا إلى دار البقاء الأبدية لن تبقى هناك فرصة في يد الغني ليطبقها، ولن تبقى حاجة في يد المحتاج.

بإختصار فإن ذلك العالم الفاني الذي جئنا إليه هو عالم الفرص ودار تطبيق الأعمال الصالحة الجميلة. وخاصة في شهر رمضان الكريم وأيام الأعياد التي هي لحظات لطف وإحسان استثنائية أنعم ربنا بها علينا وهى فرص لتعويض خسائرنا وأداء كفارة ذنوبنا وأخطائنا.

إن الحكمة والسر الذي يجعل الأيام الفانية رمضان وعيدًا يكمن في أن نحيي الإيمان وحماسته، كما أن العبادة والذكر



والمساعدات الاِجتماعية بخاصة يمكن أن تتزين بالقلوب التي تمتد إلى الغرباء والبؤساء والأيتام لأن هذه هي مشعل رحمة للأيام السعيدة التي تأتى عقب الموت.

والواقع أن القدرة على نيل العفو عن السيئات بخاصة من رمضان إلى العيد هي تهنئة بانتصار معنوي، هو أن نعيش جميعاً السعادة الاِجتماعية بربح إلهي.

ومن ناحية أخرى يجب علينا أن نستطيع أن ننقل الأحاسيس العلوية مثل الحضور والسكينة إلى حياتنا كلها داخل إدراك وشعور أن هذه الحياة الدنيا هي موسم رمضاني قصير تقريبًا. لأن هذه الأيام هي أهم لحظات الفرص التي في عمرنا الفاني.

لأنه لو قيمت لحظات الفرص تلك بروحانية الشهر الكريم وبركته، فليس هناك من شك أن يوم القيامة غدًا سيكون صباح عيد أبدى وحقيقي لنا.لأن أجمل الأعياد بالقطع هو ذلك العيد.

وما أجمل ما قاله السيد بهلول دانه:

«إن العيد ليس لمن يرتدون الجديد والجميل من الثياب، بل العيد لمن أمن من عذاب الله تعالى ووصل إلى النجاة من الخسران الأبدي. مرة أخرى العيد ليس للبنين الحسان، ولا للبنات الجميلات، بل لمن ترك العيوب والأخطاء والنقائض واستطاع أن يتحول إلى عبد خالص».



يا ربِّ! أوصلنا إلى الأعياد التي في هذه الدنيا والتي في العالم الأبدي بجمال وسعة قلبية كهذه. وأحسِن علينا في هذا العالم الفاني الذي نعيش فيه بفرص وإمكانيات إلهية نستفيد منها في الطريق لنيل رضاك الشريف. وأدخلنا في زمرة السعداء الذين ينجون من كرب الآخرة برفعهم كرب أخوانهم المؤمنين وآلامهم في الدنيا. آمين...





الصداقة



أيها السالك في طريقِ الحقيقة، اعقد صداقة مع ربك الذي هو سلطان الحقيقة الأَبدية قبل أن يأتي يوم القيامة. فهو الذي سيمسك بيدك في يوم الكرب العظيم. لأنه في ذلك اليوم ليس هناك أحد سيمسك بيدك دون إذنه. ففي ذلك اليوم سيفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وأهله وأولاده. وفى تلك الحال تفهم جيدًّا الصداقة مع الحق واعلم أن الصداقة هي بذرة النفس الأخير

مولانا جلال الدين الرومي



الصداقة

يُروى أن رسول الله ﷺ قد مرض ذات يوم وعندما سمع أبو بكر رضي الله عنه بهذا هرع في الحال لزيارة رسول الله ﷺ والسؤال عن حاله ومرضه، ولكن عندما رأى رسول الله ﷺ وهو مريض لم يستطع أن يتحمل وعندما عاد إلى بيته سقط على الفراش من التأثر.

وبعد أن شُفي رسول الله ﷺ سمع أن أبا بكر مريض، وذهب إلى زيارته، فقالوا لأبى بكررضي الله عنه: «رسول الله ﷺ يأتي إلى زيارتك».

فقفز عاشق الرسول ﷺ من على فراشه فورًا، وهرع إلى الباب وهو في نشاط كبير وسرور لا يوصف، وعندما وصل رسول الله ﷺ إلى البيت ورأى أبا بكر في صحة وعافية وسر لذلك فقال لأبى بكر وهو متحير: **"يا أبا بكر قالوا إنك مريض!"**

فقال أبو بكر رضي الله عنه عاشق الرسول ﷺ وأكثر من أحبه على الأرض وهو سعيد بزيارة الرسول ﷺ له:«لقد كان حبيبي مريضاً يا رسول الله. فَمَرِضْتُ تأثُّراً له فلما وجد العافية شفيت أنا أيضًا».

و بمظاهر المحبة والصداقة هذه، وما شابه ذلك من مواقف نال أبو بكر رضي الله عنه شرف أن يكون «**ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ**» (التوبة،٤٠) كما ورد في القرآن الكريم.



ومن أجل ذلك فالمسألة كلها هي تقوية علاقات القلب بأصدق روابط المحبة التي تجعل الحق ﷻ يرضى عنا ويضعنا على صراطه المستقيم. وهكذا يمكن أن نحصل على نصيـب من نشوة العشق الإلهي لأن محبات كهذه فقط يمكنها أن تحصل على قدر ونصيـب من المحبة والعشق بالمعنى الحقيقي.

وما أجمل ما قال الإمام علي الرضا:

«إن لله تعالى شراباً معنوياً يقدمه لأحبائه عندما يشربون يسكرون، وعندما يسكرون يثورون، وعندما يثورون يتطهرون. وعندما يتطهروا يذبون ويذهبون، ولقد ذابوا فهل يصلون إلى الإخلاص. وعندما يذبون في الإخلاص يبلغون، وعندما يبلغون يتصلون بأحبّاء الحق وعندما يتصلون أبدًا أبدًا لا يفترقون».

وهذه الحال هي حال الفناء في المحبة. وأبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي عاش تلك الحال قد مرض، لكنه شعر بالرضا والاِمتنان أكثر من الصحة لأنه تقاسم وشارك حبيبه حاله. لأنه في العينية (اللاغيرية) يتلذذون ويسعدون مع الأحباب حتى ولو ذاقوا أمر الأشياء.

وبعبارة مولانا جلال الدين الرومي -قدس سره-:

«من جلس مع الأحباب حتى لو كان في أتون اللهب لظن أنه يجلس في حديقة الورود. أيها الأحباب لو انخلعتم عن الشكل وعن الصورة، ولو دخلتم عالم المعنى فسوف ترون هناك أن حدائق الجنة مزينة وجميلة أكثر من حدائق الزهور».



إن المحبة تنبع من الأِشتراك والمشاركة في الصفات الإيجابية أو السلبية. أما المحبة الحقيقية فأنها تحفظ في الأرواح الحقة فقط. وهذا الوصف يُوافق ويُصادف في أعلى درجات الشخصية الإنسانية. وفى مواجهة أي حداثة فإن الشخصين المتحابين يعيشان نفس المشاعر والأحاسيس. لأن المحبة الحقيقية والصداقة الحقيقة هي خط يجري بين قلبين.

وكل حال للمحبوب ينتشر ويسري إلى الحبيب مع هذا التيار أي تيار المحبة ، وتبدأ أنهار العشق التي في القلب في الفيضان وتبدأ شموس المحبة في البزوغ والإشراق.

فمثلاً عندما كان حضرة مولانا جلال الدين الرومي -قدس سره- مدرسًا كبيرًا في المدرسة السلجوقية أصابته شرارة من فيض نور درويش مجذوب اسمه شمس مملوء قلبه بالعشق فاحترق مولانا.

والنتيجة أن الكتب الظاهرية التي أفنت عمره فيه وتحولت إلى كتاب كائنات. وبعد فترة ظهر المثنوي الذي كان رسالة استغاثة موضحة للأسرار التي في الإنسان والكائنات والقرآن.

وهكذا تستطيع أن تكون حبيبًا للحق إذا تشبهت بتلك الحال، ولكن على قدر العشق الذي في جوهر المؤمن والأِستعداد له يكون نصيبه من التوجه والأِستقامة على طريق رضا الحق ﷻ.

وعلى عكس تلك الحال فإن العبد ربما يكون ظاهريًّا في بستان ورود متفتحة ولكن باطنه -بسبب بعده عن الحبيب- يكون في نيران



ولهب. وعلى هذا فإنه لا توجد رابطة أو علاقة بين المحبة والقرابة الظاهرية كالأخوة والمصاهرة؛ لأن أبا لهب كان عم الرسول ولكنه كان أبعد الناس عنه.

إن أسرار وألغاز عالم الروح لا تنتهي، وهذه لا تدخل في قوالب البدن والمجتمع. فالمحبة هي تسرى وإلهام يأتي من أعماق الروح، فالمحبة والعشق الإلهي الذي كان عند النبي ﷺ الذي التقى بالوحي لأول مرة في غار حراء قد ارتفعا به بعد ذلك إلى الحضور والسكون العالي في معراج محبوبه ﷻ.

إن المحبة هي لطف إلهي ينقذ الإنسان من الوحدة. فبعد أن أهبط آدم وحواء (عليهما السلام) إلى الدنيا أُجبرا على العيش منفردين منفصلين لأربعين سنة، وأذيقا شوق المحبة وحسرتها. وكأن المحبة هي انقسام روح واحدة على اثنين فإذا بك تجد نصفك نفسه أمامك.

وقد وضح النبي ﷺ هذا الأمر في الحديث الشريف فقال:

"المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل" (أحمد بن حنبل، المسند، جـ ٢، ٣٠٣، ٣٣٤)

ويكفى هذا البيان النبوي في الصداقات والذي يؤثر في الإنسان حتى يصل إلى الشرايين عندما قال:

"المرء مع من أحب"(البخاري، الأدب ٩٦)



ومن ناحية أخرى فإن الأحاديث الشريفة قد وضحت ذلك الأمر أيضًا، وهو أنه عندما يكون شخص مع من يحبه يعش معه نفس الشعور والإحساس والحياة والتفكير، ويتفق معه في الكلمة والجوهر والسلوك وتنعكس محبته عليه كأنما يوجدان في معية واحدة فلا غيرية بينهما.

وما أعجب ادعاء شخص محبةَ الوردة؛ وجوهُره وكلامُه وسلوكُه وشعُوره وأحاسيسُه كلًها دائمًا مع الأشواك. ومثل هؤلاء الذين لا يمكنهم أن يكونوا مع الله تعالى ورسوله الأكرم ﷺ بمشاعرهم وتفكيرهم وأعمالهم لا يُعدون ولا يعتبرون من أهل المحبة الحقيقية.

وهكذا فلِكي تكون مع من تحب يجب أن تُقيم فوق كل شيء بهذا الجانب، ولا يمكن الظن أن من يعيش حياة غافلة مردداً بلسانه فقط دون قلبه «إنني أحب الله ورسوله» فلا ينال البشارة التي وردت في الحديث الشريف.

ومعلوم أن معية المحبة تتحقق فقط عندما تتحقق معية الحال. وهكذا فإن الحق ﷻ يُخضّر الحدائق والمروج المعنوية في قلوب الأحباب. ولعل حال أبى بكر الصديق رضي الله عنه -الذي يأتي على رأس الذين نالوا هذا الإحسان- مملوء بكثير جدًّا من الحكم. فهو في محبة رسول الله ﷺ وصحبته كان يعيش حالاً من الوجد حتى إن تلك المحبة والشوق كانت تزداد أكثر في المكان الذي يُعتقد أنها ستهدأ فيه.



فذات يوم تحدث رسول الله ﷺ عن أبى بكر رضي الله عنه الذي أنفق كل ثروته في سبيل الله تعالى بكلمات مملوءة بالمحبة والثناء والمودة. ولكن أبا بكر رضي الله عنه -الذي خرج من ذاته وفني في رسول الله ﷺ- انقبض عندما سمع هذه الكلمات واغتم رغم أن ظاهر الكلمات كان الثناء والمحبة، إلا أنه رأى ملامح الفراق تلوح في هذه الكلمات.

وبهذا القدر شعر في أعماق روحه باضطراب مؤلم حارق يشبه نيران الفرقة والبعد، فقال بلسان روحه من أعماق قلبه كلمات لا تنبع من قلب يتحدث عن الغير: «**وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله**» (ابن ماجه، المقدمة، ١١)

ومن أجل إدراك حقيقة أرواح عالية كهذه قال مولانا جلال الدين الرومي- قدس سره- هذه الكلمات:

«على الشخص الذي يريد أن يكون في معية الله تعالى وأن يأنس به سبحانه أن يجلس في حضرة الأولياء الذين هم أحبّاء الله تعالى. لأن الحبيب عندما يجلس مع حبيبه تقال وتُقرأ مئات آلاف الأسرار التي في القلب».

ويقول أحد الشعراء أيضًا: «لو بحث عدة أشخاص عن الحق عز وجل وعن الحقيقة حتى ولو لزمن قليل جدًا لسجدت السموات على المكان الذي يوجدون فيه.

وأيضًا فأنّ الشيخ سعدي كان مظهراً للتجلي الإلهي كتب تلك الكلمات من أجل الحبيب مطهراً نفسه من الرغبات الدنيوية بالمعنى



الكامل قال: «إن رؤية وجه الأحبّاء والأصدقاء هي مثل الدواء والعلاج لأهل القلب الذين ينزفون الدماء النقية من جراحهم».

وقد عرف الحق ﷻ الأحباب الذين يدخلون في هذه الزمرة فقال في كتابه العزيز:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة، ٥٥)

فيا لسعادة ذلك الشخص الذي يخلص نفسه من شرك وفخ الأحباب والأصدقاء الفانين، ويجد وهو في هذه الدنيا الصديق الأبدي والمحبوب الحقيقي الذي هو الله ﷻ، وأن ترتبط القلوب والأرواح بسيدنا رسول الله ﷺ وتكون معمورة بأهل الإيمان.

ويصرخ مولانا جلال الدين على القلوب المحرومة من هذا السر الذي في المحبة فيقول:

«اعلم ذلك جيدًا أن الأحباب الأغيار الزائلين والأحباب المزيفين في هذه الدنيا سيصبح كلهم عدواً لك في النهاية. ومن يحني لك الرأس اليوم فسيظهر العداوة غدًا. وإذا كان المال هكذا فلتفزع إلى الله تعالى قائلاً في استغاثة متضرعة باكية: يا ربّ لا تتركني وحيدًا».

إن القدرة على إكساب الآراء والنظرات والرؤى مستوى مرتفع، وتلقي الحكم والأسرار -التي في صفحات الكائنات- بالمعنى والمفهوم الحقيقي، هو فقط عمل أبطال العشق والوجد الإلهي



الذين تمكنوا من التعمق في عالم القلب، واستطاعوا أن يعيشوا محبة حقيقية ونجحوا في ذلك.

فإبراهيم عليه السلام على الرغم من أنه كان في حال صعبة للغاية بسبب أنه كان خليلاً للرحمن، إلا أنه ظل في حال تسليم وتوكل كبيرين كشرط لتلك المحبة ولم يشعر قلبه بغمٍّ ولا همٍّ طرفة عين. وعندما ألقي في النار قال للملائكة التي جاءت لمساعدته:

«لا تدخلوا بين الحبيب وخليله. فما يحبه ربي فأنا راض به. لو نجوت فبإحسانه وكرمه. ولو احترقت فبذنبي. وإن شاء الله تعالى أكون صابرًا. واستمر بعد هذه المفاجأة قائلاً: «هو يعرف حالي فلتقولوا لي النار تحرق بأمر من؟ والإحراق عمل من؟»

وفى النهاية جاء الأِنقاذ والنجاةُ من ذلك الحبيب الكبير عز وجل وأصبحت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم عليه السلام بأمر الله تعالى. وهذه الواقعة تعرض لنا المحبة الإلهية في أعظم شكل وأجمله.

لذا فإن الحق عز وجل قال عن إبراهيم في كتابه الكريم بسبب هذه الصداقة والمحبة الحقيقية :﴿**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى**﴾ (النجم، ٣٧)

وهكذا فإن هذه الصداقة والوفاء اللذين ينعكسا على كل فرد وعلى كل شيء–من رعاية البشر لمقاييس الصداقة أحدهم تجاه الآخر– يرتبطا أيضًا بهذه الحال، فالأشخاص الذين ينالون صفات الصداقة القلبية هم سمات عالية متميزة للإنسانية سواء من الناحية الدينية أو من الناحية التاريخية. تحكي كتب التاريخ أن هناك شخصا يسمى



پيَالَه كان صديقًا مخلصًا ووفيًّا لأقصى درجة للأمير **قورقود** الذي قُتِل بسبب تمرده. وعندما علم السلطان **سليم الأول** بهذا الوفاء استدعاه وسأله قائلاً:

«عليك أن تحدد المكانة والمقام الذي تريده كمكافأة لصداقة الأمير قورقود حتى لو طلبت أن تكون وزيري».

فشكره **پيَالَه** وقال مؤكداً على صداقته للأمير: «سلطاني! وظيفتي بعد هذا أن أخدم قبر الأمير قورقود».

إن حال **پيَالَه** بك هذه تشكل ذروة مفهوم الصداقة، وهي نموذج مجسد لآداب الصداقة، وهى علامة معبرة وأمارة مؤثرة من ناحية الحكم على الأصدقاء والصداقات كلها.

وقد قال أبو عثمان الحيرى: «إن المحبة لله تعالى تتحقق بالأدب الجميل والمراقبة الدائمة، ومحبة رسول الله ﷺ تُنسج باتباع سنته، والطاعة والتسليم له المملوء بالمحبة. ومحبة الأولياء تكون باحترامهم وخدمتهم. والصداقة مع الأحباب تكون بإظهار التبسم الدائم لهم، وملاقاتهم بوجه ضحوك بشرط ألا يكون ذلك في حرام. ومحبة العائلة تكون بالأخلاق الجميلة. ومحبة الجاهلين تكون بالدعاء لهم والتوسل إلى الله تعالى أن ينالهم برحمته»

إن كل محبة وصداقة لها أسلوب وحال خاص بها، لأن الصداقة والمحبة تستمر على قدر مراعاة هذه الأحوال. والمحبة التي في القلوب لن تُصرع، ولكن إذا لم تراع آداب الصداقة



والمحبة فإن علاقة المحبة من كل نوع تتحول إلى عقدة ورباط عداء. ومن هذه الناحية يجب التحرك بحيطة ودقة شديدة عندما نتحدث مع الأصدقاء، لأن الكلمة مثل السيف البتار تقطع الصداقة والمحبة وتقتلهما، وتفتح جروحاً في القلب لا تندمل. وتجفف أزهار المحبة التي في بستان القلب وتقطفها. وتوجد كلمة تخضّر كل النواحي مثل أمطار الربيع، وتحقق فوائد بلا حدود.

وعلى العكس من ذلك فإن الصداقة المزيفة التي يعتقد أنها محبة أو صداقة، أو الحياة بشكل لامبالٍ لا يمكن أن تبدو كصداقة ومحبة حقيقية، لأن الصداقات التي تفكر باللامبالاة والغيرية تشبه حبلاً ضعيفاً مسحوبًا على حد سكين قاطع يمكن لهذا الحبل أن يتحمل ثلاث أو خمس جرات على حد السكين ولكنه في النهاية سينقطع. ومما لاشك فيه فإن صداقات ومحبات كتلك ليس لها فائدة لا في هذه الدنيا ولا في الآخرة. وعلى العكس من ذلك فإنها تسبب ضرراً لا يوصف لأصحابها في كلتا الدارين الدنيا والآخرة. ومن أجل ذلك فإن الشرط اللازم للمحافظة على هذه الصداقة هو أن تكون صديقاً ومحباً لمن يليق بها.

وفى إطار هذا المحتوى فإن المحبة التي في القلوب لو استطاعت أن تحيط بالمخلوقات كلها فإنها تجعل صاحبها مؤمنًا كاملاً، وبتعبير آخر عاشقًا حقيقيًا أي حبيبًا للحق ﷻ. وعلى الرغم من أن العشق قد بدأ بمحبات ومحبوبات فانية معينة مثل زهرة تتفتق



وتتبرعم فإنه يتوجه إلى أن يكون «**عشقًا إلهيًا**» في اللحظة التي يصل فيها إلى المخلوقات كلها بشمولية سابغة من الخالق ﷻ.

ولكن الذي يَبْقى متعلقًا بعائق الغيرية لا يمكن أن يصل إلى هذه الحال.لأن العبد يمكن أن يعيش حظه ونصيبه من المحبة والصداقة على قدر تخطيه موانع وعقبات الغيرية فقط. وليس هذا ممكنا إذا حدث عكس ذلك.

ويحكي السيد النخشبي حكاية من قبيل التمثيل لِلّذين يتعلقون بعوائق كهذه فيقول: «ذات يوم جاء شاب إلى باب بنت السلطان وقال إني عاشق لبنت السلطان. ولما وصل الخبر إلى بنت السلطان جاءت السيدة إلى باب السلطان وقالت للشاب: خذ هذه الألف درهم ولا تقل شيئًا هكذا مرة أخرى فإنه يسبب الضرر لي ولك. وعندما لم ينصرف الشاب عرضت عليه مرة أن يأخذ ألفي درهم وينصرف. وفى النهاية عندما وصلت المساومة إلى اثني عشر ألف درهم عندها قبل الشاب وانصرف.

وعندما رأت بنت السلطان هذا الموقف قالت: كيف تحبني وعيناك قد عشيت بفلس من المال ولم ترني؟ فهل تعرف ما جزاء من يفضل عليَّ أحدًا؟ يكون عقابه أن يُضرب عنقه. وبسبب عشقه الزائف أبعدته بنت السلطان عن نفسها».

وعندما سمع أحد العارفين هذه الحال سقط مغشيًّا عليه. وعندما ثاب إلى رشده قال: «أيها الناس! انظروا ما الذي تجلبه



المحبات الزائفة في الدنيا! إنها لن تنفع في الآخرة من يدّعون محبة الحق ﷻ ويتوجهون إلى غيره!»

إن عظمة المحبة يقاس بالتضحية التي يقدمها الحبيب في سبيل المحبوب عند الضرورة. إن من يحب كثيرًا لا يشعر بأنه يضحي عندما يعطي روحه فداءً لمن يحب لو طلب منه ذلك. أما الشخص الذي لم يعرف معنى العشق والصداقة ولم يستطع أن يكون له نصيب من المحبة والعشق، فيمكن القول إنه يعيش بهواه ورغباته، ولم يستطع أن يلج الطريق الموصل إلى الكمال، لأن قلب من لم يستطع أن يعرف الحب هو مثل الأرض الخراب.

أما المعرفة فهي الحب، لأن سبب الوجود هو المحبة. ومن أجل ذلك فإن الذين ينالون محبة الحق ﷻ يشاهدون وجه الصداقة والمحبة ليس في الإنسان فقط، بل في النباتات والحيوانات كلها التي تنتشر حية في الدنيا.

وقد قص علينا والدي موسى أفندي -قدس سره- حكاية حدثت له في أمر المحبة مع المخلوقات فقال: «استأجرت منزلاً في المدينة المنورة مع أستاذي المحترم سامي أفندي -قدس سره- منذ أربعين سنة تقريباً. وكان المنزل في ذلك الزمن مبنيًّا بالطوب اللبن. وعندما دخلنا الغرفة التي أعدت لاستراحته ونومه، رأينا ثعبانًا ملفوفًا حول نفسه في زاوية المنزل ففزعنا بشكل لا إرادي. أما هو فقد ظل ساكناً هادئًا، وقال: «اتركوا مخلوق الله هذا في حاله ولا تلمسوه».



وفى النهاية بعد مدة من الزمن اختفى هذا الحيوان من بيتنا. وهذا يوضح أن الذين يصلون في الله تعالى ورسوله ﷺ إلى منبع الصداقة والمحبة يصبحون أصدقاء للمخلوقات كلها. ولعل محبة يونس أمره الشاعر التركي مع الزهرة الصفراء هي من أطرف نماذج هذه الصداقة.

فالقلوب التي لا تستطيع أن ترى وجه المحبة المخفي في الطبيعة هي قلوب عمياء. وأرواح البشر التي لا تستطيع أن تتحدث مع الطبيعة هي أرواح خرساء. والقلوب التي تبحث عن الحبيب لو لم تجده في الوجود الإنساني يمكن أن تجده في الطبيعة. فالمياه الجارية والأماكن المخضرة، والجبال والزهور والبساتين تهمس بكثير من أشعار الحب والصداقة إلى القلوب التي تبحث عن المحبة.

فالقلوب التي عُجنت ونُسجت بهذه الترنمات تشعر بعظمة وجلال صنعة الخالق ﷻ، وتتكلم معها بلسان الحال. وهكذا تتفتح كثير من الأسرار الإلهية في أعماق القلوب المملوءة بأحاسيس العشق والمحبة.

وفى النهاية يصبح ذلك الوصول العالي ظاهرًا جليًا، وهكذا يؤمل الشفاء لمرضى القربى، وتبرأ الحسرة التي في القلوب. إن دفقات القدرة هذه التي في الطبيعة ترفع أحاسيس القلب ليكون صديقًا مع الأسرار والمخفيات، وتشكل أرضاً مباركة طيبة نورانية



لتكون صديقاً محبًّا للرب ﷻ. لأن آلاف الزينات التي في الطبيعة والمخلوقات هي سلم يوصل إلى الحبيب الكبير الذي هو أحب المحبوبات، أي يوصل إلى خالق هذه الجماليات كلها ﷻ. والذين يصعدون ويرتقون على هذا السلم يرتفعون لمصاحبة المولى ﷻ. فضلاً عن ذلك فإن المؤمن في هذا المقام هو في معية الله تعالى في كل مكان. ودائمًا يتلألأ نور المعية الإلهية هذا في وجهه. وهكذا فإن هذه الرموز النورانية السعيدة تكون منبع البركة والرحمة المعنوية والمادية للأمة والعالمين.

يَحكي مالك بن دينار رضي الله عنه فيقول:

«عندما تولى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الخلافة كان الرعاة في الجبال يقولون: «تولى رجل صالح حكم الناس».

فسألوهم: (من أين عرفتم ذلك الأمر؟) فقالوا: «حتى الحيوانات تعيش في راحة وسكون وهدوء».

ويقول محمد بن عُيينة – رحمه الله تعالى –:

«كنت أرعى الغنم في كيرمان وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه خليفة المسلمين. كنت أرى الأغنام ترعى مع الذئاب بسبب عدالته وروحانيته. وذات ليلة افترس ذئب أحد الأغنام. فتحيرت وقلت لنفسي كأن الدنيا قد فقدت سكونها وهدوءها كله. ومن المرجح أن ذلك الخليفة العادل حبيب الحق قد مات. ولما بحثت وسألت علمت أن عمر بن عبد العزيز قد توفى في تلك الليلة».



فعلى أي إنسان يريد أن يخلط دنياه القلبية بشخصيات نموذجية مثالية كتلك التي امتلأت بصفات الكمالات البشرية يجب عليه النظر بتدبر بعيون أحباب الحق البصيرة التي تفتح في القلوب إلى الشمس التي تملأ الأفق وهى تغيب في أوقات الشفق.

وعند مشاهدة الألوان المختلفة واللوحات المتنوعة التي ترسمها في السموات. نتحير ونندهش للوحة ذلك الفنان المبدع والصانع الماهر، ونبارك ونعظم تلك الرسومات التي قدمها لنا. وهكذا عندما نشاهد ونتأمل بهذه الأحاسيس فإن النقوش والزينات المختلفة الألوان، وفرشاة القدرة التي تتحرك أمام عيوننا على لوحة الكائنات التي رسمها الله تعالى -المصور المطلق للصور- والمناظر كلها التي في الكائنات تكون معبرة أيما تعبير.

انظروا إلى زهرة بنفسج أو إلى وردة. وتعجبوا من أين جاءت الأرض السوداء بهذه الألوان؟ في هذا العالم توجد كثير من الجماليات، ودفقات القدرة، وخوارق الصنعة والفن، والرقة التي لا يحدها الحصر والعد. والكائنات بالنسبة للقلب الذي يستطيع أن يرى هي معرض للخوارق والمعجزات.

لأن هذه الجماليات كلها هي إنعكاس رُشح من حسن جمال الحق ﷻ. ومن أجل ذلك فإن العيون والقلوب التي تسعى لمشاهدة تلك الكائنات بنظر الأِعتبار والتفكر تعود من حيث جاءت بنظر الدهشة والحيرة.



ولكن مع الأسف فإن العقل والمنطق يتعرفانِ في أحيان كثيرة على هذه المعجزات والخوارق دون أن يكون لهما نصيب من الإعتبار، مثلهم في ذلك مثل الطرق الجبلية المتحجرة الصلدة التي لا تستطيع أن تحصل على أي نصيب من أصغر نقطة من المطر الذي يسقط عليها.

فيا ربنا أعطنا وأنعم على قلوبنا بعمق الإحساس والتفكر في تجليات القدرة والعظمة والصنعة الإلهية التي في تلك الكائنات.

وعندما نفكر في حالنا ونحاسب أنفسنا بشكل جدّي، نرى أنه رغم إحاطة دفقات القدرة بنا في كل لحظة، فإن القلوب عندما تكون مغطاة بعوائق وموانع الشهوة فإنها تحرم من العشق والمحبة الإلهية.

وفى هذا الشأن فإن مولانا جلال الدين الرومي-قدس سره- يقول: «أيها السالك في طريق الحقيقة اعقد صداقة مع ربك سلطان الحقيقة قبل أن يأتي يوم القيامة. فهو الذي سيمسك بيدك في يوم الكرب العظيم؛ لأنه في ذلك اليوم ليس هناك أحد سيمسك بيدك دون أذنه. ففي ذلك اليوم سيفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وأهله وأولاده».

«وفى تلك الحال تفهم جيدًا الصداقة مع الحق واعلم أن الصداقة هي بذرة النفس الأخير. أي هي من أجل اليوم الآخر، هي من أجل رضاء الله ﷻ».



وقد تدفقت هذه الدعوة من الفم الطاهر فم سيدنا رسول الله ﷺ في لحظة الوفاة عندما قال بشكل يعكس مدى عمق المحبة والعشق لربه: «**بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى**».

إن القلوب التي أخذت نصيبها من هذا الفيض على قدرها قد وصلت إلى ذروة المحبة الإلهية، وفي رحلتها الأبدية تكون مظهراً لسر الوعد الإلهي:

﴿**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (يونس، ٦٢)

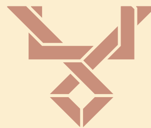
فيا ربّ أشغل قلوبنا بمحبة توصلنا إلى رضاك العالي العظيم. وأسعدنا وأفرحنا واجعلنا من الطيّبين وأحبنا يا إلهي. آمين.



آه أين الوفاء؟!



إن الوفاء للحق ﷻ يتحقق فقط برعاية واتباع أوامره فقط. وهذا الوفاء هو ذروة الأحاسيس والأفعال المرتبطة به. لأن الخالق والمحيي والواحد الصمد هو الله عز وجل. فحياتنا وموتنا بيده سبحانه. ومن هذه الناحية فإن المحبة التي تكون له ﷻ، والشعور أن تكون مرتبطاً بهِ في كل نفس هو أعظم أفق للعبودية، وهو دين الوفاء



آه أين الوفاء؟!

دعا الشاعر التركي المرحوم محمد عاكف علي شوقي أفندي البوسنوي أحد أصدقائه المقربين جدًّا إلى عقد قران إبنته. فتأخر هذا السيد العجوز قليلاً عن تلبية الدعوة. وقال علي شوقي أفندي متحدثًا عن سبب تأخره إن:«مبعث هذا التأخير هو انعدام الوفاء». فأراد محمد عاكف أن يطيب خاطره، وقال له بشكل مانع جامع وهو يبتسم: «أي انعدام وفاء تتحدثون عنه يا سيدي؟ إن الجيل الحالي قد احتكر ذلك الأمر منذ زمن بعيد».

إن هذه الحقيقة التي عبر عنها المرحوم عاكف بحزن وكأنها نفثة مكلوم آه أين الوفاء؟! هي خصلة لا يمكن الأِستغناء عنها يحتاج إليها الإنسان أشد ما يكون الأِحتياج. فالمرحوم عاكف - الذي ألمح إلى ازدياد ظهور وتفشي انعدام الوفاء في عصره عندما أطلق تلك النفثة - لو رأى مجتمعنا اليوم فمن يعرف كيف كان سيصرخ ويستغيث ويتأوه. فاليوم البشر لا يتذكرون حتى الطيبات، وعلى الأرجح فإن كلمة **وفاء** لم تعد إلا اسمًا لأحد الأحياء المشهورة في مدينة إسطنبول.

مع أن الوفاء يعد واحدًا من الشعارات الإسلامية وربما من أهم مبادئ الإسلام وأسسه. فالحقيقة أن أساس الأسس في نظر الإسلام



هو الإيمان، ولكن من المؤكد أن الوفاء في نفس الوقت هو تجل للإيمان وظهور وتجسيد له. لأن الوفاء هو رعاية العهد. والإيمان هو تصديق الرب في عالم الأرواح، والإقرار بإظهار الصداقة والمحبة له في هذه الدنيا، أي بمعنى آخر هو الوفاء.

ومع ذلك فإن الوفاء ليس رعاية العهد فقط. بل هو الإخلاص لله ﷻ وعدم تغير حال القلب، وهو تحقق ترابط القلب بشدة والاِمتنان الذي يجبرنا على إقامة علاقة جميلة حسنة بصورة فعلية تمتد من الأقارب البعيدين والقريبين، ومن إخواننا في الدين إلى آبائنا وأمهاتنا.

ومن العلماء والصالحين حتى الأنبياء الذين قضوا عمرهم يجهادون لتوصيل نعمة الإيمان إلينا. وهذه الحال ليست حال موسمية بل لابد أن تستمر دائمة طوال العمر.

إن كلمة الوفاء تحمل معنى المعية وحتى العينية أحيانًا كأن تكون واحدًا من وجهي قطعة قماش فيها أوصاف مثل الاِمتنان والصداقة والاِستقامة. ومن زاوية تلك النظرة الأساسية فإن كل سلوك وحركة توجب الإيمان مثلما تحمل معنى الوفاء والإيفاء في نفس الوقت فإن عكس هذه السلوكيات والحركات تعد من قبيل الغدر وعدم الوفاء.

فالوفاء هو صفة معنوية تتوج في أعلى مستوى الحياة البشرية كوصف خاص بالأنبياء والأولياء والأشخاص أصحاب الفضائل.



وعلى هذا النحو فقد عرف بعض المفسرين الإسلام بأنه: إقرار باللسان، وتصديق بالجنان، وتسليم لله تعالى ووفاء له في قضائه وقدره. وإن من أخذت قلوبهم نصيبًا من منبع الوفاء قد جعلوا من نفوسهم -التي كانت مثل النار- حدائق مزهرة مليئة بالورود. حدائق غناء لأن فيها ورود الذكر، وبلابل التسبيح، ومروج الإيمان والعرفان، وأزهار الإحسان الإلهي، وأنهار العمل الصالح. وهكذا فإن مكافأة قلب ما تكون مناسبة لحالته نفسها؛ لأن تلك المكافأة هي الجنات العلا وجمال الله تعالى. وهكذا فإن النيران أمام قلوب كتلك يتغير وصفها فتصبح حدائق غناء. فمثلاً في تلك اللحظة التي أمر فيها النمرود بإلقاء سيدنا إبراهيم عليه السلام في النار التي كانت مثل الجبال تبدلت حال النار بأمر الله تعالى:

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء، ٦٩)

واستحالت بستانًا نديًا؛ لأن سيدنا إبراهيم عليه السلام قبل أن يُقذف في النار أطفأ لهيب الشهوة والنفس بماء الوفاء، وكان رسولاً تجسدت فيه صداقة الحق عز وجل ومحبته في كل نواحيها.

وكانت حياة رسولنا الأعظم -الأسوة الحسنة فخر الكائنات- صلى الله عليه وسلم نموذجًا ومثالاً ومعرضًا للوفاء من بدايتها حتى نهايتها. فعندما أمره الله تعالى أن يفتح مكة ذلك المكان المبارك والمقدس الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشأ بين ربوعه. وبعد الفتح مكث نورُ الوجود صلى الله عليه وسلم خمسة عشر يومًا في مكة فاغتم بعض الأنصار وحزنوا لذلك،



وظنوا أن رسول الله ﷺ لن يعود معهم إلى المدينة مرة أخرى وبدأوا يتحدثون عن ذلك الأمر فيما بينهم. وعندما شعر رسول الله ﷺ بهذا القلق والهم الذي أصاب الأنصار جمع الأنصار وسألهم: "**ماذا تقولون؟**"وبعد أن علم ماذا أقلقهم وأحزنهم أراد أن يعطيهم نموذجاً للوفاء فقال:

"**إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم والممات مماتكم**" (مسلم، الجهاد، ٨٦؛ أحمد بن حنبل، مسند، جـ.١١، ٥٣٨)

وقد كرر رسول الله ﷺ هذا الوفاء مرة أخرى عندما ارتقى منبر المسجد للمرة الأخيرة في مرض الوفاة عندما خاطب المهاجرين موصيًا بحق الأنصار فقال:

"**أُوصِيكُمْ بالأَنْصَارِ، فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وَقَدْ قَضَوُا الَّذِي عَلَيْهِمْ، وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ، فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ**" (البخاري، مناقب الأنصار، ١١)

ومن المعلوم أن الأنبياء كلهم هم المرشدون الذين علموا البشرية معنى الوفاء في أعلى مستوى له. ولكي تصبح عبدًا ينال محبة الله تعالى يجب أن نوطن ونربي قلوبنا على تلك المقاييس والمعايير التي وضعها رسول الله ﷺ -مرشدنا وهادينا- دستوراً في أمر الوفاء. ويمكن أن نعدد هذه المعايير على النحو التالي:-

١-الوفاء لله رب العالمين:

إن أول الأُنس والوفاء -الذي هو نتيجة له- يكون لله ﷻ، لأن الله تعالى قد أخذ الإقرار على الأرواح التي خلقها في الأزل «**يوم الذر**» فقال لها:

﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾ (الأعراف، ١٧٢)

وشأن هذا الإقرار أنه عهد يفيد ألوهية الخالق ﷻ، وقبول عبودية الناس له. ومن قَبِل هذا الأمر يكون عليه إظهار الصدق في هذا الإقرار، وإظهار الإخلاص، وجعل تلك العبودية تدوم وتستمر في أجمل شكل طوال العمر.

لأن الإقرار لا يكفى فقط لهذا الإخلاص والوفاء. بل توجد مجموعة من التكاليف الوجدانية والعقلية التي يُنشئها هذا القبول، وهذه التكاليف هي القيام بما أمر الله تعالى به وتجنب ما نهى الله عنه.

وفى تلك الحال فإن الوفاء للحق ﷻ يتحقق فقط بمراعاة أوامره. وهذا الوفاء هو ذروة الأحاسيس والأفعال المرتبطة به ﷻ.

لأن الخالق والمحيي والواحد الصمد هو الله ﷻ. فحياتنا وموتنا بيده سبحانه، ومن هذه الناحية فإن المحبة واسعة التي تكون



له تتحقق في أن تكون مرتبطا به في كل نفس، لأن ذلك هو أعظم أفق للعبودية هو دين الوفاء. فالسحرة الذين صلبهم فرعون في جذوع النخل، وقطّع أرجلهم وأيديهم من خلاف لأنهم آمنوا، لم يقولوا: ربنا نجنا وخلصنا من هذا البلاء، واكتب لنا الراحة والنجاة، بل ما أعظم وفاء العبودية الذي نطقت به ألسنتهم عندما قالوا:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف، ١٢٦)

لذا كان رد الخالق الكريم على العباد الذين يمثلون وفاءً وصداقة كتلك أن قال لهم:

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ (الأحزاب، ٢٤)

أما في الآية الكريمة الأخرى فقد أثنى على المؤمنين الذين هم أهل الوفاء بأن قال عنهم:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب، ٢٣)

وبسبب تلك الحقيقة فإن مولانا جلال الدين الرومي-قدس سره- ينادي على سالكي طريق العرفان والوجدان متحدثا بطريق المجاز عن الوفاء للحق ﷻ والصبر على الاِمتحانات والاِبتلاءات التي في هذه الدنيا الفانية فقال: «أيها البلبل! حتى متى تستغيث من الزمهرير وشدة البرد؟ أيها البلبل! هل يليق أن تتحدث عن الجفاء



دون توقف؟ لو أن قلبك ارتبط حقًّا وبصدق بحبيبه؛ فافتح عيونك واشكره أيضًا وتحدث عن الوفاء.اترك الشوك وتحدث عن الورد. لا تلتفت لصفات وردتك الخاصة بالساق والجذر، وانظر إلى ذات الورد نفسها فلماذا أنت مشغول بهذا العالم الفاني؟! أليس المكان الذي تريد أن تصله وراء هذا العالم؟»

وهكذا مثلما عبر مولانا جلال الدين-قدس سره- فإن نتيجة الغفلة وعدم الوفاء والسعي وراء المحبات الفانية والمؤقتة هو الخسران المبين لذلك فإن الحق ﷻ يحذر عباده من الوقوع في هذه الغفلة فيقول لهم:

﴿**وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ**﴾ (الحشر، ١٩)

ويقول أيضًا: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسَى**﴾ (طه، ١٢٤-١٢٦)

وهكذا فإن من يظهر الوفاء لله رب العالمين في هذه الدنيا الفانية سيظهر الوفاء أيضًا في الآخرة، لأن أعظم الوفاء وذروته خاص بالله تعالى ذاته، والخطاب الإلهي يوضح هذا الأمر فيقول:

﴿**فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ (التوبة، ١١)



ومع أن الحال يجب أن يكون هكذا، إلا أن هناك من يفعلون عكس ذلك فيغرقون في الغفلة في الدنيا وينسون ربهم. ولكنهم يوم القيامة العظيم المروع الذي يحتاج فيه المرء لأصغر حسنة وأي مساعدة سيدفعون ثمن عدم الوفاء هذا بشكل مرير للغاية.

لأن الوفاء هو صفة يُبحث عنها وتُطلب في الأمور كلها وعلى رأسها العبودية لله ﷻ، لأن مقابل الوفاء هو الوفاء فقط.

وما أجمل المعنى الدقيق الذي عبر عنه مولانا جلال الدين الرومي -قدس سره- حين قال: «إن جميع الأمور مثل العشق والمحبة والصداقة مرتبطة كلها بالوفاء. فلتبحث دائمًا عن الشخص الوفي. ولا تقترب أبدًا من قلب غادر لا يعرف الوفاء والإخلاص».

«وكتب القلم: الوفاء جزاؤه الوفاء، والجفاء جزاؤه الجفاء، ثم جف مداده».

«وأي سلطان سيسرع بفصل رأس أي شخص يخونه عن جسده حتى لو كان ابنه. لكن لو أظهر عبد هندي الوفاء للسلطان لصفقت يده لذلك العبد قائلة «ليعش طويلاً». ولا يمكن أن ينال مئات الوزراء ذلك الأحترام الذي أبداه ذلك السلطان للعبد».

«حتى لو كان كلبًا وفيًّا يقف على أحد الأبواب لاخضرت في قلب صاحبه مئات من مشاعر الاِمتنان والرضى تجاه ذلك الكلب، ولداعب صاحبه ذلك الكلب بمحبة وحن عليه».



٢-الوفاء لسيدنا رسول الله ﷺ :

إن أعلى وأوجب وفاء بعد الوفاء لله ﷻ هو الوفاء لسيد العالمين وفخر الكائنات رسول الله ﷺ. هذا الوفاء يكون لرسول الله ﷺ الذي كانت أمته أهم ما لديه، وكان يتضرع إلى الله ﷻ ويدعوه قائلاً: " **أمتي... أمتي**".

هذا الوفاء يبدأ بالتعمق في عشق ومحبة رسول الله ﷺ ويكون ممكنًا إذا استطاع الفرد أن يكون فراشة حول سنته السنية. ذلك أن النبي العظيم ﷺ -الذي يحملنا إلى الله تعالى- كان قنديلاً ومصباحًا وحيدًا لا مثيل له أرشدنا في مواجهة الحياة والموت، واختار لنا طرق السعادة الأبدية. وكم هي معبرة تلك الأحاديث التي توضح وتحكي الوفاء له ومكافأته ﷺ لهذا الوفاء.

فعندما انقلب الحال في غزوة أحد كان المشركون يهجمون بكل قوتهم على رسول الله ﷺ يقصدون قتله. وأثناء ذلك كسرت الأسنان المباركة لسيد الأنبياء ﷺ. وفى تلك المعركة العظيمة كان حول رسول الله ﷺ صحابة كرام قدم كل واحد منهم أسطورة في الفداء والتضحية -التي لا يمكن وصفها أو الوصول إلى أصغر شيء منها- فبعضهم كان يترّس بجسده على رسول الله ﷺ، وبعضهم كان يصد السهام عن رسول الله ﷺ بيده، وبعضهم كان يهجم على العدو ويسعى لتفريقه. وفى ذلك اليوم كان سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه _الذي يروى أنه رمى ألف سهم على المشركين- كان بجانب رسول الله ﷺ يقدم



أسمى آيات التضحية والفداء. حتى إن رسول الله ﷺ كان يصيح عليه ممتنًّا شاكرًا -في مواجهة حال الفداء والتضحية تلك- قائلاً: **"إرم يا سعد فداك أبي وأمي"**.

وكان علي رضي الله عنه يقول: «ما رأيت النبي ﷺ يُفدي رجلاً بعد سعد سمعته يقول: **"ارم فداك أبي وأمي"** (البخاري، الجهاد، ٨٠؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٤١)

مثال آخر عندما أرسل رسول الله ﷺ سيدنا عثمان رضي الله عنه يوم الحديبية سفيراً إلى مكة. وأخبر سيدنا عثمان رضي الله عنه المشركين أن نية المسلمين قضاء العمرة والعودة. ولكن المشركين لم يأذنوا لهم ذلك العام. وقال المشركون لسيدنا عثمان: لو أردت أن تطوف بالبيت الآن فافعل!.

ولكن عثمان رضي الله عنه الذي كان من الذين باعوا أنفسهم لله تعالى ولرسوله ﷺ قال: ما كنت لأفعل طالما رسول الله ﷺ لم يطف بالبيت، أنا أريد أن أزور بيت الله خلف رسول الله ﷺ فقط. ولا أكون في مكان لم يأمرني به رسول الله ﷺ. وكان في هذا إخبار للمشركين بمحبته وإخلاصه لرسول الله ﷺ.

وفى هذه الأثناء قبل رسول الله ﷺ بيعة أصحابه بناء على الأحداث التي تطورت. وفى نهاية البيعة وبسبب عدم وجود عثمان رضي الله عنه بها فقد ضرب رسول الله ﷺ بيده على يده وقال: **"هذه يد عثمان، اللهم هذه بيعة عثمان"** (أحمد، جـ. ٤، ٣٢٤؛ ابن سعد، جـ. ٢، ٩٧، الواقدي، جـ. ٢، ٦٠٠-٦٠٢؛ البخاري، أصحاب النبي، ٧؛ الترمذي، المناقب، ١٨)



وهذا العطف النبوي الذي أظهره رسول الله ﷺ لسيدنا عثمان ﷺ يشمل الأمة كلها، بشرط أن يزينها إخلاص ومحبة ووفاء كالذي كان عند عثمان ﷺ. ونحن من الممكن أن نشترك قلبيًّا مع الصحابة الذين كانوا في بيعة الرضوان بالوفاء الذي في قلوبنا، ويمكننا أن ننال البشرى التي كانت في الآيات الكريمة التي تقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيما﴾ (الفتح، ١٠)

ومن أجل أن ننال هذا الأمر فالطريق هو أن نحبه ﷺ بما يليق به ونكون أوفياء له على الدوام وقد أوضحت الآية الكريمة هذا الطريق فقالت:

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ (الأحزاب، ٦)

وفي إطار تلك الآيات الكريمة -التي عبرت عن معنى الوفاء لرسول الله ﷺ- جعل عشاق النبي ﷺ من كل أمانات الرسول ﷺ بداية من تلك الشعيرات المباركة التي تبقت من لحية الرسول ﷺ وشعره الشريف حتى آثار أقدامه المباركة تاجًا على رؤوسهم. وقد استمرت الأمانات كلها -التي جاءت حتى يومنا الحاضر- من بردته الشريفةِ وعصاه، ومن سيفه وقوسه وخاتمه الشريف محاطة بهذا الإحساس والشعور بالوفاء.



وتلقت الأمة كل شيء يخص رسول الله ﷺ على أنه «**أمانة مقدسة**». وفي هذا الميدان كانت العناية والاِحترام والوفاء الذي أظهرته الدولة العثمانية أسطورة على الألسنة. حتى أن بعض المفكرين قد ربطوا بين بقاء الدولة العثمانية عظيمة مهيبة طوال ستة قرون وبين احترامهم -الذي لا تخطئه العين- للأمانات المقدسة[1] والتي بقيت كل واحدة منها ذكرى علوية للأمة من رسول الله ﷺ، فضلاً عن إتباع الدولة للقرآن والسنة النبوية المطهرة.

٣-الوفاء لعظماء الإسلام:

إن كل مؤمن عليه أن يمتلئ بشعور الوفاء تجاه عظماء الإسلام، فعظماء الإسلام هم الذين حملوا إلينا أوامر رسول الله ﷺ، ونواهيه، وأخلاقه الجميلة، وكانوا المشاعل العلوية التي أضاءت دنيانا وأخرانا. والمجتمعات الإسلامية يجب أن تحذو حذوهم وتنهج نهجهم بتعاليمهم وإرشادهم، ويجب أن تسير نحو المستقبل مزينة بعوالمهم المعنوية. لذلك قالوا: «موت العلماء موت للأمم». ومن ناحية أخرى فقد قال الحق في كتابه الكريم:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ (التوبة، ١١٩)

وقد فسر بعض المفسرين كلمة الصادقين التي وردت في

(١) هذه الأمانات المقدسة محفوظة تحت عناية ورعاية خاصة في متحف طوب قابي بأسطنول المحروسةمن أكثر من أربعمائة سنة والحفّاظ يتلون القرءان بالتناوب وبدون انقطاع ليلاً ونهاراً (دز آدم أقين)

الآية الكريمة بأنهم أهل الوفاء وأصحابه. والآية تأمرنا أن نكون مع أصحاب الوفاء في طريق الإيمان والإسلام لكي ننال الخلاص والنجاة في الدنيا والآخرة.

٤-الوفاء للوالدين والأقارب:

إن حق الوالدين من الأمور التي يجب الوقوف عندها كثيرًا جدًّا. لأن خدمتهم وإكرامهم والتحدث إليهم بالكلام الطيب هو أكبر دين للوفاء يقدمه الأبناء للوالدين وخاصة عند الكبر والشيخوخة. لذا ذكر القرآن الكريم حب الوالدين وخدمتهما بعد الإيمان بالله وعبادته فقد قال الحق ﷻ في كتابه الكريم:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ وَبالْوَالدَيْنِ إحْسَاناً إمَّا يَبْلُغَنَّ عندَكَ الكبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كلاهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَريماً. وَاخْفضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ منَ الرَّحْمَة وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَاني صَغيراً﴾ (الإسراء،٢٣-٢٤)

وحياة النبي ﷺ قد امتلأت بكثير من نماذج الوفاء، فعندما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي رضي الله عنهما - وكانت ترعى رسول الله ﷺ في شبابه كأنها أمه- دخل عليها رسول الله ﷺ، وجلس عند رأسها وقال:

"رحمك الله يا أمي كنت أمي بعد أمي تجوعين وتشبعيني، وتعرين وتكسيني، وتمنعين نفسك طيبًا وتطعميني، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة."

ثم أمر أن تغسل ثلاثاً، فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور سكبه



رسول الله ﷺ بيده، ثم خلع رسول الله ﷺ قميصه فألبسها إياها وكفنها ببرد فوقه. ثم دعا رسول الله ﷺ أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصاري وعمر بن الخطاب وغلاماً أسود يحفرون فحفروا قبرها فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله ﷺ بيده وأخرج ترابه بيده. فلما فرغ دخل رسول الله ﷺ فاضطجع فيه فقال:

"الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها، ووسع عليها مدخلها، بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي، فإنك أرحم الراحمين".

وكبر عليها أربعاً، وأدخلوها اللحد هو والعباس وأبو بكر الصديق رضي الله عنه" (الطبراني، المعجم الكبير، جـ.٢٤، ٣٥١-٣٥٢)

وفى حياة الرسول ﷺ النموذجية يوجد كثير جدًّا من الأمثلة -والتي لا يمكن الوصول حتى إلى أدناها- اخضرّت بالوفاء، وستظل كل واحدة منها درسًا في الفضيلة لا مثيل له للإنسانية كلها.

فمثلاً عقب غزوة حنين جاء وفد من قبيلة هوازن إلى رسول الله ﷺ -وكانوا قد أسلموا- وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يحرر أسراهم وقام خطيبهم فقال: يا رسول الله إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك.

وعند ذلك قال رسول الله ﷺ بحس يملأه الوفاء الكبير:

"أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم"

فقال الصحابة الكرام: بطيبة قلب لكي يأخذوا حظهم من نفس

فضيلة الوفاء: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ.(انظر: احمد، جـ. ٢، ١٨٤)

وهكذا في ذلك اليوم تحرر ست آلاف أسير دون أي مقابل دنيوي. وقد دخلت قبيلة هوازن بكاملها في الإسلام نتيجة تلك الفضيلة التي لا نظير لها.

ومع الوالدين تأتي محبة الأقارب والأصهار والوفاء لهم. والقرابة نوعان: أولهما قرابة الإيمان والفضيلة بالمعنى العام، وثانيها القرابة الخاصة وهى قرابة الدم والنسب. وقد سُمّي الأقارب بـ«أولوا الأرحام» بالتعبير القرآني، وأطلق على زيارتهم «صلة الرحم». وقطع العلاقة مع الأقارب سلوك سيء وقبيح وذنب كبير. ولذا قيل: «لا تنزل الرحمة على مجلس فيه قاطع رحم»

وقد أمر ديننا الحنيف بمراعاة حقوق الأقارب على أكمل وجه قريبهم وبعيدهم وبذل كل خير لهم. وقد حملنا الإسلام هذا الأمر كوظيفة وواجب حياتي.

إن مظاهر المصاهرة وتشكيل العائلات من تجليات الله تعالى العجيبة والغريبة. ذلك أن الغرباء الذين يتقاربون أحدهم مع الآخر في ظل النكاح، والروابط ومعاشرة الأقارب التي تتشابك مثل فروع المحبة داخل القرابة هي من جملة إحسان وعطف ربنا علينا، وقطع روابط القرابة هو غدر قبيح جدًّا. فالبشر مهما تفاوتوا في الظاهر فإنهم يتجمعون عند والدي البشرية آدم وحواء (عليهما السلام) ومن المؤكد أن إحساس الوفاء مع أفراح التقوى وفضائلهما



يشكلان قرابة ونسباً.

إن سعادة الدنيا تقوى وتشتد برباط قرابة ووشائج عائلية إسلامية. والإخلاص في هذه الدنيا وشعور الوفاء -الذي يجعل هذا الإخلاص يستمر- هما السعادة في الآخرة. وليس الذين يستحقون الوفاء هم من عددّناهم فقط، بل يجب أن نوطن الوفاء في القلب للأصدقاء والإخوان في الدين. ومن ناحية أخرى فإن الوفاء للأجداد وللأحياء والأموات وللوطن، والوفاء للأمانات كلها التي في المجتمع وهي من أوصاف الشخصيات الذين وَصلوا أِلى درجة كبيرة من العلم والمعرفة والأخلاق.

ومن المعلوم أن شعور الوفاء وإحساس التقوى لدى العبد لا يرضيان الإخلال بالحدود الإلهية وتخريب قلعة المحبة. وعلى العكس من ذلك فإن النفس والشهوة يجران القلب -الذي يتخبط في طرقات النفاق والغفلة- من مستنقع إلى آخر ومن هاوية إلى أخرى.

فمثلاً كان سبب هلاك كثير من الأقوام الذين صادفتهم الجذبة الإلهية هو عدم وفائهم دائمًا بالكلمة التي أعطوها للحق ﷻ.

وبينما كان يلزم على هؤلاء الوفاء والإخلاص في العهد وأداء دين الإنسانية تجاه الرب ﷻ، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يصلوا إلى هذا أبدًا. وهكذا فإن العلم يكون سببا للهلاك لو ظل محرومًا من المعرفة والإذعان. وهذا الدرس المعبر للذين يرون حالهم وللذين يأتون بعدهم قد جُعل وسيلة نصح وإرشاد للمتقين، فتقول الآية الكريمة:

﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾



(الأعراف، ١٠٢)

وما أجمل تلك القصة للشاعر فريد الدين العطار التي تعكس حال من نسوا النعم التي أعطاها الله لهم، وأظهروا الغدر وعدم الوفاء كهوى وميل شهواني بسيط يقول: «كان لدى السلطان كلب صيد يحيطه السلطان بالرعاية، وكان ذلك الكلب ماهرًا وحاذقًا في الصيد. وكان السلطان يعزه إلى أقصى درجة. وكان في كل مرة يخرج فيها إلى الصيد ويصطحب هذا الكلب معه، وقد زين السلطان طوق الكلب بالمجوهرات وعلق على قدميه أسوار مصنوعة من الذهب والفضة.

وذات يوم خرج السلطان للصيد مع أركان دولته واصطحب معه ذلك الكلب، وكان السلطان يسير بشكل وقور على حصانه ممسكاً في يديه طوق الكلب بحبل من الحرير وكان السلطان سعيداً للغاية، ولكنه رأى شيئًا فجأة جعل تلك السعادة تزول سريعاً. لقد كان الكلب الذي يحبه جدًا في حال نسي فيها السلطان وانشغل بشيء آخر.

وعندما أراد السلطان حزينًا أن يجر الكلب رفض الكلب بعناد شديد، واستمر يقضم قطعة عظم كانت أمامه. وأمام تلك الحال صاح السلطان وسط مشاعر الحيرة والغضب: كيف تنساني وأنت معي وتنشغل بشيء آخر كيف يكون هذا ؟

وحزن السلطان وأصابه الغم وأثر فيه بشدة غدر الكلب وعدم وفائه وإحساسه. ولم يلتمس له السلطان العذر، ولم يجد في نفسه



الرغبة أن يعفو عنه. فليس نسيان السلطان الذي أكرمه وأحسن إليه وأعزه للغاية فجأة مقابل عَظْمة صغيرة بالأمر الذي يمكن تجاوزه أو العفو عنه لأن تصرف هذا الكلب جرح قلب السلطان وكان مخالفًا للوفاء.

وقال السلطان بغضب: «أفسحوا الطريق لعديم الأخلاق هذا». وفهم الكلب معنى هذه الحيرة لكن لم يكن في مقدوره أن يفعل أي شيء. ولم يكن هناك شيء ليعمله. ونظر الذين حول السلطان إلى السلطان قائلين: يا سلطاننا لنأخذ ما عليه من مجوهرات وذهب وفضة ثم لندعه يذهب ويمضي. فرد عليهم السلطان قائلاً: «لا اتركوه وليذهب على تلك الحال»، وأضاف بعد ذلك قائلاً مرة أخرى: «اتركوه وليذهب هكذا ليبقى غريبًا جائعًا عطشان في الصحراء الخالية الخربة الحارة. ولينظر إلى ذلك الذهب وتلك المجوهرات وليعش مرارة الإكرام والإحسان الذي فقده».

وما أجمل تلك العبرة التي تحملها تلك القصة التي تعكس حال الأشخاص غير الأوفياء وأهل الغدر الذين لم يستطيعوا أن يعرفوا قدر وقيمة نعم الله ﷻ التي لا تحصى ولا تعد، وتعلقوا بمنافع بسيطة تافهة دنيئة كان فيها هلاكهم. فالشخص الذي هوى إلى تلك الحال يرى كل هذه المتعلقات الفانية فارغة تافهة لكن كل شيء يكون قد انتهى.

يقول مولانا جلال الدين-قدس سره-: «إذا كان الغدر هو مسبة وعيب حتى في حق الكلاب فكيف ترضى كإنسان أن تظهر هذا



الغدر وعدم الوفاء».

وعلى هذا النحو فإن الكبار كانوا يصيحون هكذا على سالكي الطريق قائلين: «خذ العبرة على قدر ما تستطيع من أحوال الغافلين، و أحوال الصالحين أيضًا. وتطلع لأن تكون عبدًا وفياً لله ﷻ». نعم هذه هي كل المسألة: «أن تقدر أن تكون عبدًا وفيًا فقط».

فلنشكر الله تعالى شكرًا لا ينقطع أن أعطانا شرف وبركة أن نكون لسنوات عدة قريبين للغاية من عبد وفي. ذلك العبد هو والدنا المحترم موسى أفندي -قدس سره- هذه الشخصية الفريدة التي انتقلت إلى رحمة الحق ﷻ في اليوم السادس عشر من شهر يوليو عام ١٩٩٩م ودفن في مقبرة «الصحراء الجديدة» باسطنبول.

كان والدنا وأستاذنا ممثلاً كاملاً في زماننا لسيدنا أبى بكر الصديق رضي الله عنه من ناحية الطبيعة والوفاء والخُلق، وكان معروفًا بين محبيه بأنه «**صاحب الوفاء**». هذا التعبير بلاشك لم يطلق على شخص كبير كهذا عبثًا وبلا سبب، لأن حبيب الحق هذا عاش طوال عمره تجسيدًا ورمزًا استثنائيا للوفاء والصداقة، وكان أفقًا ومحيطًا قلبيًا وشمسًا لأيامنا وقمرًا لليالينا والذي كان قطبًا للاِستقامة وسلطانًا للعارفين.

فقد جمع في قلبه مظاهر الوفاء كلها التي ذكرناها حتى الآن. وبسبب ذلك كان برعمة متفتحة للوصول يستحق أن يُلقب ويُذكر بـ«**صاحب الوفاء**». ورغم مرور الكثير من الوقت بعد وفاته، إلا أن



الزمن لم يستطع أن يضمد حتى جرحًا من جروح الفراق التي في قلوبنا. على العكس من ذلك كانت تشتد أكثر فأكثر، لأن رحابه القلبية التي تحلت بالوفاء -لا يمكن وصفه- كانت صداقة وارتباطًا دائمًا بنا، ومكانًا فريدًا للمحبة والعشق.

وعندما يقدر الله ﷻ خدمة شريفة لواحِدٍ عباده ينعم عليه بأن يجعله لائقًا لهذا العمل. وهكذا عندما يُنظر من هذا الجانب نجد أن الكمالات الظاهرية والباطنية قد تمثلت في شخصية موسى طوبّاش أفندي في كل نواحيها. وكان يمكنه توضيح المواقف والأحداث الصعبة للغاية بفراسة ودراية وحساسية عميقة حتى أدق التفاصيل.

وكانت الورود النادرة وأزهار القرنفل وأزهار النرجس والسنابل -التي يعرضها في رحاب وحديقة الوفاء- هي جماليات تخضّر حدائق قلوبنا ولا تذبل أبدًا. وكانت الأحوال التي لديه المملوءة بآلاف الأحاسيس والجمال مثل الصداقة مع الحق ﷻ والتدثر بالكتاب والسنة المطهرة، وحماية أمانات الأجداد بالنفقات التي كان يقوم بها، والمعاملة الطيبة التي كان يبديها للأقارب والأحباب والأصدقاء وحتى أصدقاء الأصدقاء. وجهوده في خدمات الوقف كل هذا كان بالنسبة لنا أجمل نموذج في كيفية تحقيق الكلمة التي أعطاها لله ﷻ «يوم ألست؟ أو يوم الذّر»

ونحن يمكن أن نعدد مجموعة من مشاعر الوفاء التي لا تحصى ولا تعد لموسى أفندي-قدس سره-. من ذلك أن موسى



أفندي -قدس سره-كان يتأثر بشدة فوق العادة تجاه البؤساء وكبار السن في المجتمع الذين تُركوا للوحدة ويعانون من الألم والفقر والعوز والحاجة نتيجة عدم الوفاء. وكان يقول لنا: «يجب علينا أن نأوي هؤلاء البؤساء في بيوتنا في الأساس. لكن هذا ليس في مقدورنا. وفى هذه الحال يجب أن نؤسس بيتًا هادئًا لهم».

وقد نجح مع عدد من المقربين له في تحويل هذه الفكرة الجميلة إلى واقع ملموس. وكان أحيانًا يزور هؤلاء الغرباء البؤساء ويتعرف عن قرب على احتياجاتهم ومتطلباتهم.

وكان قلبه يمتد ليسع حتى القطط التي في الحديقة وكان يسميها بصفاتها وكان يعامل كل واحد منها بالمحبة والرحمة التي كان يعامل بها أولاده.

حتى إنه جعلني شخصيًّا أبحث بعد خمسة وخمسين عامًا عن الممرضة الذي كانت تقوم على رعايتي عندما كنت رضيعًا وأخيراً وبعد جُهْدٍ وجدتها فأكرمها وبذل لها الود.

أما وفاؤه لأستاذه سامي أفندي-قدس سره- فكان أسطورة على الألسنة. فقد كان منزل سامي أفندي هو أول مكان يزوره في أيام الأعياد. وكان يذبح أول أضاحيه من أجله.

وكان يتوسل بقراءة الختمات الشريفة لروحه الطاهرة بشكل خاص. وكل عام كان أكثر ما يسعد قلبه الوفي هو آلاف الختمات الشريفة التي يتلوها محبوه على روح أستاذه.



والحاصل أنه كان بالنسبة لنا مدرسة للمحبة والود والعشق مثل أبى بكر الصديق ﵁ في حياته وتصرفاته وسلوكياته -التي احتوت عمره كله- في أمر: «ما هو الوفاء لمن نحب وكيف نحققه؟».

والآن فإن جميع من تعلق بأهل المحبة قد تحول إلى برعمة نبوية في أرض الوفاء التي خضّرها ذلك الرجل سلطان المحبة والعشق.

فاللهم أحسن علينا أجمعين. اللهم أدخلنا في زمرة الصالحين وأحسن على قلوبنا بأحوال «صاحب الوفاء» الجميلة، ومُنّ على أعمالنا بالصدق والإخلاص واجعلنا أجمعين من ورثة جنة النعيم.

واجعل من أولادنا وذريتنا -قرة العين وسرور القلب- **أئمةً وتاجاً على رؤوس المتقين. واجعلنا أجمعين أوفياء لك ولرسولك وللوالدين والأقربين ولأهل الإيمان كلهم وللوطن والأمة وللأمانات الأخرى كلها. واجعلنا نعيش في رحاب رضاك الشريف في الدارين في الدنيا والآخرة. آمين...**

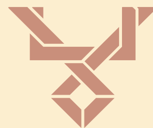




كن شخصا مثاليا
من أهل الإِيمان



إن أولياء الحق ﷻ قد قضوا على ميولهم الشهوانية داخل نفوسهم مثل احتراق ورقة تحت عدسة، بسبب أنهم كانوا تحت ظل عشق الله تعالى ومحبته. وهكذا فإن البشر الآخرين ينجذبون إلى جمالياتهم النورانية على غير إرادة بسبب تحولهم إلى مركز جذب نوراني



كن شخصا مثاليا
من أهل الأِيمان

إن الله تعالى قد ساعد عباده للوصول إلى السعادة عن طريق تكليف بشر صالحين وشخصيات استثنائية ذوي فطر سليمة كمرشدين يأخذون بأيديهم من أجل توصيلهم إلى الهداية.

فالإنسان فطريًّا يتأثر بالشخصية والنموذج. أي أنه يوجد احتياج كبيرٌ لنموذج فعلى يوجه الإنسان إلى الحق والحقيقة ويؤثر في تربيته الروحية وفي قلبه وعقله. ومن أجل ذلك فإن الله تعالى لم ينزل الكتب فقط، بل أرسل أشخاصًا أصحاب خلق وشخصية عالية من أجل إرشاد البشر ليتركوا تأثيرات عميقة في كل نواحيهم وهؤلاء الأشخاص هم الأنبياء. والله تعالى قد أحسن علينا بالأولياء الذين ساروا على نهج هؤلاء الأنبياء والرسل.

فشخصيات كالأنبياء والأولياء لم يستطع حتى أعداؤهم أن يصفوهم بوصف غير جميل. ونتيجة هذا فإن كثيرًا من البشر عرفوا الحق والحقيقة وتشرفوا بالإيمان.

فمثلاً الصحابة الكرام قد دُهشوا لشخصية وأخلاق الرسول ﷺ الأِستثنائية الفردية كأنها قرآن حي وآمنوا به. وأصبحوا يدورون حوله كالفراش حول النور. وزال من الوجود البشر أشباه الوحوش



الذين كانوا يدفنون بناتهم أحياء، وتحولوا إلى شخصيات سامية في قمم شاهقة في التاريخ الإسلامي.

وعلى هذا النحو فإن أهم صفة لأهل الإيمان -الذين يسيرون في طريق الإيمان والإخلاص والتقوى- هي بناء شخصية موافقة ومطابقة لشخصية النبي ﷺ. وهكذا فإن المؤمنين أصحاب كل خصلة وخلق جميل يصبح كل واحد منهم كأنه مغناطيس هداية.

أما المحرومون من هذا قد ملوا حتى من إدراك وفهم ما في هدايتهم من معان، ووجدوا راحة نفوسهم في التنكب والأِبتعادِ عن هذا الطريق والخروج عنه. وقد قص مولانا جلال الدين-قدس سره- قصة ليعبر بها عن تلك الحقيقة فقال:

"في زمن حضرة أبي يزيد البسطامي[1] كان هناك شخص يعبد النار، وذات يوم قال له شخص مسلم بغلظة: "ماذا يضيرك لو أصبحت مسلماً لتنجو وتنال الشرف والعلو؟!".

فرد عليه ذلك الشخص عابد النار: "أيا من تريد إرشادي إلى طريق النجاة إنني أُوْمِن بشكل خفي بإيمان أبو يزيد البسطامي، إلا أني لم أُعلن إيماني صراحة ومازال لساني معقودًا كأن عليه ختم قوي يمنعني من نطق كلمة الحق. ذلك أنه يوجد في ذلك الرجل عمق وجمال شفاف واضح للغاية، ورغم أني حتى الآن لم أعط

١ أن مرقد هذا القطب موجود بقرب قرية جَيْلانلي التابعة لِ قريقخان من أعمال أنطاكية مدينة حبيب النجّار. (المراجع)

قلبي بشكل كامل لدينه وإسلامه، إلا أنني متحير مأخوذ بسمو إيمانه ورقيه. فهو إنسان يختلف عن باقي الناس ذلك أنه رقيق روحاني نوراني لطيف يمثل نموذجاً عاليًا وعظيمًا للغاية.

ولو كان الإيمان الذي تدعو إليه هو إيمانكم ولم يكن هناك غيره فلا فائدة لي في هذا الإيمان. لذا لا أرغب ولا أميل إلى الإيمان الذي عندكم، لأنه لو كان لدى شخص ما، له مئات الدوافع للإيمان في قلبه فإن هذا الإيمان بسبب غلظتك وقساوتك سيذبل ويخبو وينقطع الطريق إليه. فضلاً عن ذلك سيضعف هذا الإيمان في قلبه، لأن الإيمان لديكم قد تحول إلى اسم لا يحمل معنى اسم الإسلام، وأصبح مظهراً جافاً خاليًا من الروح تقريباً. وهذه الحال بلا معنى وعبثية كمن ينظر إلى الصحراء الجافة الفاصلة بعين أرض منبتة مخضرة تخرج الورود والفواكه والثمار.

أما نورانية الإيمان كلها فقد رأيتها -على قدر ما استطعت أن أرى- في إيمان أبي يزيد البسطامي. فذرة من إيمانه، أو قطرة منه تتحول إلى بحر محيط. أما إيمانك فقد دخل في أسر الظاهر والرياء بسبب أنه ظل عند القشور. وإيمان لا جذور له هو مؤذن قبيح الصوت يؤذن في الناس بلا روح، بدل أن يُحَبِب ألى الناس في الصلاة سوف يبعدهم عنها. أي أن إيمانكم لو دخل حديقة الورود لأصبح شوكًا لهذه الورود يجب التخلص منه.

ولكن شمس إيمان حضرة الشيخ أبي يزيد البسطامي تشرق من سماء روحه المباركة المنيرة، ولو تلألأت في هذا العالم فسوف



تجعل من تلك الدنيا -التي بلا قيمة أو ثمن- أغلى زمردة في أعماق الأرض وتحولها إلى جنة. فالعوالم القلبية للمؤمنين هي منبع ذلك النور. من أجل ذلك فإن إيمان أبا يزيد وصدقه يثير حسرة وشوقاً وعمقاً لا يمكن وصفه أو تعريفه تجاه الإيمان في قلبي وروحي".

وهكذا فإن شخصية أبى يزيد البسطامى العالية كانت تؤثر حتى في عابد النار وكانت لوحة معبرة للأشخاص الذين يتلقون هذا الدين. فبأي شيء أقام حبيب الحق الكبير هذه الشخصية؟ إنه بلاشك قد أسسها بالاِرتباط بالله تعالى ورسوله ﷺ ومحبتهما والنظر إلى مخلوقات الله تعالى بعين الخالق أي أصبح مظهرًا لتجليات الشفقة لخلق الله».

وكم هي معبرة تلك الأمثلة التي تعكس العالم القلبي والوجداني لأبى يزيد البسطامى حبيب الحق تعالى ﷻ ومنها:

أنه جلس تحت ظل شجرة يستريح في إحدى رحلاته. وبعد أن استراح مضى في رحلته، وفى الطريق رأى مجموعة من النمل قد علقت بالكيس الذي يحمل متاعه عندما جلس في ذلك المكان ليستريح. ومن أجل ألا يحرمهم من وطنهم ويجعلهم يذوقون حياة الغربة عاد من جديد إلى المكان الذي جلس فيه ليستريح وترك هذا النمل في مكانه القديم.

والواقع أن تلك الرقة وهذا الإحساس البالغ قد جاء من المحبة الإلهية لذا كان ذلك الرجل حبيب الحق يشعر ويحس بالضيق



والعذاب الذي في صدر كل واحد من مخلوقات الله تعالى بفضل الخالق ﷻ. فذات يوم ضربوا حمارًا أمامه فأخذت الدماء تسيل من ظهر ذلك الحيوان. وفى تلك اللحظة بدأت الدماء تسيل من سيقان أبى يزيد البسطامى.

وهذه الحال هي انعكاس تلك الأخلاق الجميلة لرسول الله ﷺ، فذات مرة دخل رسول الله ﷺ حائطاً لرجل من الأنصار فإذا جمل فلما رأى النبي ﷺ حنَّ وذرفت عيناه فأتاه النبي ﷺ فمسح عيناه فسكت فقال:

"من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟" فجاء فتى من الأنصار فقال لي يارسول الله فقال:

"أفلا تَتَّقِى الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها فإنه شكى إلي أنك تجيعه وتدئبه" (تدئبه: تكده وتتعبُه) (أبو داود، الجهاد، ٤٤/ ٢٥٤٩)

إن أمثال حضرة أبى يزيد البسطامى -الذين امتزجوا بهذا الخلق وما شابهه من أخلاق الرسول الكريم ﷺ- قد ساروا على هدى الرسول ﷺ في كل أحواله، لأن قلوبهم العالية قد وصلت إلى حال «**القلب السليم**».

ولهذا السبب فإنهم ومن سار على هديهم كان كل واحد منهم نموذجاً لأهل الإيمان فكانت ابتساماتهم مثل موسم الربيع تعطي الهدوء والسكينة للقلوب. وكانت نظرتهم ريحًا منعشة عليلة تهب



على الأرواح. وكانت وجوههم النورانية تذكّرالناس دائمًا بالله تعالى. لأنهم أخذوا الفيض والنور على الدوام من رسول الله ﷺ. وذلك المثال يوضح بأجمل شكل ذلك الأِنعكاس والنور:

كان زوج كُرجي خاتون باشا -**إحدى مريدات مولانا جلال الدين الرومي**- الذي تم نقله الى محافظة قيصري.بعد أن كان يقيم مع مولانا جلال الدين الرومي في (**قونيا**) فقد أرسلت تلك السيدة الرسام «عين الدولة» -ذلك الرسام والخطاط المشهور في القصر السلجوقي- إلى مولانا جلال الدين ليرسم له صورة بشكل سري ويحضرها لها. فخرج الرسام والغفلة تقوده لتنفيذ هذا الأمر وأخبر مولانا جلال الدين بالخبر فتبسم مولانا وقال له «لتنفِذْ ما أمرتْك به سيدتُك».

فبدأ الرسام في الرسم ولكنه لاحظ أن ما يرسمه لا علاقة له بالوجه الذي أمامه فبدأ في الرسم من جديد. وهكذا عندما يرسم وجه مولانا يظهر أمامه شكل جديد وكرر هذا الأمر عشرين مرة وفي كل مرة يظهر شكل مختلف.

وعند ذلك أدرك عجزه واضطر إلى أن يصرف نظره عن هذا العمل. لأن فنه ومهارته قد فقدت خطوط رسمها نفسه. وقد نبهت هذه الحادثة الرسام وجعلته يستغرق في أفكار عميقة، والحيرة والدهشة والرعشة تأخذه وتلفه، وجعلته يتحدث إلى نفسه فيقول: إذا كان شخصية ولي دين ما هكذا فكيف يكون نبي ذلك الدين؟، وانحنى على يد مولانا يقبلها وتاب على يديه».



مثال آخر: كنا عائدين مع والدي المرحوم موسى أفندي -قدس سره- من بورصة إلى إسطنبول في رفقة السيد المرحوم سامي أفندي-قدس سره-. وفي مدينة «يالوفا» وقفنا في الصف بسيارتنا من أجل أن نركب العبَّارة التي تنقل السيارات. وكان هناك رجل مهمته تنظيم السيارات في صفوف حتى لا يكون ذلك الأمر محلًّا للنزاع.

وعندما جهز ذلك الرجل مكانًا لسيارتنا رأى فجأة سامي أفندي وموسى أفندي -اللذين كانا يجلسان في القسم الخلفي من السيارة- فتوقف بشكل فيه كثير من التعجب، واقترب من السيارة ونظر بتمعن من زجاج السيارة إلى داخلها وتأوه بحزن عميق وقال:

«الله... الله ما أعجب الدنيا! فيها وجوه مثل الملائكة ووجوه مثل النمرود».

وهذه الحال بلاشك هي أجمل مظهر للدعوة إلى الله تعالى حتى بالوجه فقط دونما كلمة أو حرف. ويمكن أن نعمر شخصيتنا ونقويها بأن نأخذ حصتنا من فيض العالم القلبي لعباد صالحين سعداء كهؤلاء الذين نلتقي بهم.

ويجب أن نلتفت بشدة وننتبه إلى الأشخاص الذين يسيرون أمام الناس أي الشخصية والأخلاق العالية التي يمكن أن تكون مغناطيس هادية للناس.لأن البشر يدورون مثل العجلة الخلفية التي تتبع العجلة الأمامية في السيارات ويتشكلون ويعيشون تبعًا للنماذج التي يرونها أمامهم.



فاستمرار نظام الدنيا وقوام بنيتها الأخلاقية يتحققان بالعرفان فقط، أي بالتعمق القلبي. فالأشخاص الصالحون هم شموس الرحمة التي في أفق السعادة والسكينة. أما الأشخاص الغافلون فهم آبار الظلمة والظلام. وهذه الحقيقة قد عكسها أحمد جودت باشا في كتابه بشكل واضح للغاية فقال:

«كان الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي مغرماً بالمباني والمزارع الجديدة، فشغف الناس بالبناء والزراعة، وكانوا في مجالسهم ونواديهم يتحدثون عن الإنشاءات والمزارع. أما سليمان بن عبد الملك فكان مغرماً بالطعام والنساء والميل إلى السفاهة، فاهتم الناس في عهده بالزينة والولائم العظيمة والسفاهات وأصبحت التسلية هي شعار عهده. وعندما تولى عمر بن عبد العزيز ﵁ أمر الخلافة كان أحد الخلفاء العظماء وكان خليفة عابدًا زاهدًا. وفى عهده دخل الناس في طريق العبادة والطاعة. وكان يسأل دائمًا في مجالسه عن أحوال الطاعات والعبادات فيقول:

«ماذا كانت أورادك هذه الليلة؟ كم حفظت من القرآن الكريم؟ كم يومًا صمته في هذا الشهر؟ كم غريبًا محتاجًا أطعمته وآويته؟» (الطبري، تاريخ، جـ. ٥، ٢٦٦-٢٦٧؛ أحمد جودت، قصص الأنبياء وتواريخ الخلفاء، جـ.١، ص ٧١٧)

ومن المؤكد أن التأثيرات والفيوض الإيجابية التي لهؤلاء الأشخاص الكمّل على البشر تأتي من أن قلوبهم قد امتلأت حتى



نهايتها بمحبة المولى ﷻ مثل الفراشات التي تدور حول النور. وعلى هذا النحو كان المولى عَينُهم التي ترى وآذانهم التي تسمع.

أي أن أحبّاء الحق ﷻ قد قضوا على ميولهم الشهوانية داخل نفوسهم بشكل كامل بسبب أنهم كانوا تحت ظل عشق الله تعالى ومحبته.

وهكذا فإن البشر الآخرين ينجذبون إلى جمالياتهم النورانية على غير إرادة بسبب تحول أحبّاء الحق إلى مركز جذب نوراني. ولأن هؤلاء قد استطاعوا أن يخلصوا أنفسهم من العوارض الفانية وقيود العوالق فقد عاشوا داخل غيرة وحماسة ألا يسقطوا أبدًا في غياهب الصفات المذمومة مثل الغرور والكبر والعجب.

وكانت أهدافهم كلها وغاياتهم كلها هي رضاء الحق ﷻ وعلى هذا النحو لم يكن يتميز عندهم القلة والكثرة والبرودة والحر والغنى والفقر؛ كل الرتب الفانية والظروف الحادثة والطارئة الكل عندهم سواء لأن كل واحد منها كان عبارة عن ظل زائل.

وهؤلاء السعداء قد جعلوا من أنفاسهم تسبيحًا واستغفارًا، ووضعوا أنفسهم تحت مراقبة دائمة. وغضوا أعينهم عن عيوب وسيئات ونقائص الآخرين.

وقد عَاشَ هَؤُلاء حياتهم لا تلتفت قلوبهم لزخرف الدنيا الزائل واستغنوا عما بها من متاع حتى لو تعرضوا للأذى من بعض الجهلاء



حالهم كما تقول الآية الكريمة:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾ (الفرقان، ٦٣)

والدنيا قد أُمرت أن تخدم مثل هؤلاء الصالحين وأن تطيعهم فيما يطلبون وفى ذلك يقول الحديث الشريف:

"مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهَ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ" (الترمذي، صفة القيامة، ٣٠)

والشخصيات الكبيرة هي صاحبة أخلاق وطبيعة كاملة إلى حد بعيد؛ لأنهم لا يؤذون أحدًا، ولا يتألمون من أي أحد، إلا أن يكون في سبيل الله تعالى. فهم قد عاشوا سر البيان الإلهي:

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران، ١٣٤)

وقد عاش سيدنا جعفر الصادق ﵁ شمولية هذه الآية الكريمة مع خادمه الذي كان يقدم له الطعام فعفا عنه، وأحسن إليه فأعتقه.

والحسن البصري أيضًا كان يعفو عمن اغتابه ويربيهم بأن يحسن إليهم ويرسل إليهم بالهدايا. ومن أجمل ما قاله الشاعر التركي يونس أمره الذي انعكست عليه أحوال عظماء الإسلام الجميلة فقال:

بالصوم والصلاة والحج
لا تظن أنهيت عمل الزاهد
فالعرفان أمر لازم
لكي تصبح إنسانًا كاملًا

والحاصل أن العباد الصالحين الذين كانوا أهل إيمان نموذجي للبشرية كلها، فكانوا في جملة أحوالهم يقدمون الشفقة والخير والطيبة للمخلوقين، ويتضرعون بعبادة خفية للخالق، وكانت أنفاسهم تسبيحًا.

والذين اختلطوا معهم وصاحبوهم عاشوا في وجد بالحظوظ واللذات الإلهية التي تذوقوها؛ لأن قلوب هؤلاء الخواص -بسبب أنها كانت مملوءة بالسعادة المحمدية- قد قدمت الأنوار والحظوظ المعنوية الكثيرة إلى الذين خاطبوهم كل بحسب استعداده. وعلى هذا النحو ولكي تستفيد من أحبّاء الحق هؤلاء يجب أن نصاحبهم ونكون في معيتهم في الدنيا، وأن تكون معهم عند الهجرة والسفر إلى العالم الأبدي إلى الآخرة.

وقد أمر الله ﷻ الأرض ألا تأكل أحشاء العباد الصالحين بسبب فضائلهم وأخلاقهم. وفى ذلك يَحكي جابر بن عبد الله رضي الله عنه فيقول:

«لَمَّا حَضَرَ أُحُدُ دَعَانِي أَبِي مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ مَا أُرَانِي إِلاَّ مَقْتُولاً فِي أَوَّلِ مَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِنِّي لاَ أَتْرُكُ بَعْدِي أَعَزَّ



عَليَّ مِنْكَ، غَيْرَ نَفْس رَسُول اللَّه ﷺ، فَإِنَّ عَليَّ دَيْنًا فَاقْض، وَاسْتَوْص بِأَخَوَاتِكَ خَيْرًا. فَأَصْبَحْنَا فَكَانَ أَوَّلَ قَتِيل، وَدُفِنَ مَعَهُ آخَرُ فِي قَبْر، ثُمَّ لَمْ تَطِبْ نَفْسِي أَنْ أَتْرُكَهُ مَعَ الآخَرِ فَاسْتَخْرَجْتُهُ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ، فَإِذَا هُوَ كَيَوْمِ وَضَعْتُهُ هُنَيَّةً غَيْرَ أُذُنِهِ» (البخاري، الجنائز، ٧٨)

ومثال آخر على تلك الحال من التاريخ المعاصر ذلك هو الأضنه لي الذي كان حافظًا للقرآن مؤذنا للصلوات وواحدً من أهل الأِستقامة. وقـد حكى عنه السيد محمود سامي (قدس سره) -كشاهد على تلك الواقعة-:

«أنه بعد وفاة هذا المؤذن بثلاثين عامًا فتحوا القبر لينقلوه منه بسبب شق طريق في تلك المنطقة. وعندما فتحوا القبر وجدوا جسده سليمًا مازال على حاله لم تأكله الأرض، ولم يفسد. بل إن كفن ذلك الميت كان شديد البياض كأنه كفن جديد».

وفى التاريخ الإسلامي تصادفنا كثير من تلك المرويات والمشاهدات وأشباهها، وهذه هي تجليات فريدة استثنائية للحق ﷻ على بعض عباده الصالحين لكي نأخذ منها العبرة والنصيحة والتنبيه. فأجساد العباد الصالحين تصير تراباً مثلها في ذلك مثل أجساد جميع البشر. إلا أن الله تعالى ينعم على بعض عباده الصالحين فلا تفسد وتتعفن أجسادهم، وهذا الأمر هو عطية من الذات الإلهية العلية فيه حكمة لنا. ولكن المهم هو اكتساب الأبدية بأن نسعى ونجتهد، لأن نكون مثل هذه الشخصيات العظيمة من جانب، ومن جانب



آخر نربى أولادنا ونعدهم كأناس صالحين لأمتهم. وفى ذلك يقول الحديث الشريف:

"إن الرجل لترفع درجته في الجنة فيقول أنى هذا؟ فيقال باستغفار ولدك لك" (ابن ماجه، الأدب، ١)

وفى حديث آخر يتعلق بهذا الشأن يقول رسول الله ﷺ:

"إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له" (مسلم، الوصية، ١٤؛ الترمذي، الأحكام ٣٦)

إن عمر الإنسان -الذي عاش بقلب روحاني- يحول وجه الأرض إلى جنة وتكون رحمة الله تعالى وإحسانه بمثابة مكافآت له. وذروة السعادة في الحياة الدنيا وربما بداية السعادة الأبدية أن نستطيع أن نعيش بالمحبة المحمدية في رحاب الربيع المحمدي. ومهمتنا طوال عمرنا أن نقتفي أثره ونحافظ على عزته وشرفه الذي منحه لأمته.

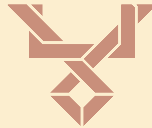
فاللهم أنعم علينا بأن نؤدي تلك المهمة العظيمة. وأن نعيش طوال عمرنا كواحد من نماذج أهل الأِيمان أمثال عمر بن عبد العزيز، وأبى يزيد البسطامي ومحمود سامي أفندي وأمثالهم. وأدخلنا في زمرة السعداء الذين هم مركز جاذبية نوراني للأمة. آميــــن...



القدر وأسراره



إن قدرة العين على الرؤية، والأذن على السمع تمتد حتى مسافة معلومة. ولا تكون الرؤية أو السمع ممكنة بعد تلك المسافة. وكذلك إدراك القضاء والقدر بشكل لائق هو فوق القدرة البشرية؛ لأننا نسعى لأن نعرف الأحداث ونحللها بالأسباب والأعذار. ولا يمكن أن يدرك أغلبنا الحكمة التي وراءها



القدر وأسراره

إن القدر المحدد بأدق تفصيلاته، والقضاء الذي يحدث عندما يحين وقته -اللذين يحددان زمن الأحداث كلها، مكانها وشكلها وأسبابها في الكائنات كلها من الذرة إلى المجرة، ومن الحبة إلى القبة، ومن عالم الجزيئات والكليات إلى عالم «النورمو» الذي في المستقبل- تظهر حكمتهما بعظمة تليق بالجلال الإلهى.

إن الله تعالى قد خلق الموجودات كلها بقدر وسيرها بقدر، وآثار الأحداث في طرق الحياة هي خطط القدر في الحقيقة. فالقمر والشمس والنجوم والنباتات والإنسان والحيوانات وسائر الموجودات كلها تحتويها خطة القدر هذه، وحتى أي ورقة تسقط من فرع شجرة لا تخرج عن تلك الخطة. ولو لم تكن الموجودات كلها تابعة لخطة القدر لظهرت فوضى كبيرة في الكائنات، فكل أثر فنى يوجد ويتم إبداعه بحسب قدرة الصانع وإمكانياته. فمثلاً كل خط لخطاط أو لوحة لفنان تتكون وتتشكل بحسب إرادته وإستعداده. وأيضًا فإن الله ﷻ قد قدر وحدد بإرادته الإلهية ومشيئته



منذ الأزل دفقات القدرة التي ستظهر في تك الحياة منذ خلق الكائنات وحتى فنائها، والحكم والأسرار التي في الإنسان الذي هو خارقة الصنعة الإلهية، والخصوصيات التي ستصاحب الأحياء الأخرى منذ الميلاد وحتى الوفاة.

وهكذا فإن القدرَ هو اسم لماهية هذا التنظيم الذي هو محصول الإرادة والمشيئة الإلهية. وقد عبر الحق ﷻ عن هذه الحقيقة في كتابه العزيز فقال: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ (القمر، ٤٩)

وقال أيضًا: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ (الحديد، ٢٢)

باختصار: إن القدر هو علم الحوادث التى لم تخلق بعد، ومعرفتها وترتيبها وتثبيتها في اللوح المحفوظ. أما القضاء فهو تحقق تلك الحوادث بالتدريج في ترتيبها بالشكل الذي تم تثبيته في اللوح المحفوظ.

ومعرفة الحق ﷻ بالحوادث التي ستظهر بصفة العلم قبل أن تتحقق تلك الحوادث هي مقتضى الألوهية.

ومن الطبيعى أن يكون الله تعالى -المنزه عن الزمان والمكان- هو صاحب تلك العلوم والمعارف، لأن الشروط التي تقوي وتعضد فهم القضاء والقدرة والإحاطة بها بالنسبة لنا هى ليست موضوع بحث بالنسبة لله تعالى.



ومن الضروري بمكان أن نؤمن بوجود كل شيئ في الكائنات وخلقها بكلمة كُنْ. ورغم أن القدر هو أكثر شرط مجرد مطلق من شروط الإيمان الستة، إلا أنه في الواقع حقيقة يقبلها كل فرد بالإجماع. وفى هذا الشأن فإنه حتى الأفراد غير المؤمنين يقبلون دائمًا تأثير قدر ما على قوتهم نفسها بقولهم «مكتوب على الجبين.

حتى المنكرين يظهرون التصديق بحقيقة القدر في ضمائرهم وأعماقهم اللاشعورية – ربما بسبب الفطرة – بعبارات من قبيل «حظي ساعدني» أو «عاندني طالعي».

وتلك الجُمل المأخوذة من آخر مسرحيات الأديب التركى نجيب فاضل تعبر أجمل تعبير عن أن حقيقة القدر المجهول التي لابد أن يصدقها ويؤمن بها كل إنسان يفكر حيث قال:

«فمثلاً ذات يوم صدمت إحدى السيارات رجلاً في ميدان إينونو. فلو ذهبنا إلى ما قبل عشر دقائق من الحادث وكان الرجل أمام حديقة كُولْخَانَه مثلاً وفرضًا تأتي السيارة من منطقة تقسيم فهل كنا نرى هذا المنظر؟ يأتي رجل من بين مائة ألف رجل وتأتي سيارة من بين ألف سيارة. فلا الرجل كان يعرف أنه سيُصدم ولا السيارة كانت تعرف أنها سَتَصدم ، كلاهما يقترب نحو الآخر دون أن يعرف هذه السلسلة من المصادفات ، فالرجل أمام إحدى المحلات واشترى علبة كبريت وخطا خطوة أو خطوتين وتحدث مع صديقه.



وشاهد إحدى وجهات العرض. هذه الحركات البريئة ستنقطع بعد دقائق معدودة وتتلوها أجزاء مفجعة. وتلك اللحظة تعتمد وتستند على سبب بسيط للغاية قد يكون غفلة أو سهو أو شرود في التفكير أو جهل. فمن يعرف أنه يوجد حساب للمصادفات متداخل إلى أقصى درجة وبحيث لا فكاك ولا نجاة منه» (خلق إنسان، ص. ٤٣)

وهكذا فإن أي إنسان يفكر بشكل مناسب في الحوادث التى يقابلها مثل هذه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الإيمان بأن هذه السيناريوهات التى لا حصر لها -والتي تُعرض وتُشاهد في الكائنات- تظهر وتتحقق في رحاب خطوط كلمة إلهية.

فكما أنه لا يمكن تعريف اللون لإنسان أعمى لا يرى. فإن من يفكر بالأنطباعات المأخوذة من عالم الدنيا -والمحددة بالإدراك البشري التابع لقيود الزمان والمكان- لا يمكن أن يصل بشكل لائق ومناسب لسر الماهيات العليا كالقضاء والقدر. وهذا الموقف هو منبع لحكمة ما مثل منع سقوط البشر في القلق والانشغال بسبب وقوفهم على أسرار لا يستطيعون تحملها.

حقيقة أن الحق ﷻ قد أخفى قدره عن مخلوقاته كلها، ولا قدرة لأحد أن يعرف قدره قبل أن يتحول إلى قضاء. لكن الله تعالى في هذا الأمر قد أعطى جزءًا من «علمه اللدني» لبعض خلقه.

والواقع أن بقاء القدر مجهولاً، وعدم القدرة على معرفته،



وعدم استطاعة قوة تفكير الإنسان تجاوز هذا الجدار المرتفع المسمى الغيب، هو من مقتضيات رحمة الله تعالى اللامنتهية.

ولكن مرة أخرى توجد بعض المواقف الاِستثنائية كالرؤية الصادقة أمكنها تجاوز هذا العائق، وعبور هذا الجدار في ظل اللطف والإحسان الإلهي.

ففى الحقيقة يُشاهد كثيرًا تحقيق الأخبار المستقبلية التي يراها الأشخاص الصالحون في رؤياهم، وهذه الرؤى فيوضات نورانية انعكست من «**اللوح المحفوظ**» على قلوبهم.

ويطلق اسم «**الإرادة الجزئية**» على قدرة الإنسان على تفضيل وترجيح أن يقوم بأعمال الخير أو الشر من عدمه. أما «**الإرادة الكلية**» فهى أمر خاص بالحق ﷻ.

ولهذا السبب فإن الحرية المطلقة بالنسبة للعبد غير ممكنة، فأمور مثل الميلاد والوفاة والعمر والجنس والقومية والذكاء لا يمكن للإنسان أن يتدخل فيها، لأنها تدخل في نطاق «**القدر المطلق**»، والإنسان غير مسئول عن هذه الأفعال التي تفرض عليه.

وقد جعل الحق ﷻ عبده مسئولاً على قدر الإمكانيات التي أعطاها له، ولهذا السبب فلا ثواب ولا عقاب في الأفعال التى تحدث خارج إرادة الإنسان. فمثلاً لو شرب أحد الصائمين أو أكل وهو ناسٍ لا يفسد صيامه، ولهذا السبب لا تقع عليه أية عقوبة.



وقد بين الحق ﷻ في الآية الكريمة أنه لم يُحَمل الإنسان فوق طاقته فقال:

﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ (البقرة، ٢٨٦)

لكنَّ اللّه ﷻ قد جعل الإنسان مسئولاً على قدر طاقته، فعندما يرتكب الإنسان معصية ما بشكل إرادى لا إكراه فيه ويحمِّل القدر مسئولية هذا الذنب يكون ذلك من غفلته وجهله.

فالله تعالى قد وضع أسس الفجور والتقوى في نفس الإنسان لأن الإنسان هو مخلوق مسئول مجهز للاِمتحان.

وقد أعطى الحق ﷻ للإنسان حق الإختيار بين أمرين واستعمال أي منهما بحرية وبشكل إرادي. أي أن العبد قد أُعطى في هذه الدنيا الفانية الحرية داخل حدود معلومة. وهذا يطابق تمامًا المصروف الذي يأخذه طفل من والده ويكون مخيرًا في إنفاقه في الخير أو الشر. وهكذا فإن هذه الاِختيارية هى أهم رأس مال للسعادة الأبدية أو الهلاك.

وفي هذا الكون حتى الورقة على الشجرة لا تهتز أو تسقط إلا بإذن الله تعالى. ومع أن إرادة الحق ﷻ متحققة في كل كائن، إلا أن



رضاه لا يكون إلا في الخير. فغاية ومراد كل أستاذ أن ينجح طلاب فصله كلهم، ولكن لو لم يذاكر الطلاب ولم يجتهدوا فليس هناك ما يفعله الأستاذ.

مرة أخرى فإن وظيفة الطبيب هى التماس الشفاء للمريض، ولكن لو لم يتبع المريض وصفة العلاج يكون هو المسئول عن الآثار السلبية التى تصيبه،وليس هناك أى جرم أو ذنب على الطبيب.

ولهذا السبب فإذا ما ارتكب إنسان ذنبًا ما أو سلك طريقًا خاطئًا وقال: «ماذا أستطيع أن أفعل قدري هكذا»، يكون هذا القول نابعًا من غفلته وجهله، فمن يرد إقامة الصلاة يهيئ الله تعالى له أسباب إقامة الصلاة، والذي لا يريد أن يصلي يُعْطيه الله تعالى الأسباب التى لا تجعله يؤديها.

وعلى ذلك فإن أي إنسان يكون ظالماً مجافيًا للحق والحقيقة إذا افترى على القدر كذبًا وزورًا ليجد العذر لنفسه.

فالله تعالى قال في كتابه العزير:

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ (النساء،٤٠)

وقال تعالى أيضًا:

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾

(الشورى، ٣٠)



ويوضح مولانا جلال الدين -قدس سره- في صدر تفسيره لتلك الآيات مسئولية البشر على قدر إرادتهم الجزئية، وضرورة ألا يحيل الإنسان خطأه على القدر فيقول في المثنوي:

«لو انغرست شوكة فيك فاعلم أنك أنت الذي غرست تلك الشوكة. ولو كنت ترفل في أقمشة رقيقة لطيفة ناعمة فاعلم أنك أنت الذي نسجت تلك الأقمشة».

إن قدرة العين على الرؤية والأذن على السمع تمتد حتى مسافة معلومة، ولا تكون الرؤية أو السمع ممكنة بعد تلك المسافة. وكذلك إدراك القضاء والقدر -بشكل لائق- هو فوق القدرة البشرية، لأننا نسعى لأن نعرف الأحداث ونحللها بالأسباب والأعذار. ولا يمكن أن يدرك أغلبنا الحكمة التى وراءها. فمثلاً جاء رجل ذات يوم إلى سيدنا علي رضي الله عنه يسأله عن سر القضاء والقدر فقال له: «**ذلك الأمر بحر عميق**».

وقد حاول كثير جدًّا من الناس السباحة في هذا البحر -معتمدين على ذكائهم- فسقطوا في سراديب الباطل مثل **الجبرية**: «الذين نفوا أية إرادة للعبد»، **والقدرية**: « الذين ادعوا أن الإنسان صاحب إرادة مطلقة في كل أمر». وفى النهاية غرقوا في بحر لا ساحل له ولا قرار.

ولهذا السبب فإننا مالم نحدد بشكل صحيح حدود الإرادة التى تشكل منبع مسئولية الإنسان، فإننا لن نستطيع أن نتخلص من الأِنحدار نحو الزلل والخطأ.



والواقع أن اعتبار الإنسان بأنَّه خالق لأفعاله، وتمجيد وتقديس قدرته على الإرادة والترجيح، أو إنكار إرادته الجزئية هي ماهية تخالف قواعد وأصول ديننا الأساسية، لأن الإنسان لديه إرادة واختيار في الحقيقة، ولكن هذا الأمر هو منحة وهبة من الحق ﷻ.

وعلى الرغم من إمكانية أن نقطع مسافة ما في عالم القلب بالتسليم، إلا أنه ليس من الممكن على الإطلاق أن نتمكن من فك وحل سر هذا الأمر فى موضوع كهذا يعجز فيه العقل والإدراك. لذا فإن إدراك عجز العقل، ومعرفة حده، وعدم الإكراه على تجاوزه هو من موجبات وضروريات العبودية الكاملة.

وما أجمل تلك القصة التى ذكرها مولانا جلال الدين -قدس سره-في المثنوي ليوضح أن عدم القدرة على إدراك سر القدر وبيانه بالعقل، هو في الأساس نعمة كبيرة فيقول:

«جاء رجل إلى سيدنا موسى عليه السلام وقال له: «**يا كليم الله**» علمني لغات الحيوانات، لكي أفهم لغتهم وآخذ العبرة من أحوالهم وأُدرك العظمة الإلهية».

فرد عليه سيدنا موسى عليه السلام قائلاً: «اصرف نظرك عن تلك الرغبة ولا تسع لتعلم أشياء فوق قدرتك وطاقتك، فلو سعت نملة لتشرب ماء فوق حجمها لاختنقت وغرقت وهلكت، أي لا تجبر نفسك ولا تكرهها على تجاوز العلم الذي قدر لك، لأن ذلك فيه كثير جدًا من الأخطار. وانظر لتأخذ العبرة من المملكة الإلهية



التى في الكائنات على قدر ما يتحمل عقلك. ووجه قلبك إلى الله تعالى، واعلم أن أسرار التجليات الإلهية تظهر وتتجلى على قلب سليم».وعند ذلك قال الرجل: «فعلى أقل تقدير علمني لغة الكلب الذي يقف أمام الباب ويحرس المنزل، ولغة طيور المنزل التي تعيش معنا.

وعندما تيقّن سيدنا موسى عليه السلام أنه لن يستطيع أن يثني الرجل عن رغبته وافق على طلبه في النهاية، ولكن نبهه قائلا: «خذ حذرك ولا تغرق في بحر هذا السر!».

وعندما استيقظ الرجل في الصباح سأل نفسه: «لننظر هل تعلمت لغة تلك الحيوانات بحق؟» ووقف على عتبة الباب وانتظر ليعرف الإجابة. وفي هذه الأثناء كانت الخادمة تنفض غطاء المائدة فوقعت قطعة خبز قديمة على الأرض.

وفى الحال انقض ديك على قطعة الخبز وخطفها، فقال له الكلب: «لقد ظلمتنى لأنك تستطيع أن تأكل حبوب القمح، أما أنا فلا أستطيع ذلك. لماذا خطفت قطعة الخبز تلك التي كانت من نصيبى؟. فرد عليه الديك قائلاً: «لا تتألم! غدا سيموت حصان صاحب المنزل فلتأكل حتى تشبع وتصاب بالتخمة».

وعندما سمع صاحب المنزل تلك الكلمات ظن أن الديك قد اطلع على الغيب فباع حصانه على الفور. وأصيب الديك بالخجل من الكلب، واستمر خلاف المصالح هذا بين الديك والكلب لثلاثة



أيام. وقام صاحب المنزل الذي علم من حديث الديك أن الحصان سيموت في اليوم الأول، والبغل سيموت في اليوم الثانى، والعبد سيموت في اليوم الثالث، ببيع الحصان والبغل والعبد قبل أن يموتوا ظنّ أن هذا ذكاء منه.

وهكذا لم يستطع الكلب أن يحقق ما كان يأمله من أي منهم. واستطاع الديك أن يقنع الكلب في كل مرة. وعندما شعر الديك بالخجل ثلاث مرات بسببهم، قال للكلب في النهاية في المرة الرابعة: «حقيقة إن صاحب المنزل رجل ذكي خبير استطاع أن ينقذ ماله، ولكنه بهذا السلوك قتل نفسه، لأنه سيموت غدا وسوف يبكى عليه الورثة غدًا ويتأسفون. ولكن سوف يذبح ثور ويستفيد كل فرد من هذا ونحن أيضًا وأنت أيضًا».

لقد كان موت الحصان والبغل والعبد درع وحصن يحمي هذا الرجل الساذج من القضاء السيئ الذي سيحل عليه، ولكنه هرب من حسرة وألم أن يفقد ماله وممتلكاته ولكنه قتل نفسه».

وعندما سمع الرجل الأحمق هذيان ذلك الديك، امتقع وجهه واصفر لونه واشتعل قلبه نارًا كأنه الجمر، وهرع بائسا إلي سيدنا موسى عليه السلام وبدأ يتوسل إليه قائلاً: «يا كليم الله! ارحم توسلاتي وسكّن عذاباتي والآمي».

فقال له سيدنا موسى عليه السلام: «لقد دخلت في أعمال تتجاوز طاقتك وقدرتك، والآن أنت تتخبط في التيه. هل كنت تظن أنك



ستحقق فائدة ببيعك تلك الحيوانات؟. لقد قلت لك بإصرار لا تكره نفسك على معرفة سر القضاء والقدر، فالشخص العاقل الذي يريد أن يرى مستقبله قبل أن يحدث يصير في نهاية الأمر رجلاً أحمق.لكن لم يبق شيء يمكن أن نعمله. ومادمت أنت ماهرًا وأستاذاً في البيع والشراء، فاشتر الآن روحك لتنقذها.

وعندما توسل الرجل إلى سيدنا موسى عليه السلام بندم كبير قال له موسى عليه السلام: «سبق السيف العزل فالسهم بعد إطلاقه من القوس لا يمكن أن يعود إليه أبدًا. ولكن أَدعو صاحب الإحسان والفضل أن يقبضك على الإيمان».

وتضرع موسى عليه السلام إلى الله عز وجل، وهكذا تُوفيَّ الرجل ورحل بإيمانه ببركة دعاء موسى كليم الله. وعندها قال الله تعالى لسيدنا موسى عليه السلام:«يا موسى لو رجوتنى لأحييته». فقال موسى عليه السلام للمولى عز وجل: «يا رب لك الحمد والشكر بلا نهاية. أحيه في الآخرة ذلك هو العالم المنير والعظيم؛ لأن الأبدية هناك، والمكان الذي تظهر فيه أسرار القضاء والقدرهناك».

والإنسان مثلما يُفهم من هذه القصة يطلب الأشياء بحرص وطمع أحيانًا، وربما كانت هذه الأشياء ضارة له، وربما يكون الشيء الذي يرغب فيه سيحمله إلى الهلاك، والإنسان الذي يهوي في عاقبة كتلك لا يستطيع أن يخلص نفسه من الندم ويبكي ويتأوه.



ومن أجل ذلك فإن أفضل شيء لِسكُون القلب في الدنيا، والسعادة الأبدية في الآخرة، هو إظهار التوكل والتسليم لله تعالى مدركاً هذه العظمة الإلهية. وليس هناك استثناء لأحد في هذا الأمر. ورأس مال العبد الخالد هو إمكانية أن يدرك أنه لا شئ .

أي أن التسليم للحقﷻ هو الوسيلة الوحيدة في مواجهة القضاء والقدر. لأن التوكل والتسليم هو باب رحمة. مثلما قال رسول الله ﷺ:

"الإيمان بالقدر يذهب الهم و الحزن" (السيوطى، الجامع الصغير جـ١، ١٠٧)

ولكن الرضى والتسليم والتواكل، وعدم التماس أية تدابير، وعدم إظهار أي سعي وجهد لمنع البلايا التي ستأتي، وتلقي الأمور بسلبية وكسل يعد أمراً خاطئاً غير صحيح. لأن التوكل هو التسليم إلى الحق ﷻ، واللجوء إليه في طلب النتائج بعد اتخاذ كافة أنواع التدابير لجلب الخير ودفع الشر. فالتوكل دون الأخذ بالأسباب هو توكل جاف مزيف، كما أنه ليس مقبولاً ومخالف لروح التوكل الحقيقى.

فمثلا خَرَجَ سيدنا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب رضي الله عنه إِلَى الشَّأْم حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْغَ لَقِيَهُ أُمَرَاءُ الأَجْنَادِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِأَرْضِ الشَّأْمِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ عُمَرُ ادْعُ لِي



الْمُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ. فَدَعَاهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّأْمِ فَاخْتَلَفُوا. فَقَالَ بَعْضُهُمْ قَدْ خَرَجْتَ لأَمْرٍ، وَلاَ نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلاَ نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ. فَقَالَ ارْتَفِعُوا عَنِّي. ثُمَّ قَالَ ادْعُوا لِي الأَنْصَارَ. فَدَعَوْتُهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ، فَسَلَكُوا سَبِيلَ الْمُهَاجِرِينَ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلاَفِهِمْ، فَقَالَ ارْتَفِعُوا عَنِّي. ثُمَّ قَالَ ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الْفَتْحِ. فَدَعَوْتُهُمْ، فَلَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ رَجُلاَنِ، فَقَالُوا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ، وَلاَ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ، فَنَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ، إِنِّي مُصَبِّحٌ عَلَى ظَهْرٍ، فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ فَقَالَ عُمَرُ لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ، نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ، إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ، وَالأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ قَالَ فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ فَقَالَ إِنَّ عِنْدِي فِي هَذَا عِلْمًا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

"إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ".

قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهَ عُمَرُ ثُمَّ انْصَرَفَ. (البخاري، الطب، ٣٠)

ومثلما رأينا فإنه لا يمكن الفكاك من القدر. ولهذا السبب فإنه من تمام العبودية اتخاذ التدبير والسعيى، ثم الرضى بالنتيجة التى قدرها الله ﷻ.

والواقع أن الخفاء الذي في القدر وعدم إدراك العبد له -بالشكل اللائق- هو بالنسبة للذين ينظرون من منظور الحكمة ليس سبباً قاهراً، بل على العكس هو وسيلة لطف ونعمة كبيرة لأقصى درجة، لأنه في حال معرفة البشر للقدر فإنهم يقعون في أخطار ومهالك كثيرة لا فكاك منها، وهى حقيقة لا يمكن إنكارها.

فمثلاً لو أُبتلي رجل بمرض لا شفاء منه، فإنه في ظل جهله بالقدر يستطيع أن يبقى بعيداً عن الهم حتى اللحظة التي سيموت فيها. ولكن لو عرف شخص متى سيموت فإنه في السنوات التى يقترب فيها أجله سيعجز عن الحركة، ولا يستطيع أن يؤدي عملاً، ويموت عدة مرات، ويتجدد الموت فيه كل وقت. والأم التى تعرف أن ابنها الحبيب سيموت قبل أن يحين أجله ستعيش في مأتم حزن قبل هذا الوقت بسنين. والنتيجة أن هذا الموقف يشكل تضاربًا في التوازن الذي في الحياة، ويؤدى إلى فساد هذا التوازن.ولعل الضغوط والأزمات وحوادث الأِنتحار في الأعوام الأخيرة هى عاقبة حزينة جلبها الحرمان من الراحة المعنوية، لأن القلب البعيد عن التربية المعنوية من الطبيعى جدًّا أن يكون أسيرًا لرغبات الشهوة وأطماع النفس. والحياة التي تستطيع أن تواجه مفاجآتِ الحياة



بالهدوء والصلابة، يمكن أن تتحقق فقط في ظل تسليم الإنسان بالقدر، ذلك التسليم الذي يؤدي به إلى الإيمان الكامل بالغيب.

وقاعدة السعادة الذهبية هي جعل العقل يتبع الوحي، وتزيين القلب بالأخلاق الجميلة، وإظهار الرضى تجاه مفاجآت الحياة. مرة أخرى فالسعادة الحقيقية هي قبول مد الحياة وجزره، وإظهار التحمل تجاه مشكلات الحياة ورؤية الجمال في كل شيء، والتسليم لرب العالمين. والحق ﷻ يظهر أحيانًا لطفه في صورة قهر، وقهره في صورة لطف. وجهل الإنسان بكل هذه الماهيات ينبع من كون هذه الدينا مكان امتحان واختبار. يقول الله تعالى:

﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة، ٢١٦)

ويقول تعالى في آية أخرى:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة، ٥١)

والحقيقة أن عمى البصر مثلاً هو إبتلاء ومصيبة كبيرة من وجهة النظر الدنيوية، لأن الإنسان يعتقد أنه لا توجد أية نعمة تضاهي نعمة العين التي ترى.

ولكن الشخص الذي أصيب بالعمى في الدنيا لو استطاع أن يَسْلم من السقوط في مستنقعات الذنب بسبب هذا العذر، فإن هذا



الحال -التي تبدو مثل وسيلة تعذيب في الظاهر- ستنقلب إلى سرور في الحقيقة. وهكذا الفقر والغنى فلو أن فقيرًا لم يشتكِ من حاله ورضي بما قسمه الله له، فإن هذا الفقر ربما سيصبح وسيلة للغنى الأبدي. كما أن ذلك الفقير لو كان غنياً في هذه الدنيا وأدت الإمكانات التي يملكها إلى إثارة الأنانية فيه، وتمكن وهم القدرة من نفسه، وأصابته الغفلة، وغرق في السفاهة والدعة لذهبت سعادته الأبدية هباءً منثورًا. وطبيعي أن عكس هذا ممكن أن يتحقق، لكن الحاصل أن المؤمن الذي يرى الجمال في كل حال هو فيه، ويرضى بما قدره الله تعالى وقسمه، يجب أن يعلم أن هذه فرصة لإكتساب السعادة الأبدية، ويجب أن يسعى لأن يعيش ويحيا على الصبر والشكر والتسليم.وفى ذلك يقول الحديث الشريف:

"عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير. وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له. وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرا له".(مسلم: الزهد ٦٤)

وعندما يتم تعميق هذه الأصول الأساسية -التى ذكرت حتى الآن والمتعلقة بمسألة القدر- نقابل بكثير جدًّا من المشكلات والمسائل التي لا فائدة منها سوى في مجدلات ونزاعات علم الكلام. لذلك ولهذا السبب فقد أمر رسول الله ﷺ بأن نكتفي بالإيمان بالقدر، ومنعنا من مناقشة لا طائل ولا فائدة من ورائها. فقد ورد في هذا الشأن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أنه قَالَ:



خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَنَازَعُ فِي الْقَدَرِ فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْنَتَيْهِ الرُّمَّانُ فَقَالَ:

"أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ؟ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الأَمْرِ، عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تَتَنَازَعُوا فِيهِ"(الترمذي، القدر، ١)

وقد تحدث الشاعر التركي ضياء باشا أيضًا عن الحقائق التى فوق طاقة البشر فقال:

إدراك المعالي لا تناسب هذا العقل الصغير.

لأن هذا الميزان لا يتحمل هذا الثقل الكبير.

فيا ربنا... اجعلنا من الذين يتوكلون عليك حق التوكل، واجعل لنا نصيباً من الأعمال التي تجلب رضاك.. ويسر لنا نوال صفاء الرضى بالقضاء والقدر. آمين...





موسى أفندى (قدس سره)
من الإِيمان إلى الإِحسان
(١٩١٧ - ١٩٩٩)



إن من أكبر النعم التي يمن بها الحق ﷻ على عبد من عباده أن يعرّفه عجزه. وربما أكبر نعمة حصلتُ عليها في هذا الطريق المعنوي هي رؤية أخطائي وزلاتي، وإدراك إفلاسي أمام ربى سبحانه. وهكذا فإن على المرء أن يبذل وسع طاقته في سبيل رؤية خطئه ومحاولة إصلاحه، ومن ذلك لم يبقَ لدي طاقة لملاحظة اخطاء الآخرين والاِنشغال بها والحمد لله والشكر له أنني أتمتع بهذه النعم كلها

موسى أفندى (قدس سره)



موسى أفندي (قدس سره)
من الأِيمان إلى الأِحسان
(١٩١٧ - ١٩٩٩)

إن الإحسان هو إدراك المؤمن أنه دائمًا تحت المراقبة الإلهية، وثبوت تلك الحال في قلبه. وهو في نفس الوقت القيام بأَدَاء أي سلوك أو تصرف أو أو عملٍ على أكمل وجهٍ ممكن.

ولقد كانت حياة موسى أفندي-قدس سره- والذي ودَّعناه إلى رحمة الله تعالى في ١٦ تموز ١٩٩٩م مليئة بأمثلة منفردة وجميلة ورائقة من ناحية العلاقات والسلوكيات الإنسانية، أي أن حياته باختصار كانت «**تجسيدًا للإحسان**».

وقد وصل به الحال إلى أنه وهو يحكي إحدى الطرائف كان يسعى جاهداً بأن يبقى تحت مراقبة الله تعالى. وحاله تلك الجميلة كانت تُذَكِر كل من حوله بشعور الإحسان وأحاسيسه.

إن تلك الشخصية الكبيرة كان لديها عزم على تحقيق مقتضى «**من الأِيمان إلى الأِحسان**» بشكل كامل في سلوكياتها وكلماتها كلها. فكانت حياته الظاهرة واحدة من أكمل النماذج في زماننا على



كمالِ هذا السلوك وحسنه. وكان دائمًا في حاله ومقاله ينشر نور هذا التلقي وبركته في الأفق كله مثل شمس تنشر ضوءها ودفئها بلا نقطاع.

وحبيب الحق ذلك كان نبع نوراني فريد لكل شخص تعرف عليه من قريب أو بعيد، أو كان على علاقة به قلت أو كثرت. وكان قلبه يسأم من فساد واختلال التوازن الذي أوجبه النظام الإلهى في الكائنات. وكان يتحرك بحساسية ودقة مفرطة تجاه دفع الخطأ وإزالة النقص الذي يبدو له.

فمثلاً كان يشعر بعدم الراحة حتى من اختلال أبسط شيء كتعليق لوحة على الجدار بشكل مائل، أو بسط سجادة بشكل عشوائي، وكان يصلح هذا الخلل بيده أو يطلب أحدًا بإصلاحه.

وكان لا يغيب عن نظره وتعكر صفوه في مجلس أو مسامرة ما أشياء من قبيل عدم انتظام الحجرة، وجلوس القادم بشكل عشوائى، والتجمع عند عتبة الباب.

وما أجمل تلك الآيات الكريمة التى تصف لطف سلوك أولياء الحق ﷻ ورقته فتقول:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً. وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾ (الفرقان،٦٣-٦٤)

وقد ذكر الحق ﷻ صفات المؤمنين الصالحين في هذه الآيات



والآيات التي تليها ولخصها في ثماني خصال هى:

١- ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾ (الفرقان، ٦٣)

٢- ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾ (الفرقان، ٦٤)

٣- ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾ (الفرقان، ٦٥)

٤- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ (الفرقان، ٦٧)

٥- ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾ (الفرقان، ٦٨)

٦- ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾(الفرقان، ٧٢)

٧- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُماً وَعُمْيَاناً﴾ (الفرقان، ٧٣)

٨-﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾(الفرقان، ٧٤)

وفى ختام تلك الآيات الكريمة بينَّ الحق ﷻ النتيجة والأبدية التي سينالها مثل هؤلاء المؤمنين الصالحين فقال: ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً﴾(الفرقان، ٧٥)



إن القلب الذي تم تصفيته وتنقيته على هذا النحو بلطف الله تعالى وكرمه -إضافة إلى بعض المجاهدات البشرية والصوفية- يجعل صاحبه يترك صورته الإنسانية ويرتفع به إلى درجة الملائكية النورانية تقريبًا، ويحول صاحبه في نهاية الطريق إلى حال تشبه حال المؤمنين الذين ذكرناهم.

وبعض الذين كانوا في تلك الحال يعيشون كل منهم كأنه نجم من نجوم السماء -التي لا حصر لها ولا عد- في عوالم نَفْسِه، محجوب بشكل كامل عن الخارج، ولا يعلم أحد أنهم كذلك.

أما بعض أولياء الحق ﷻ وأحبابه يُعرفون بشكل واضح بسبب وظائف الإرشاد التي عهدت إليهم، ويأخذون نصيبهم من سر البقاء بدوام خدماتهم في الحياة البشرية كمشعل هداية يمتد من أزمانهم نفسها نحو المستقبل. ويدركون السر والحكمة والمراد الإلهي الموجود خلف ستار الأحداث.

ولهذا السبب يعيشون في سكينة الواقف على الحكمة العارف بها، وهم قد حموا أنفسهم من كثير من الضعف البشري كالهم والغم والإضطراب.وهم في ترقيهم المعنوى الذي يبدأ من «رؤية الوجود جميلاً طيبًا بسبب الخالق» يبدؤن في مشاهدة العالم كافة بعين الحكمة المملوءة بأحاسيس العبرة والمحبة والدهشة، فليس هناك شيء عندهم يسمى **(العبث)**.



وهكذا فإن ظهور ووضوح اللطافة والرقة والإكتمال في تصرفات موسى أفندى وسلوكياته –التي شاهدنا هذه الصفات والأحوال الجميلة والعلوية كلها في نفسه طوال عمره– قد تحققت داخل تيار الحياة اليومية؛ لأنه كان ينظر إلى جميع مخلوقات ربنا بعين الرحمة والشفقة.

وهو في تلك الدرجة كان يأخذ نصيبًا من هذه الرحمة الواسعة، ويفيض بها بالكرم والإحسان على القطط التى تأوي في جواره، وحتى الطيور التي تطير عبر حديقته.

ونحن يجب أن نذكر أيضًا من قبيل:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى، ١١) أن حبيب الحق هذا –الذي كان من أصدق المؤثرين فينا فكريًّا وفعليًّا– قد جعلنا نكتب مفهوم «**من الإيمان إلى الإحسان**» –الذي كان الأسلوب والسلوك المسيطر على حياته– على عنوان كتابنا الأخير الذي أسميناه «**التصوف من الإيمان إلى الإحسان**».

وبهذه الوسيلة نشعر بالحاجة إلى أن نتذكر هنا– باسم طلابه ومحبيه كلهم– موسى أفندى–قدس سره– حبيب الحق ﷻ بأعمق الاِحترام والمحبة والدعاء القلبي والاِمتنان، وأن نطلب من قرائِنا متوسلين أن يمنوا عليه –ولا يبخلوا– بقراءة الفاتحة الشريفة على روحه الطاهرة.



باقة من نصائحه

نقدم باقة من نصائح المرحوم موسى أفندى -قدس سره- التي إحتوتها خطاباته -التي كان يكتبها لطلابه- وهي تعرض العالم القلبى لمؤمن من المؤمنين وكماله في تصرفاته وسلوكياته، وهذه مجموعة من أروع هذه الجماليات:

كن صاحب قلب متواضع دائمًا واعلم قيمة أوقاتك وأنفاسك ولا تضيعها.

أحِبَّ عباد الله ولا تتشاجر معهم. وعامل الناس بحسب مستواهم الديني، واستر إساءتهم وانتبه للحرام والحلال،

واجعل المعاصي التى يراها الآخرون صغيرة كبيرة في عينيك. لأن من يرى الذنب صغيرًا فكأنما رأى أمر الله ﷻ - حاشاه - صغيرًا.

وفى سبيل رضى مولانا ﷻ يلزمنا أن نزين أوقات السحر بخاصة بالصلوات والذكر والدعاء.

يجب أن نكون في خدمة أفراد عائلاتنا وكبرائنا.

يجب أن نقلل الألفة مع الغارقين في الغفلة وأن نجلس مع الصالحين ونقوم معهم.

يلزم أن نساعد أقاربنا الآخرين، وأن نساعد المحتاجين إما بالكلمة الطيبة أو بالمساعدات المادية.



وأهم شيء أن ندقق بشدة في الحرام والحلال. فضلاً عن ذلك يجب التصرف بحرص شديد وورع في أعمال التجارة حتى لا ننقص من عبوديتنا.

العبد يكون قريبًا من ربه على قدر رحمته وأخلاقه. والعبد القريب إلى ربه يكون تجسيدًا لسر الحديث الشريف القائل:

" **أدبني ربي فأحسن تأديبي**" (السيوطى، الجامع الصغير، جـ. ١، ١٢)

واعلم أن الأخطاء والشبهات والزلات كلها تأتي بسبب الغفلة عن الذكر، أي في الأوقات التي ننسى فيها ربنا.

الذين يداومون على حال الذكر المعنوي لا تصيبهم هموم الدنيا ولا أحزانها ولا مشاغلها ولا حتى فرحها الزائد عن الحد. وهم قد مَلَؤُا مكان ذلك الفراغ بالسكينة الدائمة والسخاء والشفقة والرحمة بالمخلوقات، أي أن الحب الدائم هو أن يغمس الحق ﷻ عبده الذي يحبه في بحر المحبة. فضلا عن ذلك فإن هذا الشخص يحب من يستحقون المحبة على قدر حبهم للحق ﷻ.

والشخص العاقل كلما فكر في عظمة الخالق ﷻ وفى النعم الدنيوية والأخروية التي أنعم بها الله تعالى عليه يزدد قلبه تواضعًا ورقةً، ويحب كل الناس على قدر درجاتهم، ويترك الجدال والخصام مع الناس حتى ولو كان على حق.



ومن ناحية أخرى فإن الشخص العاقل يعرف أن هذه الحياة مؤقتة زائلة، وهكذا يفكر دائمًا في رضا مولاه سبحانه. ولهذا السبب تنقلب أحوال الظلمة والضيق التي في قلبه إلى السرور والسكنية.

خلاصة الأمر أن يدخل الجنة وهو مازال يحيى على هذه الأرض.

ويجب على كل إنسان أن يعلم أن أفضل وظيفة وأحسنها هي أن يخدم المجتمع الذي ينتسب إليه بكل شيء جميل ابتغاء مرضاة الله ﷻ، والشخص الذي يسعى لحياة مجتمعه وسعادته وانتظامه هو صاحب أفضل وجود وأحسنه داخل ذلك المجتمع. وبناء عليه فإن أجره ومكافأته تكون على قدر عطائه وبذله، وفى ذلك يقول الحديث الشريف:

"سيد القوم خادمهم" (انظر: البيهقي، شعب، جـ. ٦، ٣٣٤؛ الديلمى، المسند، جـ. ٢، ٣٢٤)

كثير من الأشخاص عندما يتوجهون إلى كثيرٍ من العبادات والطاعات لا يهتمون بخصلة «ستار العيوب»، أي العفو عن عيوب وزلات ونقائص الآخرين، تلك الخصلة التي هى صفة للخالق ﷻ، ولهذا السبب لا يستطيعون الترقي بشكل كامل كما يرغبون.

والحال هكذا فإن الإحسان وستر العيوب هي واحدة من أهم الأخلاق الجميلة. فكما أن الله تعالى يعفو عن ذنوب ومعاصي لا



تعد ولا تحصى لعباده، فيجب علينا نحن أيضًا أن نعفو ونصفح. لأن من لديه محبة لله تعالى يعرف معنى العفو والصفح. فلنعف لِيَعْفُوَ الله تعالى عنا إن شاء.

والتسليم هو مفتاح لا مثيل له للراحة والسعادة، أي الرِضى بما قسمه الله تعالى ومراعاة الحلال والحرام.

السالكون قسمان: قسم جعل أوراده عادة، وهو بلاشك مأجور على ذلك.

وقسم آخر مع قيامه بأوراده أدرك ضرورة وجود سكينة الإخلاص لله ﷻ بشكل دائم. وكان مراعيًا لأحكام القرآن الكريم، يُظهر التسليم للحق ﷻ أمام أحكام القضاء والقدر. وجعل كل حركة له توافق رضا الحق ﷻ. وعالم قلوبهم وأرواحهم يكتسب قيمة بحسب مراعاة هذا الأمر. لكن هذه الزمرة هم قلة، بل حتى في الحقيقة هم قلة القلة.

والمهارة كلها أن تستطيع أن تكون في معية الله تعالى في ضوضاء هذه الدنيا وسط آلاف الأنواع من المشاغل. وهذه الحال الطيبة الرائعة هى هدية من الخالق ﷻ لعبده الصالح. ولو تأملنا هذه الوظيفة العلوية للغاية لتخلصنا من الاِنخداع بمتع الدنيا الزائلة.

إن من أكبر النعم التي يمن بها الحق ﷻ على عبد من عباده أن يلهمه إدراك عجزه. وربما أكبر نعمةٍ حصلتُ عليها في هذا الطريق



المعنوي هو رؤية أخطائي وزلاتي. وإدراك إفلاسي أمام ربى سبحانه. وهكذا فإن على المرء أن يبذل وسع طاقته في سبيل رؤية خطئِه ومحاولة إصلاحه، ومن ذلك لم يبق لدي طاقة لملاحظة اخطاء الآخرين والاِنشغال بها والحمد لله والشكر له أنني أتمتع بهذه النعم كلها.

إن تلك النصائح والتنبيهات المملوءة بهذه المحبة والرحمة والاِستقامة كلها هى رشحات نورانية انعكست علينا من حياة موسى أفندى- قدس سره- التي كان الإحسان هو قوامها وعمودها الفقري. رحمه الله تعالى وأسكنه الفردوس الأعلى.

أميــــــــــــــــــــــــــــــــــن





حول كتاب

التصوف من الإيمان إلى الإحسان

رشحة وقطرة قلبية



التصوف يجعل العبودية في أجمل شكل بأحاسيس المراقبة والإحسان ضمن إطار الكتاب والسنة. والتصوف ليس شيئا آخر سوى إلغاء الموانع التي تعوق العبودية وتعطلها وتأكيد الإمكانيات التي ستصبح وسيلة للعبودية



التصوف من الأِيمان إلى الإحسان- ١
رشحة وقطرة قلبية

حول الكتاب المسمى «التصوف من الإيمان إلى الإحسان[1]».

«التصوف يجعل العبودية في أجمل شكل بأحاسيس المراقبة والإحسان ضمن إطار الكتاب والسنة. والتصوف ليس شيئا آخر سوى إلغاء الموانع التي تعوق العبودية وتعطلها وتأكيد الإمكانيات التي ستصبح وسيلة للعبودية».

-**ألتون أولوق**: سيدي أعددتم كتاباً باسم «التصوف من الإيمان إلى الإحسان».

وحتى يومنا هذا ظهرت كُتُبٌ كثيرة جدًّا تدور حول التصوف فلماذا أحسستم بالحاجة لتأليف كتاب جديد؟.

-**المؤلف**: في الحقيقة هذا صحيح لقد أُلفت كتب كثيرة جدًّا تناولت موضوع التصوف. ولكن المد والجزر الذي في داخل تيار الحياة المتحرك - أي انقياد المجتمع للمادة - يحيل الهدوء والسكنية الأِجتماعية فسادًا. وتظهر كل يوم أمام البشر مجموعة من الحاجات الجديدة، ومع تشابه جوهر المسائل تنشأ مع الوقت آراء ورغبات جديدة.

١ هذا الجزء من الكتاب عبارة عن مقابلة أجرتها مجلة التون اولوق مع المؤلف.



ومثلما توجد حاجة لتأليف كتب شرعية وتاريخية لتقييم هذه الآراء والرغبات ومواجهة تلك الاِحتياجات، توجد حاجة أيضًا في كل عصر لكتابة المسائل الصوفية من جديد كضرورة للتربية الروحية تبعًا لمقتضيات العصر وحاجاته. أي أنه من اللازم للغاية التعبير عن حقيقة الصوفية وحقائقها بلغة تلائم العصر وتُصحّحُ المفاهيم والتجاوزات الخاطئة.

ومن المؤكد أن هذا ليس هو السبب فقط، بل لكي يتمكن الميدان الصوفي من تقديم الجماليات الواسعة التي يشملها التصوف إلى القلوب كلها -بحسب الزمان والمكان- لابد أن يكون حاله تشبه تقريبًا بحرًا من المؤلفات.

ولهذا فنحن سعينا لتقديم قطرة قلبية قاصرة عاجزة إلى هذا البحر لتحقيق نفس الغايات. ولأن التصوف حال أكثر منه مَقالاً فسوف نغبط أنفسنا لو استطعنا أن نكون جسرًا لتوجيه القلوب إلى ذلك الحضور العالي.

أي أننا لم نكتب كتابنا هذا بدعوى تجاوز ما كُتب حتى الآن، هذا ما يقتضيه حال الأدب مع السابقين. بل إن عملنا عبارة عن نقل التصوف من جديد إلى روزنامه الحياة اليومية بخطوطه العامة بشكل يناسب المصلحة تبعًا لمقتضيات وظروف عصرنا مع الاِستفادة من المؤلفات الصوفية التي أُلفت حتى يومنا هذا، والحياة النورانية لِأَحبّاء وأولياءِ الحق ﷻ.



وهذا الكتاب أساسًا هو جرة ماء رشحت من التراث الصوفي لأحبّاء الحق وقدمت لإنسان هذا العصر.

فاحباء الحق ينظرون إلى الشمس المشرقة وإلى اللوحات المتداخلة الألوان التي ترسمها حزم الضوء عند الغروب بصورة تدعو إلى الاِنبهار والدهشة، ويحلقون بكل وسيلة إلى آفاق معرفة الله تعالى. وهؤلاء عندما ينظرون بعيون مليئة بالمحبة حتى إلى إحدى الحيات ينبهر بالتموجات والخطوط الجميلة على جلد ذلك الحيوان بدلاً من الفزع والرعب الذي يصيب الآخرين، ويفتنون بسرعته عند الحركة رغم أنه ليس لديه أقدام. أي أن هؤلاء الخواص عندما ينظرون بنظر المحبة والحكمة إلى المخلوقات كلها .

مرة أخرى فإن هذا الكتاب قد تم تأليفه بغرض بيان عدم صحة المفهوم الذي يرى التصوف أسلوبًا ونظامًا منفصلاً عن الإسلام، وللتعبير بشكل واضح عن ضرورة أن يُعاش الدين داخل نورانية وحضور في كلِ أحواله الظاهرية والباطنية. ولنؤكد على هذه الغاية بالأساس أَسمينا الكتاب باسم «**التصوف من الإيمان إلى الإحسان**».

والغاية من تأليف هذا الكتاب هو تتويج الإيمان والإسلام بتاج «**الإحسان**». أي إنبات شعور المراقبة الإلهية في القلب، لأن التصوف الحقيقي هو أن تعيش وقد أخذت نصيبًا من الأسرار والحكم الوجدانية التي في عمق الكتاب والسنة. وكل قول أو حال



أو سلوك يخالف ما جاء به الكتاب والسنة باطل، وللتعبير عن هذه الحقيقة قيل: «**الشريعة قدم الفرجار الثابتة**».فقد قال مولانا جلال الدين -قدس سره-:«نحن مثل الفِرْجَار قدمنا الثابتة في الشريعة ونحن نطوف بقدمنا الأولى على اثنين وسبعين أمة».

«والشريعة تشبه شمعة تنشر الضوء وتنير الطريق مع الأِعتناء بالشمعة والبحث عنها لن تضل الطريق. ولكن لن تستطيع أن تسلك الطريق دون الأِعتناء فهل بدأت في سلوك الطريق في ضوء الشريعة. وهكذا التصوف هو ذلك الطريق».

ومن ناحية أخرى فإن الإحسان الذي يجعل المشاهدة الإلهية حالة شعورية ثابتة في القلب. ويجعل العبد كأنما يرى الله تعالى في كل لحظة ويجعله ينظم حياته على هذا المنوال هو في النهاية المعراج الروحي لعباد الله تعالى المقربين إليه. وهو حقيقة معنوية وروحية وإلهية خفية. وهدف المتصوفة الوصول إلى هذه الحقيقة. وهذا أيضًا يوضح الرابطة الروحية الداخلية الباطنية التي تأسست مع الله تعالى.والشخص الذي أسس هذه الرابطة بشكل صحيح يتحول إلى ولي لله تعالى وهذا هو التخلق بالأخلاق الإلهية.

أما هذه الحال فهي العبودية لله تعالى في أجمل صورة والأِستعداد الجدّي للعالم الأبدى. أي أن التصوف هو إمكانية أن تعيش العبودية في أجمل صورة. لأن الخالق ﷻ قد خلق الإنسان لعبادته فقط.



وعلى هذا فالتصوف يمكن أن يجعل العبودية في أجمل صورة بأحاسيس المراقبة والإحسان ضمن إطار الكتاب والسنة. والتصوف ليس شيئا آخر سوى إلغاء الموانع التي تعوق العبودية وتعطلها وتأكيد الإمكانية التي ستصبح وسيلة للعبودية.

وهو تحويل الأراضي اليابسة والأماكن الميتة التي ليس بها حياة أو روح إلى حديقة غناء خضراء منبتة زاهية الألوان. ويجعل كثيرًا من القلوب الخربة قصورًا معمورة.

باختصار فإن التصوف هو طريق منير يجعل العباد جديرين عند الخالق ﷻ بمقام «**نعم العبد**»، وهم ذاهبون من عالم الغربة ذلك إلى عالم الوصول الأبدي الخالد، وهذا أيضًا بلا شك يكون ممكناً بتحول الإيمان إلى قوام الإحسان.

-**ألتون أولوق**: إن ما ذكرتموه على كل حال يعكس في نفس الوقت إطار الكتاب ومحتواه. فمن نفس الزاوية ما هي الأشياء التي تكلمتم عنها بشكل عام في الكتاب؟ وما هي الأشياء التي اكتسبت أهمية خاصة في الحديث عنها ؟

- **المؤلف**: بعد أن عرضنا في كتابنا محتوى التصوف بشكل عام، سعينا لإيضاح المسائل -التي تشكل موضوعه الأساسي- مثل معرفة الله ومحبة الله تعالى، وتزكية النفس، وتصفية القلب، والأسلوب والطريقة الصوفية.



واجتهدنا لتقديم نماذج من سلوكيات عظماء الإسلام وعلى رأسهم رسول الله ﷺ، ومن تبعه بإحسان. وعرضنا مرارًا وتكرارًا المعلومات التي تجيب على مجموعة من الآراء والشبهات المختلفة المتعلقة بأعماق التصوف ودقائقه من ناحية الفكر فقط دون أن نستهدف الأشخاص.

فضلاً عن ذلك فقد أشرنا في الكتاب إلى عدم وجود أية علاقة لهذا الطريق المبارك بتلك الأفعال والتطبيقات غير اللائقة التي يقوم بها أشخاص بعيدون عن التربية المعنوية التي يقدمها التصوف، أو بسبب جهلهم وغفلتهم فقط مع توافر النية الحسنة. لأن التصوف يهدف إلى إنضاج الإنسان عن طريق تزكية النفس تلك النفس التي تحدث عنها القرآن الكريم والأحاديث الشريفة بخاصة، والتماس السعادة الأبدية بهذه الطريقة. وهذا الأمر هو حقيقة يشير إليها الحق ﷻ ويؤكد عليها المرة تلو الأخرى. يقول الله ﷻ في كتابه الكريم:

﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا. وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا. وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا. وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا. وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا. وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا. وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ (الشمس، ١-١٠)

وقد أقسم الله تعالى بما أقسم به ليبين شرف الموجودات التي يقسم بها وقيمتها، وليظهر أهمية وعظمة وعلو المراد الإلهي والغاية الإلهية التي وضحها بعد ذلك القسم. وهكذا الوضع في الأَيْمان

التي وردت في هذه الآيات الكريمة، مع ملاحظة أن الله تعالى قد أقسم سبع مرات كاملة المرة تلو الأخرى في هذه الآيات الكريمة فقط، واستعمل كلمة **قد** مما يزيد المعنى قوة وتأكيدًا. لذا قال الحق تعالى بعد تلك التأكيدات: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا**﴾.

ومما يوجب الملاحظة ويلفت الِأنتباه أنه لم يرد في القرآن أبدًا القسم سبع مرات متتاليات بخصوص أمر آخر سوى تزكية النفس. وهذه الحقيقة تكفي لبيان أهمية وضرورة تزكية النفس -إلى هذا الحد- من أجل نجاة الإنسان وخلاصه.

وهكذا فإن هذا الكتاب الذي نشرناه تحت اسم «**التصوف من الإيمان إلى الإحسان**» هو عبارة عن إيضاح أحبّاء الحق وأوليائِه لهذه الحقيقة - أي تزكية النفس - بأقوالهم وأحوالهم وجمال سلوكهم.

-**ألتون أولوق**: كل ذلك كان بلا شك جواباً لسؤال عن «كيفية التصوف». وتبعا لهذا كيف يجب علينا تعريف التصوف بشكل جامع لمفرداته مانع للخلاف حوله؟ فلو أمكن الإجابة من شخصكم الكريم عن طريق ذكر تعريف أو تعريفات للتصوف وأهم التقييمات بشأنه؟.

-**المؤلف**: إن التصوف هو علم يُتذوق ويُدرك بالمعايشة، لذا كل شخص بشكل عام يتناول الأمور والنواحي التي تذوقها وأدركها فيه. وكنتيجة لهذا كان من الطبيعي أن تظهر تعريفات كثيرة جدًّا للتصوف.



ويمكننا القول إن أعلام هذا الطريق قد سلكوا طريقًا لتوضيح القَسم الذي انعكس عليهم فقط كبلورة تعكس الأضواء المختلفة من كل مقطع تقريبًا.

وهذه بعض تعريفات التصوف اللامحدودة -التي صاغها أحبّاء الحق بحسب التجليات الروحانية التي نالوها- ومنها:

-التصوف هو الأخلاق الجميلة والأدب.

-التصوف هو تزكية النفس وتصفية القلب.

-التصوف هو معركة معنوية لا هوادة فيها.

-التصوف هو الأخلاص.

-التصوف هو الأِستقامة.

-التصوف هو الرضى والتسليم.

-التصوف أن تكون حبيباً ولا تكون حملاً ثقيلاً أي أن تحمل عن الأشخاص أثقالهم وفى المقابل لا تحمل عليهم أي شيء.

وباعتبار الجوانب المشتركة لهذه التعريفات المختلفة يمكننا أن نقول: إن التصوف هو تصحيح عالم المؤمنين الداخلي، وجعلهم يكتملون معنويًّا، وتوصيل العبد إلى الأخلاق الحميدة، وتقريبهم للخالق ﷻ، وبهذه الصورة هو علم يوصل إلى معرفة الله ﷻ.

ومنظومة التصوف المشهورة للشيخ إبراهيم أفندي شيخُ تكيةُ «أُوغْلانْلَرِ» الموجودة في حي «آق سراي» تشرح لنا التصوف



وتعرِّفه، ومن هذه التعريفات:

«التصوف أن تنخلع عن وجودك المادي في البداية

وأن تجعله سلطانًا على عرش القلب في النهاية.

التصوف أن تحمل بكليتك مسئولية العروة الوثقى

وأن تكون مظهرا لآيات الغفران.

التصوف هو التصرف بالأسم الأعظم مع الكون كله

وهو أن تكون قرآنًا حيًّا يمشي على الأرض.

والتصوف في ضوء هذه التعريفات هو تطهير القلب من الأدران المادية والمعنوية، واكتساب الأخلاق والأوصاف الجميلة.

وهو السعي لأن تعيش الدين بالأخلاق والنورانية بكيفية تناسب جوهره. والتصوف بهذا الأعتبار هو الوصول إلى نضج وكمال في الرؤية يحيط بالأسرار والحكم والخفايا العالية -التي في الأحداث المادية والمعنوية- والتي لا يكفي العقل لحلها بمفرده.

وهو السعي لتحييد مانع النفس- وهو عائق وحاجز مؤكد- الذي يمنع القلب من الأنبهار والأِفتتان بالحظوظ الروحانية التي لا تنتهي.

أي أن التصوف هو تجاوز ميول ورغبات الجسد الشهوانية التي تحبس الروح. وبعد ذلك فهو مجموعة المعارف والأحوال المعنوية، والمشاعر والسوانح والتجليات القلبية التي تدعم مشاهدة



الحقائق الخفية التي في جوهر الحوادث كلها، وصفحات العبرة والحكمة التي تجري خلف تلك الحقائق بأسلوب عرفاني.

والتصوف بهذا الأِعتبار هو الأِمتزاج بمحبة واسعة، والتكامل ظاهرًّيا وباطنيًّا مع حياة رسول الله ﷺ المباركة، لأن تلك هي التجليات الظاهرية والباطنية الداخلية والخارجية لرسول الله ﷺ أي حاله ﷺ .

ومن أجل ذلك يمكن الحصول على جزء من روحانية رسول الله ﷺ وذلك بأن تكون روحيًّا معه بشكل مجازي. وبعبارة أخرى فالتصوف هو الإيمان المتحد مع العشق والعبادة التي تؤدي بالوجد وجمال السلوك.

والخلاصة أن التصوف هو قطرات ندى نورانية انعكست على القلوب الممتلئة بالمحبة والتي بدأت بنفخ الروح في آدم عليه السلام ووصلت إلى الكمال في نبي آخر الزمان محمد ﷺ .

-**ألتون أولوق**: هل يمكننا أن نعتقد أن العلاقة الأكيدة التي كانت في ساحة التصوف طوال التاريخ قد تحققت بسبب الحياة الإيمانية والعرفانية الخالصة التي عيشت حول تلك التعريفات التي تفضلتم بذكرها؟

وحقيقة فإن التصوف اليوم مثلما كان بالأمس- وعلى الرغم من النفور منه أحيانًا بسبب الأِتهامات المتعمدة - فإنه كلما مر يوم يشعر الناس بالحاجة أكثر إلى وجوده في ساحة العمل الإسلامي. وقد



رصد كثير من المسلمين وغير المسلمين علاقة متزايدة مع هذا الميزان الذي يمكن أن تسميته بـِ «**البعد المعنوي للإسلامي**». فما هي أسباب هذه العلاقة؟

-**المؤلف**: إن التصوف يوجه الإنسان إلى الروح. ويفتح للروح طريق الطمأنينة المعنوية المناسبة للاِستعداد الفردي. ومن أجل هذا فإن كل ما يتعلق بنفس الإنسان وروحه يكون موضوع اهتمام.

أي أن المسافات كلها التي يقطعها العبد في رحلته المعنوية والعوالم كلها التي هي حال ارتباط به وآلاف الأحوال والنهايات التي عاشها تكون متعلقة ومرتبطة بأمور لا حصر لها، مثل القدرة على إدراك وجود الله تعالى الذي هو رب العالمين ومعرفته قلبيًّا، والعبودية له ﷻ.

ومن أجل أشياء كهذه، فإن التصوف -الذي يُخاطب كل فرد في المجتمع- يمنع الضعف والتكاسل في أوقات الراحة الاَقتصادية والاَجتماعية، ويزيد من الحيوية المعنوية ويجعلها تستمر ولا تتوقف.

ومن ناحية أخرى يفتح نافذة علوية على القلوب المختنقة بين نزاعات الأوقات الصعبة المملوءة بالظلم والاَنشغال والقهر، ويجعلها تتنسم أنفاس التجلي النورانية. ويكون مرهمًا للقلوب الجريحة، وماء الحياة للعقول المتعبة والأرواح الظمآنة.

والتصوف من ناحية أخرى هو حماية من الغرور والكبر



والعجب، وتلقين التواضع والاِنكسار للذين بلغوا الذروة في الأخلاق الجميلة والعبادة. وهو أيضًا يمد أطواق نجاة الروح مثل العفو والغفران والرحمة الواسعة إلى العباد الذين اختنقوا في مستنقعات الذنب. فمثلاً من الحقائق التاريخية في هذا الشأن اكتساب تيارات التصوف قوة وظهور عدد كبير جدًّا من المتصوفة الكبار في تلك الفترة التي أعقبت هجمات المغول، وكان في ذلك تسكين وعزاء للاضطرابات والقلاقل التي سببت الفتنة والفساد الذي هز الأناضول كلها لفترة.

لأن التصوف يمس القلب بصدمة كهربائية، ويُحْيِيه بالتسليم في المشاكل التي لا يكفي فيها العقل. وتتجلى المشاكل وتستبين بالتجليات التي في القلب مثل الكشف والإلهام الموافقة للكتاب والسنة.

ولعل تلك الكلمات لمحمد حميد الله أحد علماء الاِسلام البارزين في هذا القرن الذي نعيش فيه والذي قضى حَيَاتَه كُلَّها في نشر الاِسلام وخاصة بمؤلفاتِه باللغات الغربية وهي كلمات ذو مغزى ومعبرة للغاية فيقول: «لقد كانت العقلانية هي النمط الذي تربيت عليه، وكانت الدراسات والبحوث الشرعية بالنسبة لي ترفض كل شيء لا يمكن تعريفه وإثباته بشكل مقنع إيمانيًا. ومن المؤكد أنني كنت أؤدي فروض الإسلام مثل الصلاة والصيام ليس لأسباب صوفية، بل لأسباب شرعية.



وكنت أقول لنفسي: إن ربي وحبيبي هو الله تعالى. وقد أمرني أن أفعل هذه الأشياء. وفى تلك الحال يجب عليّ أن أقوم بتلك الواجبات. فضلاً عن هذا فإن الحق والواجب يرتبط كل منهما بالآخر. والله تعالى قد أمرني «لتنتفع وتستفد من هذه الأشياء» وفي تلك الحال فإن واجبي أن أشكره.

ومنذ فترة كنت قد بدأت أعيش في مجتمع غربي في محيط مثل باريس، وكنت أشعر بدهشة وحيرة، ذلك أن ما دفع مسيحيي هذه البلاد إلى اعتناق الإسلام ليست آراء علماء الفقه والكلام، بل هم الصوفيون أمثال ابن عربي، ومولانا جلال الدين الرومي. وكنت في هذا الموضوع شاهد عيان، فعندما طلب مني إيضاح في أحد الموضوعات الإسلامية فإن الجواب الذي أعطيته والمستند على الأدلة العقلية لم يكن مقنعًا أو مرضيًا بالنسبة للسائل، ولكن التصوف لم يتأخر عن إعطاء ثمرة الإيضاح. وبالتدريج فقدت قوة تأثيري في هذا الموضوع. والآن أنا أؤمن وأعتقد أن الذي يخدم الإسلام اليوم في أوربا وأفريقيا ليس هو السيف أو العقل، بل هو القلب -أي التصوف- كما كان الحال في زمن **قزان خان** عقب الدمار والخراب الذي سببه **هولاكو**.

وبعد هذه المشاهدة بدأت في دراسة بعض المؤلفات التي كُتبت في موضوع التصوف، وهذا فتح عيون قلبي، وفهمت أن التصوف الذي كان في عهد النبي ﷺ وطريق متصوفة الإسلام



الكبار لم ينشغل بالكلام فقط، أو بأشياء لا معنى لها، بل كان يسير في أقصر طريق بين الإنسان والله تعالى وكان يبحث عن تنمية الشخصية وتطورها.

والإنسان يبحث عن أسباب الواجبات التي كُلف بها. لكن الشروح المادية في المجال المعنوي تبعدنا عن الهدف، أما الشروح المعنوية فهي التي تطمئن أليها الإنسان»(٢).

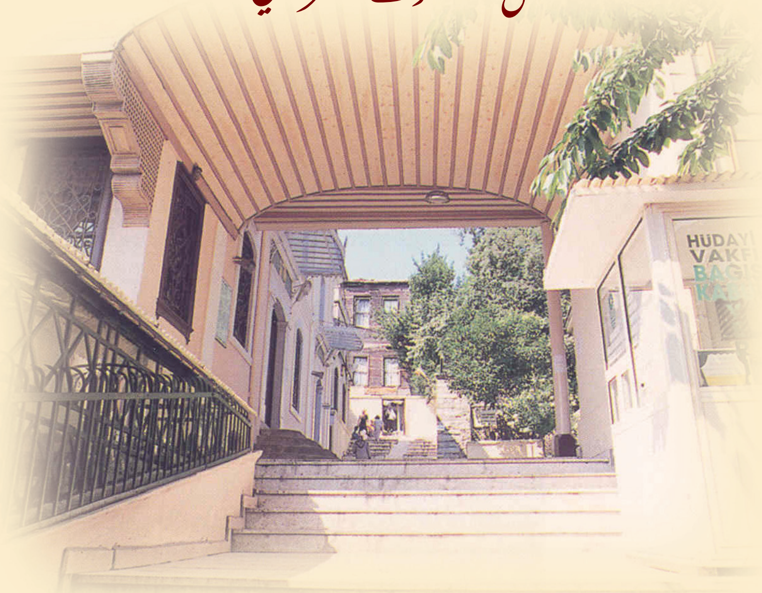
وهذه الكلمات توضح أن التصوف أصبح له أهمية كبيرة جدًّا في عصرنا الذي زادت فيه الأزمة الأِجتماعية والأِقتصادية رغم وصول الصناعة الثقيلة والنهضة التقنية إلى ذرى متقدمة وتحول الإنسان فيه إلى ما يشبه ترساً في آلة.



٢ محمد عزيزلحبابي، شخصية الإسلام، ترجمة، إسماعيل حقي أَقن، ص ١١٤- ١١٥، هامش ٨، اسطنبول، ١٩٧٢م. وهذا الهامش هو نص الَخطاب المؤرخ لـ ٢٧ سبتمبر ١٩٦٧م والذي كتبه محمد حميد الله إلى المترجم.

التصوف من الإِيمان إلى الإِحسان- ٢

هل التصوف ضروري؟



إن من يرى أن التصوف لا فائدة له ولا ضرورة له، كمن يرى أنه لا ضرورة للأخلاق والتقوى والعرفان وتزكية النفس وتصفية القلب ووصول العبودية إلى مقام الإحسان إلى الله تعالى



التصوف من الإِيمان إلى الإِحسان- ٢
هل التصوف ضروري؟

-**ألتون أولوق**: يُفهم مما ذكرتموه بوضوح أن أسلوب التصوف له أهمية في تبليغ الإسلام. وفى تلك الحال فلو سألنا ما هو سر ثمرة أسلوب التصوف في إعطاء نتائج إيجابية كثيرة في تبليغ الإسلام، وإكمال وهداية الناس بالتوازي مع تبليغ الإسلام؟

-**المؤلف**: إن الجانب المهم للتصوف في يومنا الحاضر هو أنه أسلوب ومنهج يمكن اتباعه وتطبيقه في إصلاح البشر. فالأحكام الظاهرة للشرع الشريف غايتها حفظ الناس ووضعهم على صراط الله المستقيم سواء بالعقاب أو الثواب في الدنيا والآخرة.

أما التصوف الذي يمكن أن نسميه الأحكام الباطنية فهو يستعمل المحبة والشفقة والحب -إضافة إلى الثواب والعقاب- لتحقيق تلك الغاية. والبشر في عصرنا يعيشون في أزمة روحية بسبب ابتعادهم عن الدين، وارتكابهم المعاصي طاعة لشهواتِهم في أغلب الأحيان، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن إمكانية إصلاح هؤلاء ونجاتهم يمكن أن تتحقق أكثر بالعفو والتسامح والشفقة.



ومن هذه الناحية فإن عصرنا هو عصر تحمل فيه الحقائق الصوفية أهمية كبيرة، كما تحمل القواعد التي تتناول أسلوبه وأصوله القدر ذاته من الأهمية.

ومثلما يوجد في بلادنا من ينظر بالعفو والتسامح والشفقة، فإنه يمكن أن نشاهد في عالم الغرب توفيقًا ونجاحًا أكثر في أية فتوحات معنوية. وبدلاً من تقديم الإسلام -الذي هو نفحة تجلي إلهي- بنية العقاب والغضب إلى الأرواح المتأزمة تحت سلطان العقل والنفس في الغرب، فإن المنهج الأكثر نورانية في كل وقت أن تعرض لهم السلوكيات الممتلئة بالشفقة والرحمة.

لأن الإنسان ينال شرف كونه إنسانًا على قدر قربه أو بعده من الغاية الحقيقة التي خلق من أجلها. وإن الأِنجرار من العظمة التي في جوهرالإنسان وفطرته إلى مستنقع الذنب هو تمامًا مثل سقوط الحجر الأسود الذي في الكعبة المشرفة ليختلط بتراب الأرض وغبارها.

ولا يمكن أن نتصور أن يبقى وجدان أي مؤمن هادئًا أمام سقوط ذلك الحجر ولا يثور لها وينفجر غضبًا. وسقوط الحجر الأسود لن يصرف المؤمنون نظرهم عن احترامه، ولا يقلل أدنى درجة من قيمته في نظر المؤمنين.

بل على العكس فإن المؤمنين يفصلونه عن تراب الأرض، وينظفونه بدموع عيونهم ويتسابقون مع بعضهم من أجل وضعه



في مكانه العالي القديم بكل الأِحترام والتبجيل.وهذا الأِحترام والتبجيل لذلك الحجر الذي ينبع من أنه قد هبط من الجنة، فما بالكم بالإنسان الذي حمل أسرار:

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ (الحجر، ٢٩)

والذي هو بؤبؤُ عين المخلوقات وأعزها. وعلى هذا النحو فإن قدر الإنسان وقيمته باقية في جوهره وأصله حتى ولو انحط إلى أسفل الدرجات بارتكاب المعاصي والآثام.

إن روح الإنسان كما قال مولانا جلال الدين -قدس سره-تشبه ماءً براقًا صافيًا، لكن عندما تتلوث بالأعمال السيئة والذنوب لا يمكن أن ترى أي شيء.

وفي هذه الحال لابد أن نصفي ذلك الماء لكي نستطيع أن نرى اللآلئ المعنوية وأنوار الحقيقة. وعلى هذا فإن غاية التصوف هي تهذيب أحاسيس الأنانية والشهوة وإيصال الأفراد والمجتمعات بالتبعية إلى الهدوء والسكينة والأمان.

وعلى هذا النحو فإن أي إنسان مهما كان حجم ما ارتكبه من الشرك والكفر والذنب فإنه لا يمكن أن يحرم من أن يكون مدعوًا للهداية مخاطبًا بها في كل وقت.

وهذا مثال على ذلك من عصر السعادة، ذلك أن رسول الله ﷺ قد أرسل إلى الوحشي قاتل حمزة ﵁ يدعوه إلى الإسلام، فأرسل



إليه الوحشي يقول : يا محمد! كيف تدعوني إلى الإسلام وقد نزلت في القرآن آية تقول:

﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً. يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾ (الفرقان: ٦٨، ٦٩)،

وإني قد فعلت هذه الأشياء الثلاثة فهل لي من توبة؟

فنزلت هذه الآية:

﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ (الفرقان، ٧٠)

فكتب بذلك إلى وحشي، فكتب إليه: إن في الآية شرطاً وهو العمل الصالح ولا أدري هل أقدر على العمل الصالح أم لا، فنزل قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾ (النساء، ٤٨)

فكتب إلى وحشي، فكتب إليه: إن في الآية شرطاً أيضاً، فلا أدري أيشاء أن يغفر لي أم لا ؟

فنزل قوله تعالى

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر، ٥٣)



فكتب إلى الوحشي، فلم يجد فيها شرطًا ففرح وقال :(يا ربي ما أعظم رحمتك) وقدم المدينة وتاب توبة نصوحًا وأسلم، فقال الناس: يا رسول الله! إنا أصبنا ما أصاب وحشي قال: **"هي للمسلمين عامة"** (الهيثمي، جـ. ١٠، ٢١٤-٢١٥)

ولعل أهم خاصية للأسلوب الصوفي -الذي استلهم حقائق هذه الحادثة وأمثالها- هو طبيعة النظرة إلى الإنسان. فالإنسان تبعًا لهذا قد نال تجليات الصفات الإلهية وأصبح محلًّا للخطاب الإلهي. ومن هذه الناحية حمل سراً من ربه كبؤرة العالم وبؤبؤ الكائنات.

وعلى ذلك وكما قلنا قبل قليل، فإن الإنسان مها انحط إلى أسفل الدرجات بارتكاب المعاصي والآثام تبقى القيمة في جوهره وأصله، ولكن عندما نقول ذلك فمن المؤكد أننا لا نعني أن التصوف بلا ضوابط.

ولكن ما يقوم به التصوف باختصار هو: «ألا يقل تسامحنا مع المذنب بسبب ما ارتكبه من ذنب، وألا تنتقل عداوتنا وبغضنا للذنب إلى من ارتكب الذنب».

والتصوف بهذا الجانب يشكل أكثر الوسائط فائدة وإثمارًا في تبليغ الإسلام في وقتنا الحاضر؛ لأن البشر يشتاقون دائمًا إلى حضن أحبّاء الحق الحنون الدافئ أمثال عبد القادر الجيلاني، عزيز محمود خداي، يونس أمره، بهاء الدين النقشبند ومولانا جلال الدين الرومي وأمثالِهم.



-**ألتون أولوق**: لقد عرّفتم التصوف بما ذكرتموه بأنه الكيفية التي توصل الإنسان من الهُوية الخشنة الفجة إلى الهوية الكاملة. وبناء على هذه الحقيقة فما هي مكانة التصوف في حياة المسلم؟، بتعبير آخر هل التصوف ضروري؟.

-**المؤلف**: لقد سألتم سؤالاً مهمًّا للغاية، ذلك أن التصوف هو نعمة نورانية وتجل إسلامي- ببنيته ومحتواه الباطني الواسع- لا يمكن التخلي عنه من يد أهل الإيمان. ومن هذه الناحية فالتصوف يحمل أهمية كبيرة للغاية سواء لتوصيل المسلمين إلى الكمال، أو إلى أن يكون وسيلة لهداية غير المسلمين وأن يعكس لهم الإسلام بشكل صحيح.

لأن المعلومات المكتوبة في الكتب كلها تشبه في الحقيقة بذرة. فانظر كيف أن البذور عندما تبقى في المخزن فقط دون أن تبذر في الأرض لا تكون شيئا آخر سوى أن تكون بذورًا رغم مرور السنوات. وكذلك الحال عندما تبق المعارف مكتوبة على الأسطر فقط ، أو موضوعه على الأرفف فلن تثمر شيئًا.

وفى مقابل ذلك فإن البذور التي تدفن في الأرض تنمو وتكبر حسب أوصافها وخصائصها. وقد تتحول إحداها إلى شجرة دلب ضخمة للغاية. ويشبه هذا تمامًا بذور العلم التي تبذر في أرض القلب فيصير كل قلب منها حديقة معنوية. فتثمر في ذلك الوقت الأسرار والحكم التي هي الثمار الحقيقية للعلم والعرفان.



ومن هذه الزاوية فإن جانب الفتوى في الدين يمثل الأعمدة الأساسية لبناء ما، أما جانب التقوى فهو عناصر الرقة والجمال التي تزين تلك الأعمدة وتكملها. والتصوف يجمع هذين الجمالين، ومن ناحية أخرى يضيف الأخلاق والعمل الصالح والجمال إلى هذا التكامل فيوضح ويفسر الإنسان والقرآن والكائنات، ويدعم إدراك المسئوليات وأدائها بحكمة واسعة. وعلى هذا النحو فالتصوف هو بمثابة نافذة معنوية مفتوحة للعباد في باب محبة الله تعالى ومعرفته، وهي مفتوحة من قلوبهم نحو المعراج.

وعلى ذلك فالتصوف هو حاجة قلبية وروحية لا يمكن تجاهلها. وعندما يكون الأمر هكذا، فإن ضرورة وجوده في حياة كل مسلم قل أو كثر هو حقيقة لا يمكن الجدال فيها. وبشكل أدق فأينما وجد الإنسان في أي مكان يكن التصوف هو موضع المناقشة والحديث.

وإذا لم نلتفت إلى هذه الحقيقة وسألنا هل التصوف ضروري؟ فكأننا نسأل سؤالاً من قبيل هل التفسير والحديث وعلم الكلام والفقه والعلوم الأخرى التي هي أساس الإسلام ضرورية؟.

وإن من يرى أن التصوف لا فائدة له ولا ضرورة له كمن يرى أنه لا ضرورة للأخلاق والتقوى والعرفان وتزكية النفس وتصفية القلب ووصول العبودية إلى مقام الإحسان إلى الله تعالى، لأن هذه الحقائق كلها تُستهدف وتُقصد بالتصوف.



وعلى ذلك فإن الشخص الذي يعيش هذه الحقائق فهو بالنسبة لنا يعيش التصوف حتى لو لم يقبل اسم التصوف، لأن التقوى والزهد والإحسان والتصوف هي مصطلحات قريبة من بعضها البعض من ناحية الحقيقة والمحتوى وتدل على نفس المعنى والغاية. وفي مركز هذه المصطلحات كلها وفي وسطها يأتي رسول الله ﷺ -النموذج الفريد الذي لا نظير له- كـ «أعظم مرشد كامل» للبشرية كلها، والصحابة الكرام الذين تربوا في محضنه التربوي العظيم، وكان كل واحد منهم شخصية علوية ونجمًا في سماء المعنى والوجدان والقلب.

ومن ناحية أخرى فإن وصول القلب إلى الطمأنينة وإدراك الهدوء والسكون والسعادة يرتبط بالمستوى المعنوي الذي وصل إليه الإنسان.

ومن أجل ذلك يجب أن يتلقى العبد تربية معنوية، لأن امتلاء القلب بالعلم والحكمة وإطلاع المرء على حقائق الدين العالية، وتكامل العبد معنويًّا يكون ممكنًا فقط في نهاية مجموعة من العمليات.

فحتى الأنبياء الذين بُعثوا نموذجًا وهداية للبشرية كانوا يمرون بفترة تحضير واستعداد قبل تلقي الوحي. لأنه من الضروري تطهير القلب وإكسابه حساسية ورقة والوصول به إلى قوام واضح محدد. وذلك من أجل أن يتحول ذلك القلب إلى متلق وجاذب للطف



الإلهي والتجليات المعنوية. فرسول الله ﷺ كان يصعد إلى غار حراء ويعتكف قبل تكليفه بالرسالة والنبوة، وموسى عليه السلام ذهب إلى طور سيناء في رياضة روحية قبل أن يكلمه الله تعالى، ويوسف عليه السلام ظل في السجن اثني عشر عامًا قبل أن يصير عزيز مصر، وفي ذلك السجن تجاوز مراحل المشقة والرياضة الروحية والمجاهدة والمعاناة. وهكذا انسلخت تلك القلوب المباركة تمامًا عن العلائق كلها وعن كل سند سوى الله عز وجل.

وكان رسول الله ﷺ مظهرًا لسر «**ألم نشرح**» قبل أن يصعد إلى المعراج، وشُق صدره الشريف ليغتسل قلبه الطاهر بماء الود والمحبة، وامتلأ بروحانية العلم والحكمة، لأن رسول الله ﷺ في المعراج كان سيشاهد حوادث عجيبة وغريبة، وسيشاهد لوحات لطيفة وأسرار إلهية لا يستطيع أن يراها في قوامه البشرى.

وإذا كان الأنبياء -وهم عباد الله المخلصين- قد تعرضوا لتصفية القلب فما أكثر حاجة البشر الآخرين إلى تطهير القلب، لأن القلب الغليظ لا يستطيع أن يقترب من اللطيف عز وجل، فالذي فقد حاسة الشم لا يستطيع أن يكون له نصيب من رائحة زهور القرنفل، وإذا كان الزجاج مغبشًا بالبخار فلن تكون الرؤية واضحة من خلاله. ومن ناحية أخرى فإن اختلاط الحلال ببذرة من حرام أو شبهة يفقده قبوله ونقاءه، واختلاط جرة ماء من نبع صاف بقطرة من نجاسة يفقدها صفاءها وطهارتها.



ولهذا السبب يجب تطهير القلب من غلظته وزيادة حساسيته وقابليته المعنوية ليتحول إلى متلق للأسرار والحكم الإلهية، كما يجب أن يتزمل القلب ويلتحف باللطافة والرقة والصفاء، لأن الحق ﷻ يقول في كتابه العزيز:

﴿**يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ. إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ (الشعراء، ٨٨ -٨٩)

وتحول القلب إلى قلب سليم مرتبط فقط باكتساب وتحصيل التربية المعنوية وصفاءها، لأن القلب قبل التربية المعنوية يكون مثل الحديد البارد. ولكي نستطيع تشكيله كما نحب ونرغب يجب أن يتم تسخينه أولا، ويتم تطهيره من الصدأ والأوساخ، وبعد أن يخرج عن قساوته وشدته يتم طرقه وتليينه، وبعد هذه المراحل فقط يمكن أن يأخذ الشكل الذي نريده. وهذا بالضبط ما يحدث مع القلب، فبدون تطبيق هذه العمليات كلها لا يمكن أن يتحقق الكمال القلبي.

أما بعد تحقيق هذا الكمال القلبي فإن عالم الحقائق -الذي لا يمكن أن يرى بالعين ولا يمكن إدراكه بالعقل- سوف يُحس قلبيّاً ويُدرك ذوقيًا، ومن أجل ذلك يجب إكمال وإنضاج الطاقة والدراية القلبية.

وفي صدد إيضاح أهمية هذا الإنضاج والإكمال فقد وصف مولانا جلال-قدس سره- الدين حاله عندما كان مدرسًا في المدرسة



السلجوقية في ذروة علوم الظاهر فقال: «كنت فجًّا غليظًا فلما تحولت الكائنات -المملوءة بتجليات معرفة الله تعالى- إلى كتاب، وصارت الأسرار المكنوزة فيه عيانًا ظاهرًا وصفتُ حالي فقلت: لقد نضجت . ولما فنيت وتلاشيت في محبة ذاته وصفت حالي عندها فقلت: لقد احترقت».

وهذا يوضح أيضًا أن العبد يحتاج إلى تربية معنوية كاملة لكي يصل القلب إلى الكمال. ذلك أن قبول العبد لدى ربه تعالى يرتبط أكثر بالكشف القلبي. وقد قدم الصحابة الكرام أمثلة مجسدة لا حصر لها على هذه الحقيقة، فكثير منهم كانوا يدفنون بناتهم أحياء -كأن قلوبهم قدت من صخر- ولكن في ظل تربية رسول الله ﷺ المعنوية صاروا معالم للرحمة والشفقة، ندية قلوبهم، دامعة عيونهم، وبذلوا أرواحهم وما يملكون في سبيل الله تعالى ورسوله. نحن نريد أن نقول باختصار :

إنه يمكن أن يكون هناك تدين بلا تصوف، ولكن هذا التدين يصبح محرومًا من قوام الإحسان. أي أن حياة إسلامية مجردة من التصوف- الذي هو تربية معنوية- لا يمكن أن توصل أي شخص إلى قوام وحال العبودية التي شعارها:« **اعبد الله كأنك تراه**».

-**ألتون أولوق**: سيدي أن قراء التون اولوق هم أحباب لشخصكم الكريم قلبيًّا، وهؤلاء الناس يعدّون أنفسهم سعداء



لتواجدهم معكم في رحاب القلب. فماذا تريد أن تقول لهم عن التصوف في الختام؟

-**المؤلف**: إضافة إلى ما قلناه حتى الآن فأنا أريد أن أذكر طائفة من النصائح والمواعظ التي تمسك بها أهل الله بإصرار ومنها:

إن التصوف هو تربية معنوية تعني السعي إلى اكتساب أخلاق رسول الله ﷺ. وهو حال الوجد في العبادة، وحال الفضيلة في المعاملات. وهو أيضًا التوجه بعشق إلى خالق الكائنات ﷻ، وإلى رسوله الكريم ﷺ ، لأن أحبّاء الحق الذين جعلوا المولى ﷻ ورسوله ﷺ في مركز المحبة -بتوجه وعشق خالص حقيقي- قد أصبحوا أحباب الإنسانية كلها إلى الأبد.

الألفة والصحبة مع الصالحين تصلح المؤمن، لأن السريان بين الشخصيات هو من خواص الطاقة النورانية. فالصالحون الذين طعّموا الأرواح بالنظام والمعنوية هم أشخاص قد طهروا نفوسهم، وصرفوا أنظارهم عن زخرف الدنيا وزينتها، وامتلأت قلوبهم بنور إلهي. والألفة معهم تجعل العبد عبدًا تستفيد المخلوقات كلها من يده ولسانه.

المحبة خط يمتد بين قلبين، والإنسان يفتن ويندهش بمنح القلب، وعلى هذا النحو يجب على المؤمن استعمال أكسير "المحبة" في سعيه في كل مجال وبكل وسيلة.



إن تبديل العلم إلى عرفان هو الوسيلة لمعرفة الحق ﷻ في القلب. والكائنات هي جعبة الحكم والأسرار. والمعرفة ليست المشاهدة، بل هي معرفة الحكمة والأسرار.

إن تخلص القلب من غلظته الجسدية وتلحفه باللطافة والرقة هو سبيل القرب من الله تعالى. فالمؤمن الذي يحي قلبه يتلمس طريقًا للخلود. أما الفرد الذي يتلحف قلبه بالشهوة يفقد صفة الإنسان على قدر ما أحيط بقلبه من شهوة.

أساس أخلاق الإسلام هو عشق الرب ﷻ والتوجه إليه بإخلاص ومما لاشك فيه أن الخدمة هي العلامة الوحيدة الفريدة لهذا التوجه.

المحبة هي أكثر الوسائل سحرًا فهي تقلب المشقات رحمات. ومهما كان ثقل الخدمة التي تؤدى بالمحبة فإنها تقبل بسهولة وتتم بيسر. وفى نفس الوقت فإن قيمة أي خدمة ترتبط بحجم التضحية التي تبذل للوفاء بها وترتبط بأدائها كأنها عبادة.

والخدمات الخالصة الحقيقية هي رأس مال النضوج والاِكتمال القلبي، والقلوب التي وصلت إلى هذا الكمال هي: «محل نظر الحق ﷻ».

إن أسماء «**الرحمن والرحيم**» التي ذُكرت كثيراً في القرآن الكريم هي من صفات جماله ﷻ، لذا يجب أن تتحول الرحمة والشفقة إلى خصلة أصيلة في الإنسان المؤمن.



الشخص المحروم من الشفقة والذي لا يعرف التأسي والرحمة هو شخص فقد مفتاح باب أكبر خزائن السعادة كلها، ويجب علينا أن نتألم أكثر للذين حرموا من الرحمة، ولم يعرفوا معنى التأسي والمواساة.

إن سبب الظلم هو الحرمان من المحبة. فالإنسان الذي لا يحب يتحول إلى وجود قاس متوحش طوال الوقت، فثمرة العشق الحقيقي هي الشفقة والرحمة. ولا يمكن الاِعتقاد أن هناك قلبا أو بلدا على وجه الأرض تستعصي على الفتح بالشفقة والرحمة، لأنه لو كان في مقدور الشمس ألا ترسل الضوء والدفء لكان في مقدور الأرواح القوية ألا ترحم وتتأسى للمخلوقات.

وقد نُقل عن الحلاج صاحب المكانة الفريدة في القلوب العاشقة أنه قدم نموذجًا كبيرًا في الإيثار القلبي عندما كان يتوسل إلى الله متضرعًا قائلا: «يا رب أعف عمن يرجمني قبل أن تعفو عني»

لو أردنا أن نعرف درجتنا في الطريق المعنوي يجب علينا أن نحلل سلوكياتنا وحالنا وتصرفاتنا.

إن الأنانية والخيلاء هما سرطان الطريق المعنوي. وقد ابتلي إبليس باللعن والخسران بسبب أنه شعر بالخيلاء والعجب.

يقول مولانا جلال الدين–قدس سره–: «من المهم أن تكتسب طبيعة الوردة، أي أن تكون وردة إلى هذا العالم كله تحتضنهم في رحاب الربيع وتنسيهم عذابات الشتاء، لا ليروا أشواكها ويتألموا مثلها».



ولعل نصيحة السيد عبد الخالق اَلْـ كُجْدُوانيِّ القيّمة الخاصة بالصلاح الروحي وبجماليات السلوك هي أفضل دستور للقلب وأجمله لطريق التصوف إذ يقول:

«أي بني هذه وصيتي إليك: لتكن على علم وأدب وتقوى في أحوالك كلها. اقرأ كتب السلف، وامض في طريق أهل البيت وأهل السنة والجماعة. تعلم الفقه والحديث واهرب من الصوفية الجهلاء. أقم صلواتك دائمًا مع الجماعة. لو وجدت ميلاً إلى الشهرة في قلبك فلا تؤذن ولا تُصَلِّ إمامًا. ابتعد عن الشهرة بقدر ما تستطيع. فالشهرة آفة. لا تتعالى أبداً، بل وطن نفسك على التواضع. لا تتول عملاً لن تستطيع أن تقوم به لأنه فوق طاقتك.

لا تتدخل في أعمال أناس ليسوا على علاقة بك. لا تقم أو تقعد أبدًا مع الفاسقين، وحافظ على الأِعتدال في كل أمر. تجنب التخمين والظن، ولا تنخدع أكثر بسماع الصوت الجميل، لأن هذا يُظلم الروح، ويجلب النفاق في النهاية. ومع هذا لا تنكر الصوت الجميل؛ لأن الأذان والقرآن الذي يُقرأ بصوت جميل يحيي القلوب والأرواح. كُل قليلاً وتكلم قليلاً، ونم قليلاً. فِر من الحمقى والغافلين فرارك من الأسد.

اختر العزلة في أوقات الفتنة. ابق بعيدًا عن الذين يعطون الفتوى طلبًا للمنفعة فيضيعون الدنيا، وعن الأغنياء المتكبرين وعن الجهلاء. كُل حلالاً واحذر الشبهات وتمسك بالتقوى عند الزواج؛ لأن عكس ذلك تمسك بالدنيا ومخالفة للدين في ذلك الطريق.



لا تضحك كثيرًا واجعل ضحكك تبسمًا لا قهقهة، فالضحك الكثير يميت القلب. ولكن لا تكن عابس الوجه، لأن التبسم صدقة. وانظر لكل شخص بعين الشفقة، ولا تحقرنّ أحدًا.

لا تتطرف في التزين والتجمل الظاهري. وارتدِ البسيط الجميل؛ لأن الأِعتناء بالمظهر الخارجي يأتي من خراب الداخل وفساده. لا تجادل ولا تطلب شيئاً من أحد.

واستغن عن الناس، وكن غنياً بالقناعة وحافظ على وقارك. عظِّم ووقِّر من علموك وقاموا بتربيتك وتركوا أثرًا فيك، اخدمهم بروحك وبكل ما تملك، واجعل حالك تبعًا لحالهم. ولن يفلح الغافلون الذين يستهزؤن بهم ولا يحترمونهم. لا تمِل إلى الدنيا وإلى أهلها الغافلين.

رقِّق قلبك بالحزن وبلِّل عيناك بالدموع ليقوى بدنك على العبادة. اخلع عملك والجأ إلى الدعاء وصاحب الصالحين.

واجعل التواضع لباسك. اجعل علوم الدين الظاهرة والباطنة رأس مالك واجعل منزلك مسجدًا أو قريبًا من ذلك تكن من أحبّاء الحق ﷻ..اللهم اجعلنا ممن يتقيدون بهذه النصائح والوصايا آمين...



المحتويات

